صيغة نفي القسم في القرآن الكريم دراسة تحليليَّة دلاليَّة نحويَّة

أطروحة تقدَّمت بها

سمية محمد عناية حاج نايف

إلى

مجلس كليَّة التربية ((ابن رشد)) ـ جامعة بغداد

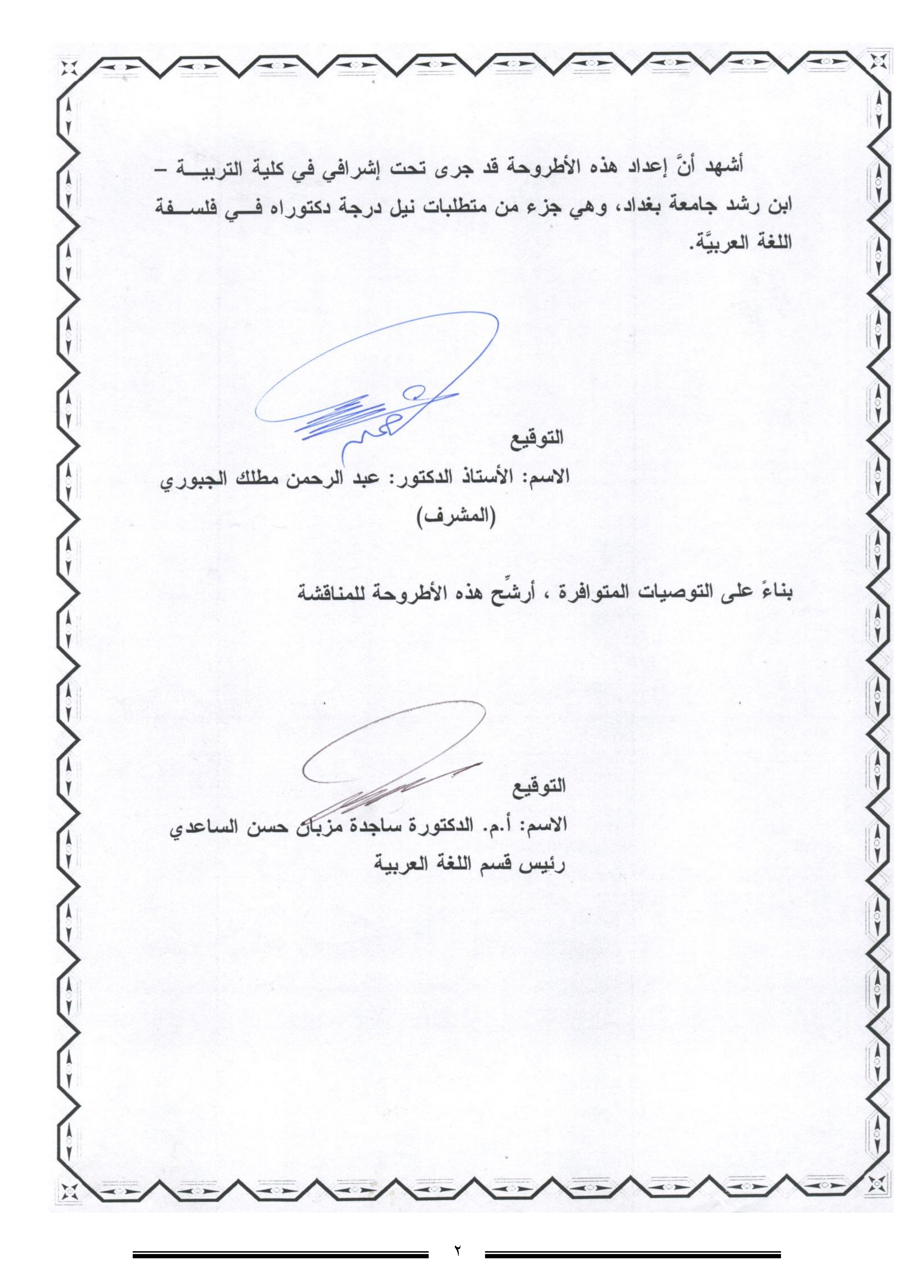
وهي جزء من متطلَّبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربيَّة / لغة

بإشراف

الأستاذ الدكتور

عبد الرحمن مطلك الجبوري

رجب ١٤٢٥هـ — آب ٢٠٠٤ م



أشهد أنَّ إعداد هذه الأطروحة قد جرى تحت إشرافي في كلية التربيــة – ابن رشد جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فـــي فلســفة اللغة العربيَّة.

التوقيع

الاسم: الأستاذ الدكتور: عبد الرحمن مطلك الجبوري

(المشرف)

بناءً على التوصيات المتوافرة ، أرشِّح هذه الأطروحة للمناقشة

التوقيع

الاسم: أ.م. الدكتورة ساجدة مزبان حسن الساعدي

رئيس قسم اللغة العربية

قرار لجنة المناقشة

نحن اعضاء لجنة المناقشة نشهد بأننا اطلعنا على اطروحة الطالبة (سمية محمد عناية)الموسومة بـ(صيغة نفي القسم في القرآن الكريم دراسة تحليلية دلالية نحوية) وقد ناقشنا الطالبة في محتوياتها وفيما له علاقة بها , ونعتقد أنها جديرة بالقبول لنيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية / لغة وبتقدير (مستوفٍ) جيد جداً

أ.د. هاشم طه شلاش

رئيس اللجنة

أ.د.نعمة رحيم العزاوي	**أ.د. رشيد عبد الرحمن العبيدي**
عضواً	**عضواً** ١٠/١٦
أ.م.د.ضرغام محمود الخفاف	**أ.م.د. محمد علي حمزة**
عضواً	**عضواً**

٢٠٠٤/١٠/١٦

أ.د.عبد الرحمن مطلك الجبوري

مشرفاً

صدقها مجلس كلية التربية / ابن رشد

جامعة بغداد

أ.د. عبد الامير عبد دكسن

العميد

التاريخ : ٣٠ / ١٠ / ٢٠٠٤

جامعة بغداد
كلية التربية / ابن رشد
الدراسات العليا *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ

﴿حـم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

"صَدَقَ اللهُ العَظِيم"

فصلت : ١-٣

الإهداء

إلـى

- زوجي الحبيب الذي كان لي أبًا وأخًا ومعلِّمًا وصديقًا
- روح والدتي الطاهرة تغمَّدها الله برحمته
- والدي الحبيب أطال الله عمره
- إخوتي وأخواتي
- من صاروا لي أهلا وإخوة في غربتي الطويلة

المحتـويـات

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَــــة

باسْم الله تعالى أبْتَدِئُ وأَفْتَتِح، وباسْمِه، إنْ شَاءَ، يكون مختتم ما به ابْتَدَأْته.

باسْم الله الجليل ملك الملوك الذي استَخْلَفَنَا وكَلَّفَنَا فِي الأرْض لنَنُوب عن جلالته عــزَّ شأنه، في كلِّ أَمْرٍ أَمَرَ بِه، ومن ذلك ما اخْتَصَصْت به ولأجله واخْتَصَّ به ولأجله الكثيــرون خِدْمَةً للغة القرآن العظيم، من أجل أنْ نُجَلِّي ما فيها، وندفع ما شابها لِنَقْتَرِبَ مــن القــرآن على أصول ألفاظه ومعانيه ولِنُقَرِّب القرآن، على ذلك، إلى الأذهان والعقول كما أراد ربُّنَــا الجليل سبحانه.

ثُمَّ الحمد لله، ذي المِنَّة والفضل، إذْ شرَّفَنِي، أَنَا أَمَتُه ذات الضعْفِ والاتِّكَال بالبحث في كتابه العزيز وكَلِمِه المُعْجِز الجليل، وسَخَّرَ لِي مَنْ أَعَانَنِي مــن الأَسَــاتِذَة الأَكْفَــاء الأَدِلَّــاء والعلماء الأجِلَّاء، لِجَمْعِ ما تَيَسَّر لي جمعه من المصادر والأقوال.

وأَفْضَل الصَّلاةِ وأَتَمُّ التَّسْلِيْم عَلَى صاحِبِ الوَحْي الأمين، محمَّد الذي اقْتَدَيْنَا بِهَدْيه عبر العصور قائدًا، وتَأَسَّيْنَا به معلمًا، وسِرْنَا على نهجه، لِنَعْلَم الكتاب والحِكْمَة ، فكان لنا، على الدوام، داعيًا إلى الله وسِرَاجًا مُنِيْرا.

وعلى آله الطَّيِّبِيْن الأطهار، الذين ما اقْتَدَى بِهِمْ مُقْتَدٍ حَقَّ الاقْتِدَاء إلا اهْتَدَى واسْتَقَام وما أَنْكَر مُنْكِرٌ عِلْمهم وَفَضْلهم بظُلْم إلا ضَاع وَبَقِيَ في الظَّلام. وعلــى صَــحْبِه المُنْتَجَبِــيْنَ الأَخْيَار، الذين كانوا حَوْلَه به كالنُّجُومِ والأَقْمَار. وعلى التَّابِعِيْن وتَابِعِيْ التَّابِعِيْن ومَنْ تَــبِعَهَم بِإِحْسَانٍ مِنْ العُلَمَاء والمُجَاهِدِين والعَامِلِيْن إلى يوم الدين.

أمَّا بعد.. فإنَّ عَظَمَة مُعْجِزَة الإسلام (القُرْآن الكَريم) تَكْبُر فينا وتَتَعَاظَم قِيمَتُهَا لَــدَيْنَا كُلَّمَا سَبَرْنَا غَوْرَ لُغَتِنا العربيَّة، فَتُثْبِتُ في النُّفوس كَمَــال ديننــا (الإســلام) وقُدْرتَــه علــى الاسْتِمْرَار، تَطْبِيْقًا وعطاءً لكلِّ زَمَانٍ وفي كلِّ مَكَان.

ومن أعظم ما منَّ الله به عليَّ أنْ هدانِي إلى موضوع أطروحتي الذي اقْتَرحه علــيَّ من أعدُّه بحقٍّ من جملة أساتيذي، د. أسامة محمَّد سعيد الملُّوحي، (صِيْغَةُ نَفْيِ القَسَمِ فِــيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ دِرَاسَة تَحْلِيْلِيَّة دَلالِيَّة نَحْوِيَّة)، فنال رضا أساتذتي وفاز بقبولهم وتأييدهم .

إنَّ أهميَّة هذا الموضوع تَكْمُن في الكَشْفِ عن كثير ممَّا مُلِئَت به الكُتب وبُنِيَت علــى أَسَاسه القواعدُ النحويَّة، فضلا عن المفاهيم والدَّلالات والعقائد التي تحتاج إلى إعادة نظــرٍ وبناء.

لقد لبَّى موضوع هذه الأطروحة شغف نفسي في دراسة موضوعٍ في القرآن الكريم، لم يُدْرس مُسْتَقِلا من قبل، وفيه خِلاف بين العلماء، ومَجَالٌ للعطاء وإعمالٌ للعقل . فجمعت المادَّة العلمية وصنَّفْتُها ثُمَّ دَرَسْتُها ونَاقشت ما فيها من آراء، وخرجت بنتائج قائمةٍ على أدلةٍ وبراهين تُثْبِتُ الرَّأْي المختار لديَّ، ثم اجْتَهَدْت في دِراسة دلالة آيات صيغة (لا أُقْسِمُ) وصولا إلى ما لَمْ يُذْكَر في كتاب، فكان التَّفَكُّر والتَّدَبُّر وإعمال العقل في النصوص سببًا في سهر الليالي بحثًا عن المعاني من خلال تَفَكُّرٍ في الآيات وإنْعام نظرٍ في روابطها إلى أنْ أكملتُ كتابة هذه الأطروحة.

والموضوع يَشْمَل في الأساس دِراسة ثمانية مواضع لصيغة (لا أُقْسِمُ) في القُرآن الكريم هي: (الواقعة:٧٥، الحاقة: ٣٨، ٣٩، المعارج: ٤٠، القيامة: ١، ٢، التكوير: ١٥، الانشقاق: ١٦، البلد: ١).

أمَّا دراسة الموضوع فقد قامت على ركنين:

أحدهما: العرض والتحليل والمناقشة والنقد.

والآخر: الدراسة الدلاليَّة.

وليصبر من يتبادر إلى ذهنه أنَّها ثمانية مواضعَ تصبُّ في عنوانٍ واحدٍ، وهذا العنوان لا يُشَكِّل إلا جُزْءًا يسيرًا من عنوانات موضوع القسم، الذي درسه عدد من المُحْدَثِيْن، ولا يخرج من نِطَاقه، فقد وضَّحت في هذه الأطروحة، بجلاء، مدى سعة هذا الموضوع، وتمام انْفِصَاله عن موضوع القسم، إنَّه عنوانٌ خاصٌ فريدٌ لأسلوبٍ معجزٍ عظيمٍ له أبعادٌ دلاليةٌ وأغراضٌ تخصُّه وتُمَيِّزُه من القسم، وقبل أنْ أحسِمَ أمري وأبدأ بدراستِي اطَّلَعْتُ على ما كتبه المُحْدَثُون عن صيغة (لا أُقْسِمُ) وبحثت في ستِّ دراساتٍ لهم[1]، فلم يكن ما وجدته في أغلب ما ورد في كتبهم، ورسائلهم إلا صدىً لقول من قال بزيادة (لا)، وقد جعل أغلب المُحْدَثِيْن هذا القول سائدًا، على الرَّغم من أنَّ (لا) الواردة في صيغة (لا أُقْسِمُ) كانت موضع خلافٍ بين المفسِّرين، فضلا عن النَّحويين.

وقد كان لي على المُحْدَثِيْن في دِرَاستِهِم لصيغة (لا أُقْسِمُ) في القرآن الكريم مآخذ أربعة:

الأوَّل: الإيجاز الشديد المُخِلُّ: وقد اتَّبعوا فيه إحدى طريقتين: طريقة التقرير المُسْبَق التي لا يَذْكُر الكاتب فيها آراءً قِيْلَت في الموضوع غير الرأي الذي أخذ به، وكأنَّه اخْتَار،

---

(١) ينظر من أساليب القرآن، أساليب النفي في القرآن، أساليب القسم في اللغة العربية، أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم، أسلوب القسم في القرآن الكريم لعواطف الزبيدي، أسلوب القسم في القرآن الكريم لسعيد الحداد.

سلفًا، ما اقْتَنَع به، ثمَّ ثَبَّتَه في كتابه مع عدَّة أمثلة[١]. وطريقة عَرْضِ عدد من الآراء التي قيلت في صيغة (لا أُقْسِمُ) عرضًا سريعًا مع إشارة الكاتب إلى تبنِّي رأيٍ من الآراء، وهذه الطريقة مُوجزة مُخْتَصرَة، أخلَّت بالعرض، ولكنْ بدرجةٍ أقلَّ من سابقَتِها[٢].

الثاني: الاكْتِفَاء بالنَّقل من غير إعمال العقل، والنقل عن علمائنا الأجلاء، رحمهم الله، أمرٌ غير مستكرهٍ، فهم بلا شكٍّ، مرجعٌ لاستِقاء العلوم ودراستها، ولا يمكن الاستِغْنَاء عن علمهم، ولهم في نفوس طلبة العلم من المكانة ما لا يمكن أنْ تعبِّر عنه الكلمات، ولكنَّ العلم لم يتوقف عندهم أو في زمانهم، فقد أعطوا واجتهدوا ورأوا رأيهم، وهم، بلا شكٍّ، لا ينكرون على دارسِي اللغة العربية أنْ يجتهدوا ويبحثوا ويروا رأيهم أيضًا في مسائل العربيَّة.

هذا فضلا عن أمرٍ عظيمٍ آخر يُضْعِفُ النَّقْلَ ويَثْلم سُلْطَانه، سوى القرآن الكريم، وهو ما ضاع عبر السنين، وما أُتْلِف بالكوارث والنكبات التي حلَّت بكثيرٍ من حواضر المسلمين من بغداد إلى الأندلس، وما كان من إتلافٍ وإحراقٍ على يد المغول لملايين الكتب والمؤلَّفات جزء قليل من كمٍّ هائلٍ انْدَثَر أغْلَبُه.

وأقول، بلا تردُّد، إنَّ الاعْتِمَاد على النقل من غير إعمال العقل في عرض صيغة (لا أُقْسِمُ) عند عدد من المحدثين[٣]. طريقة فيها خلل بل كلُّها خلل، وذلك لكثرة الآراء المنقولة وتعدُّدها في هذه الصيغة، وقد كان السرد عندهم من غير مشاركةٍ للكاتب المُحْدَث في موافقةٍ لما قيل أو تفنيدٍ أو مناقشةٍ، أو حتَّى ترجيحٍ لرأيٍ على آخر.

الثالث: ضَعْفُ مُسَوِّغَات القول بزيادة (لا): بدا لي أنَّ قول المحدثين بزيادة (لا) الواردة في صيغة (لا أُقْسِمُ)[٤] واختيارها رأيًا من بين الآراء الأخرى التي قيلت فيها كان الاخْتِيَار الأسهل لديهم، وكان دحض الآراء الأخرى عسيرًا عليهم، لأنَّها كانت دالةً مؤثرةً في المعنى، أكثر من رأي الزيادة، ولم يكن من الممكن ترجيح رأي زيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) الذي يُلْغِي عَمَلَ (لا) وأثرها والاحْتِجَاج به إلا من خلال اعْتِمَاد المُحْدَثِيْن على أقوال النحويين والمفسِّرين القُدَامي القائلين بِه.

---

(١) ينظر من أساليب القرآن (٥٧)

(٢) ينظر أساليب النفي في القرآن (٥٥)

(٣) ينظر أسلوب القسم في القرآن الكريم، لعواطف الزبيدي (٩٧- ١٠٣)

(٤) ينظر أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم (٨٩-٩٥)

الرابع: الخلط وعدم الدقَّة في القياس والاسْتِشْهاد: وأكثر ما يَظْهَر هذا المَأْخَذ عند المُحْدَثِيْن[1] وهم يتكلَّمون على (لا) الواردة في صيغة (لا أُقْسِمُ) على أنَّها زائدةٌ للتوكيد ويستشهدون على ذلك القول، ويقرنونه بزيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[2]، كما نقلوه عن عدد من الأقدمين على الرغم من وجود خطأ في القياس، سأُوَضِّحُه في موضعه إنْ شاء الله تعالى، وكان حريًّا بالمُحْدَثِين أنْ يَتَخَيَّرُوا النقل بالعقل في ما سوى القرآن الكريم ممَّا نقلوه عن الأقدمين.

ومن الصعوبات التي واجهتني في كتابة الأطروحة، تَخَيُّر المراجع الأساسيَّة، وملاحقة المصادر الضروريَّة لعرض الآراء بعد تقسيمها ثمَّ مُنَاقَشَتِها وردِّ بعضها، وغير ذلك كثير، إذ لم يُفْرِد أحدٌ لهذا الموضوع بحثًا أو دراسةً من قبل، وكان عليّ أنْ أتحمَّل العبء الأكبر، ممَّا تطلَّب الوقت والصبر وتحرِّي الدقَّة والعمل المنهجيِّ من أجل لَمِّ الشَّتَات المُتَنَاثِر وإسْنَاده بالنَّقْل والحُجَّة، ثُمَّ اسْتِنْتَاج الجديد وتَأْطِيْره، فقد رجعت إلى كتب النحو والصرف والتفسير وعلوم القرآن ومعانيه وإعرابه وكتب القراءات ومعاني الحروف وكتب اللغة والمعجمات وكتب البلاغة والأدب، وكتب الحديث والسيرة، ودواوين الشعر.

اقْتَضَت طبيعة البحث أنْ يُقَسَّم على ثلاثة فصولٍ، تتلوها خاتمة بالنتائج وتَسْبِقُها هذه المُقَدِّمة.

كان الفصل الأوَّل: مَبَاحِثَ مُؤَسِّسَة للأطروحة في ثلاثة مباحث: الأوَّل: القسم وخصائصه في القرآن الكريم. الثاني: أقوال النحاة في (لا) النافية. أمَّا الثالث؛ فوقفاتٌ لافتة في صيغة (لا أُقْسِمُ).

وكان الفصل الثاني: أقوالَ العلماء وآراءهم في صيغة نفي القسم، في مبحثين: عرضت في أحدهما طرائق المفسِّرين وأقوالهم في تفسير آيات نفي القسم وما بعدها في القرآن الكريم.

ودرست في الآخر ما قيل في صيغة (لا أُقْسِمُ)، من خلال إجمال الآراء النحويَّة والدلاليَّة المختلفة التي وردت فيها، ومناقشة كلِّ رأيٍ على حدةٍ مع سرد أدلَّة صاحب الرأي والردّ عليها، ثُمَّ تحليل كلِّ ذلك باتِّجاه الرأي والدلالة التي رأيتها في صيغة نفي القسم.

أمَّا الفصل الثالث؛ فكان أغراض صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، اجْتَهَدت في إخراجها وتسميتها.

---

(١) ينظر أساليب النفي في القرآن (٥٤)، أسلوب القسم واجتماعه مع الشروط في رحاب القرآن الكريم (٨٨)، القسم في القرآن الكريم لسعيد الحداد(١٤٠) .

(٢) النساء: ٦٥

وأدرجت في الخاتمة أهمّ ما توصّلْت إليه في دراستي من نتائج.

وأخيرًا وليس آخرًا، لا يسعني في ختام مقدّمتي، إلا أنْ أُشِيْد بفضل أولي الفضل عليَّ وأخصُّ منهم بالذِّكر أستاذي المشرف الشيخ الدكتور عبد الرحمن مطلك الجبوري لما بـذل من وقتٍ وقدَّم من جهدٍ في قراءة الأطروحة وتَوْجِيْهِهَا وإبداء مُلاحظاته السديدة التي أغنت فصولها ومباحثها تقويمًا وتوجيهًا، فله منِّي جزيل الشكر وجزاه الله عنِّي خير الجزاء.

وأتقدَّم أيضا إلى زوجي الدكتور أسامة محمَّد سعيد الملُّوحي بالشكر والعرفـان لمـا أولانيه من رعايةٍ واهتمامٍ، ولما قدَّمه لي من نصحٍ وإرشادٍ، فقـد كانـت استِشَـارتي لـه مُستَمِرَّةً غير مُنْقَطِعَةٍ وكان عطاؤه بلا مللٍ أو توقُّفٍ، فله منِّي الشكر والامْتِنَان وجـزاه الله عنِّي خير الجزاء.

وأتقدَّم بالشُكر والعرفان إلى أساتذتي الكرام الذين سَقَوني من مَعِين عِلْمِهم وقدَّمُوا لي الكثير منذ ستِّ سنواتٍ إلى اليوم وأعظم ما تعلَّمته منهم أنْ أُحلِّـل وأزيـد بعـد أنْ أبحـث وأدرس وأنْ تكون لي شخصيَّتي المُميَّزة باحثة ودارسة، وهذا ما فعلته لا أكثر.

وبعد فالله العظيم أسأل أنْ يكون عملي كلُّه خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يكـون الجهـد الذي بذلته في هذه الدراسة نافعًا مقبولا عنده، خدمةً للغة القرآن الكريم ودارسيها.

﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

الفصل الأوَّل

مَبَاحِث مُؤَسِّسَة

لِلأُطْرُوْحَة

المبحث الأوَّل

القَسَمُ وَ خَصَائِصُهُ فِي القُرْآن الكَرِيْم

ينقسم على مطلبين:

المطلب الأول: القَسَمُ وأَغراضُهُ

المطلب الثاني: خَصَائِصُ القَسَمِ في القُرآن الكَريم

تَعْرِيفُ القَسَم:

في اللغة: قال ابن منظور: ((القَسَمُ بالتحريك: اليَمِين))[1] وقد ورد في المعجمات (أَقْسَمَ) بمعنى (حَلَفَ)[2]، و(حَلَفَ) بمعنى (أَقْسَمَ)[3]. إلا أنَّ أبا هلال العسكري فرَّق بينهما بقوله: ((القَسَمُ أبلغ من الحَلْفِ لأنَّ معنى قولنا (أُقْسِمُ بالله) أنَّه صار ذا قسم بالله، والقسم النصيب والمراد أن الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله.

والحلف من قولك سيف حليف، أي قاطع ماض، فإذا قلت حلف بالله فكأنَّك قلت قطع المخاصمة بالله، فالأوَّل أبلغ، لأنَّه يتضمن معنىً واحدًا وهو قطع المخاصمة فقط.))[4].

أما د. عائشة عبد الرحمن فقد جلَّت هذا الفرق وأوضحته بقولها: ((قد يبدو من السهل هنا أن نفسِّر (أُقْسِم) بلفظ (أَحْلِف)، وليس في استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر... وفي القاموس: حَلَفَ أي أَقْسَم. لكن التتبع للاستعمال القرآني يمنع هذا الترادف، ويأبى أن نُفَسِّر القَسَم بالحلف، إذ جاءت مادة (حَلَفَ) في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا[5]، كلها بغير استثناء، في مقام الحنث باليمين: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾[6]... ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[7]... ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[8].

ثُمَّ إنَّ القرآن لم يستعمل (حَلَفَ) قط حين يكون القسم بالله صراحة، كما لم يرد الفعل منه قط مسندا إليه تعالى، في أي موضع من كتابه الكريم. على حين لم يأت الفعل (أُقْسِم) مؤكدا بـ(لا)، إلا مُسْنَدا إلى الله تعالى، في كلِّ المرَّات الثماني التي استعمل فيها القرآن (لا أُقْسِم).

---

(١) لسان العرب، (قسم)، (٤٨١/١٢)

(٢) ينظر مفردات غريب القرآن (٤٠٣)، أساس البلاغة (٥٠٧)، مجمع البحرين (٥٠٥/٢)

(٣) ينظر القاموس المحيط، (حلف)، (١٢٩/٣)

(٤) الفروق اللغوية (٤٢٨ – ٤٢٩)

(٥) ينظر النساء: ٦٢، التوبة: ٤٢، ٥٦ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ٧٤ ، ١٠٧، المجادلة: ١٤ ، ١٨، القلم: ١٠

(٦) المائدة: ٨٩

(٧) المجادلة: ١٤

(٨) القلم: ١٠

وجاء المصدر من (قسم) موصوفا بالعظمة في آية الواقعة ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1] ويجيء الفعل مُسْنَدا إلى غير الله تعالى، في أربعة مواضع، لكن في غير سياق الكذب أو الحنث باليمين ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنْ الْآثِمِينَ﴾[2]... وأمام هذا الاستعمال القرآني، لا يهون أبدًا أن نُفسِّر القَسَمَ بالحَلْفِ، وصنيع القرآن فيهما يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفهما، وهو فرق يؤيِّده فقه العربية، فاختلاف مادتي اللفظين يؤذن باختلاف مدلول كل منهما، وبين حَلَفَ وحَنَثَ من القرب، ما ليس بين حَلَفَ وقَسَمَ، مما يبعد معه أن يكونا سواء.))[3]

أمَّا اليمين؛ فـ((اسم للقَسَمِ مستعار، وذلك أنَّهُم كَانُوا إِذَا تَقَاسَمُوا عَلَى شَيءٍ تَصَافَقُوا بِأَيْمَانِهِم، ثُمَّ كَثُرَ ذَلك حَتَّى سُمِّيَ القَسَمُ يَمِيْنًا))[4].

وأسلوب القسم: جملةٌ يُؤَكَّد بها جملة أخرى، والقَسَمُ يمينٌ يُؤَكَّد به قائله شيئا من إيجاب أو جحد[5]

---

(١) الآية : ٧٦

(٢) المائدة: ١٠٦ ، ينظر المائدة : ١٠٧ ، الروم : ٥٥ ، القلم : ١٧

(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ١٥٧ – ١٥٨)

(٤) الفروق اللغوية (٤٢٩)

(٥) ينظر الإيضاح العضدي (٢٦٣/١)، اللمع في العربية (٢٨٦)، المخصص (١٣/ ١١٠)، شرح المفصل (٩٠/٩)، شرح الكافية الشافية (٨٣٤/٢).

أَرْكَانُ القَسَمِ:

أركان القسم عند النحاة: حرف قَسَمٍ، ومُقْسَمٌ به، ومُقْسَمٌ عليه، وقد رأى ابن يعيش أنَّ القَسَمَ ((يشتمل على ثلاثة أشياء: جملة مُؤَكِّدَة وجملة مُؤَكَّدَة، واسم مُقْسَمٌ به. فالجملة الأولى هي (أُقْسِم وأَحْلِف ونحوهما من أَشْهَد وأَعْلَم) وهي الجملة المؤكِّدة، وكذلك (لَعَمْرُك الله وأَيْمُن الله). والجملة المؤكَّدة هي الثانية المُقْسَمِ عليها، فإنْ كانت فِعلا وقع القَسَم عليه نحو (أَحْلِفُ بالله لَتَنْطَلِقَنَّ) وإنْ كان الذي تلقاه حرفا بعده اسم وخبر، فالذي يقع عليه القَسَمُ في المعنى الخبر كقولك (والله إنَّ زَيْدًا لَمُنْطَلِقٌ)... أما المُقْسَم به فكلُّ اسم من أسماء الله تعالى وصفاته ونحو ذلك مما يعظم عندهم.))[1]

ومن النحويين من زاد في الأركان، كابن خالويه، إذ قال: ((واعلم أنَّ القَسَمَ يحتاج إلى سبعة أشياء: أحرف القَسَمِ، والمُقْسِمِ، والمُقْسَم به، والمُقْسَم عليه، والمُقْسَم عنده، وزمان، ومكان))[2].

أمَّا جملة القسم؛ فيجاء بها لتوكيد جملة المقسم عليه، وتكون فعلية أو اسمية[3]، ((فالجملة الفعلية في القسم، قولك: (أَحْلِفُ بالله وأُقْسِمُ بالله) ونحوهما، واعلم أنَّ من الأفعال أفعالاً فيها معنى اليمين، فتجري مجرى (أَحْلِف) ويقع الفعل بعدهما كما يقع بعد (والله) وذلك نحو (أَشْهَدُ وأَعْلَم وآلَيْتُ) فلمَّا كانت هذه الأفعال لا تتعدَّى بأنْفُسِها جاؤوا بحرف الجر وهو الباء لإيصال معنى الحلف إلى المحلوف به..

فأمَّا الجملة الاسمية فقولك (لَعَمْرُك، ولَعَمْرُ أَبِيْك، ولَعَمْرُ الله) فعَمْرُك مبتدأ واللام فيها لام الابتداء والخبر محذوف تقديره (قسمي أو حلفي وحذفوه لطول الكلام بالمقسم عليه...))[4].

وفي جملة جواب القسم قال الزجاجي: ((ولا بدَّ للقَسَمِ من جواب، وجوابه في الإيجاب: (إنَّ، واللام)، وفي النفي (ما، ولا) وذلك قولك: (والله لأَخْرُجَنَّ)، (والله لَقَدْ خَرَجَ زَيْدٌ)... وتقول في النفي: (والله مَا خَرَجَ زَيْدٌ،... وكذلك ما أشبهه.

واعلم أنَّ الفعل المستقبل في جواب القسم إذا كان مُوجبا تلزمه اللام والنون، لا بدَّ من

---

(١) شرح المفصل (٩/ ٩٣)

(٢) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم (٣٧)

(٣) ينظر شرح الكافية الشافية (٢/٨٣٤)

(٤) شرح المفصل (٩/ ٩١)

ذلك كقولك: (والله لتَخْرُجَنَّ).))[1]

وقد يحذف جواب القسم ((وذلك إذا دلَّ عليه الكلام قبله، أو وقع القسم معترضا بين جُزأين متلازمين نحو قولك (أَنْتَ صَادِقٌ وَالله).))[2]

أَدَوَاتُ القَسَمِ:

قال ابن السراج: ((أدوات القَسَمِ، والمُقْسَم به خمس: (الواو والباء والتاء واللام ومن)، فأكثرها[3] الواو ثم الباء، وهما يدخلان على محلوف، تقول: (والله لأَفْعَلَنَّ وبالله لأَفْعَلَنَّ)، فالأصل الباء[4]... ألا ترى أنَّك إذا كنَّيت عن المُقْسَمِ به رجعت إلى الأصل فقلت: (به آتيك)، ولا يجوز (وه لا آتيك)، ثم التاء، وذلك قولك: تالله لأفعلنَّ، ولا تقال مع غير الله، قال الله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[5].))[6]

والباء أصل أحرف القسم، وإنْ كانت الواو أكثر استعمالا منها ((لأنَّها للإلصاق، فهي تلصق فعل القسم بالمُقْسَمِ به، ومن هنا،... اختصَّ بها الطلب والاستعطاف، فلا يقسم فيهما بغيرها نحو (بالله أخبرني، وبالله هل قام زيد)، أي أسألك بالله مستحلفا، وجاز إظهار الفعل، أي فعل القسم معها نحو ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[7]، كما يجوز إضماره نحو: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[8] بخلاف غيرها وجاز حذفها لا غيرها من أحرفه.))[9].

---

(١) الجمل في النحو (٧٠)، وينظر اللمع في العربية (٢٩٠ – ٢٩٢)، شرح ملحة الإعراب (٦٨ – ٦٩)، شفاء العليل (٦٨٩/٢ – ٦٩٠)، في التحليل اللغوي (٢٤٧).

(٢) إعراب الجمل وأشباه الجمل (٩٢)، وينظر الأساليب الإنشائية في النحو العربي (١٧١)

(٣) ينظر الكتاب (٤٩٦/٣)، المقتضب (٣١٨/٢)

(٤) ينظر المقتضب (٣١٧/٢)، اللمع في العربية (٢٨٦)، شرح اللمع (٢٧٠/٢ – ٢٧١)، المفصل في صنعة الإعراب (٣٨٣ – ٣٨٤)، أسرار العربية (١٤٨ – ١٤٩)، كشف المشكل (٥٨٣)، اللباب في علل البناء والإعراب (٣٧٥/١)، شرح المفصل (٣٢/٨ ، ٩٩/٩)، معجم المصطلحات النحوية والصرفية (١٨٧)

(٥) الأنبياء: ٥٧

(٦) الأصول في النحو (٤٣٠/٢)

(٧) النور: ٥٣

(٨) سورة ص: ٨٢

(٩) همع الهوامع (٤٧٧/٢)

أمَّا (الواو) فــ((تختصُّ بالظاهر، فلا تجرُّ ضميرا بخلاف البــاء... ولا يظهــر معهــا الفعل، أي فعل القسم، بل يُضمر وجوبا نحو ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[1].))[2].

أَنْوَاعُ القَسَمِ[3]

١ــ القَسَمُ الصَرِيْحُ أَو الظَاهِر:

((ويستدلُّ عليه بحرف القسم، مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَــوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾[4]. أو يستدل عليه بفعل القسم كقول الشاعر[5]:

وَأُقْسِمُ لا أَنْسَاكَ مَا ذَرَّ شَارِقٍ وَمَا هَبَّ آل فِي مُلَمَّعَةٍ قَفْر

أو يستدلُّ عليه بالحرف والفعل معا، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾[6]. أو يستدلُّ عليه بلفظ من ألفاظ القسم، اسما كان أو مصدرا، كقول امرئ امرئ القيس[7]:

فَقُلْتُ: يَمِيْنُ الله أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَو قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْك وَأَوْصَالِي ...

والقسم الصريح نوعان[8]: الأوَّل: ما كان جواب القسم فيه جملة خبرية، وهو الكثير الشائع الشائع من أساليب القسم كقولهم: بالله لأساعدنَّ الضعيف... الثاني: ما كان جــواب القســم فيه جملة إنشائيَّة، وهو قليل في أساليب القسم ويسمَّى بالقسم الاستعطافي. وتخــتصُّ بــه البــــاء من بين حروف القسم كقولهم: بالله هل ترحم الضعيف؟... وأكثر ما يذكر القسم الاستعطافي عند شعراء الغزل.))[9]

---

(١) يس: ٢

(٢) همع الهوامع (٢/٤٧٩)

(٣) ينظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا(١٣/٢٠٨)

(٤) الذاريات: ٧-٨

(٥) جميل بن معمر، ينظر ديوانه (٥٨).

(٦) الأنعام: ١٠٩

(٧) الديوان (١٤١)

(٨) ينظر شرح كتاب سيبويه (٢٠٦)، الأساليب الإنشائية في النحو العربي (١٦٥)

(٩) أساليب القسم في اللغة العربية (٣٢- ٣٤)، وينظر إعراب الجمل وأشباه الجمل (٨٩)، أسلوب القسم واجتماعه مع الشروط في رحاب القرآن الكريم (١٢٣)

٢ــ القَسَمُ غَيْر الصَّرِيْحِ أَو المُضْمَر:

((وهو: ما لا يعلم بمجرد لفظه كون الناطق به مقسما (كَعَلِمْتُ) نحو: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[١].))[٢]. فالقَسَمُ المُضْمَر ما لم يُذْكر معه القَسَمُ صريحا أو ظاهرا ويكون على قِسمين: ((قِسْم دلَّت عليه لام القسم، كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[٣]. وقسم دلَّ عليه المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٤]. وَارِدُهَا﴾[٤]. وتقديره والله.))[٥].

والألفاظ مثل (شَهِدْت، وعلِمْت، وجَاهَدْت، وأَوْثَقْت) تستعمل في القَسَمِ المضمر في الخبر، أمَّا في الطلب، فيكون بنحو (نَشَدْتُكَ الله وَعَمَّرْتُك الله (بالتشديد) وعَمْرُك الله وقَعْدُك الله)[٦]

وقد ورد هذا النوع من القسم مفصَّلا في كتاب إعراب القرآن المنسوب للزجَّاج[٧] في في باب (ما جاء في التنزيل من ألفاظ استعملت استعمال القسم وأجيبت بجواب القسم).

---

(١) البقرة: ١٠٢

(٢) همع الهوامع (٤٩٧/٢)

(٣) آل عمران: ١٨٦

(٤) مريم: ٧١

(٥) البرهان في علوم القرآن (٤٣/٣)

(٦) ينظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (١٥٠)، همع الهوامع (٤٩٨/٢)

(٧) ينظر (٩٥٨/٣ – ٩٦٥)

وُقُوعُ القَسَمِ بَعْدَ حَرْفِ جَوَابٍ:

١ــ وُقُوْعُه بَعْدَ (بَلَى): وهي حرف جواب ((مختصة بالنفي، فلا تقع إلا بعد نفي في اللفظ أو في المعنى. وتكون ردًّا له سواءٌ أقترنت به أداة الاستفهام أم لا.))[١].

فــ(بلى) حرف يختص بإبطال النفي، سواء كان خبرا أو استفهاما، وقد وردت قبل القسم في القرآن الكريم في أربعة مواضع كانت في آيتين منها جوابا لإبطال النفي بعد الاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾[٢]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِــالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾[٣]. وكانت في الموضعين الآخرين جوابا لإبطال نفي الخبر، وجاءت قبــل القسم في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[٤]، وقولــه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[٥].

وتختصُّ (بلى) بإثبات ما بعد النافي وعندما يتبعها القَسَمُ يزداد معناها تأكيــدا وتثبيتــا وحين جاء جواب القَسَمِ في الآيتين الأخيرتين مُؤكَّدًا باللام والنــون الثقيلــة ازداد التوكيــد تأكيدًا.

٢ــ وُقُوعُه بَعْدَ (إِيْ) بِكَسْرِ الهَمْزَةِ وَسُكُوْنِ اليَاء:

قال ابن يعيش: ((أمَّا إِيْ فحرف يجــاب بــه كــنعم وجيــر، ولا يســتعمل إلا فــي القسم.))[٦]، وذكر ابن هشام أن (إِيْ) ((لا تقع عند الجميع إلا قبل القسم.))[٧] فأشــار إلــى وجود إجماع على أنها لا تقع إلا قبل القسم، ولم ترد في القرآن الكريم إلا في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[٨]. وهذا الحرف يكون ((تصديقا للمخبر، ووعدا للطالب، وإعلامــا للمســتفهم[٩]، يقــال: قــد زارك إبراهيم، فتقول: إِيْ والله. ويقال: زرنا كثيرا، فتقول: إِيْ لَعَمْرِي. ويقال: هل جاء محمــد؟

---

(١) الجنى الداني (٤٢٠ – ٤٢١)، وينظر مغني اللبيب (٢٢٣/١)، معاني النحو (٢٧٥/٤)

(٢) الأنعام: ٣٠

(٣) الأحقاف: ٣٤

(٤) التغابن: ٧

(٥) سبأ: ٣

(٦) شرح المفصل (١٢٤/٨)

(٧) مغني اللبيب (١٥٩/١)، وينظر معاني النحو (٢٧٦/٤)

(٨) يونس: ٥٣

(٩) مغني اللبيب (١٥٩/١)

فتقول: إِيْ وَرَبِّي.))[1]. ومن هنا يتضح لنا سبب التصاق (إِيْ) بالقسم فلا تقع إلا قبله، وذلك للحاجة إلى التوكيد وتثبيت الأمر فهي (تصديق ووعد وإعلام).

أمَّا الزركشي فقد عدَّ (إِيْ) بمعنى نعم ممَّا يزاد للمبالغة في التوكيد إذ قال: ((قد علمت أنَّ القسم إنَّما جِيء به لتوكيد المُقْسَمِ عليه، فتارة يزيدون فيه للمبالغة في التوكيد وتارة يحذفون منه... فما زادوه لفظ (إِيْ) بمعنى نعم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾.))[2]. أي أنَّ (إِيْ) في الآية الكريمة للمبالغة في توكيد المقسم عليه، وهو (صدق الوعد بالعذاب والبعث) كما يفهم من الآيات التي تسبقها.

ومما يلحظ في حرفي الجواب (إِيْ وبَلَى) أنَّ القَسَمَ الواقع بعدهما في القرآن الكريم لم يأتِ إلا لفظ (الرب) مضافا إلى ضمير المتكلم[3].

وُقُوْعُ القَسَمِ بَعْدَ (كَلا):

(((كلا) في كلام العرب معناها الزجر والردع، ولا تعمل شيئا.))[4] وقد أكَّد ابن هشام هشام أنَّ هذا المعنى هو المعنى المعتمد عند ((سيبويه والخليل والمبرِّد والزجَّاج وأكثر البصريِّين... لا معنى لها عندهم إلا ذلك، حتَّى إنَّهم يُجيزون أبدًا الوقف عليها، والابتداء بما بعدها، وحتَّى قال جماعة منهم: متى سمعت (كلا) في سورة فاحكم بأنَّها مكيَّة، لأنَّ فيها معنى التهديد والوعيد، وأكثر ما نزل ذلك بمكة، لأنَّ أكثر العتو كان بها.))[5].

غير أنَّ من النحويين، كالكسائي وأبي حاتم ومن وافقهما، رأوا أنَّ معنى الردع والزجر ليس مستمرا في (كلا) ((فزادوا فيها معنىً ثانيًا يصحُّ عليه أنْ يُوقف دونها ويُبتدأ بها ثم اختلفوا في تعيين ذلك المعنى على ثلاثة أقوال:

أحدها: للكسائي ومتابعيه، قالوا: تكون بمعنى (حقا)[6]، والثاني: لأبي حاتم ومتابعيه قالوا: تكون بمعنى (ألا) الاستفتاحية، والثالث: للنضر بن شميل والفرَّاء ومن وافقهما،

---

(١) معاني النحو (٢٧٦/٤ – ٢٧٧)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤٤/٣)

(٣) ينظر أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم (٩٧)

(٤) رصف المباني في شرح حروف المعاني (٢١٢)، وينظر الجنى الداني (٥٧٧)، شفاء العليل (٩٨٢/٢)

(٥) مغني اللبيب (٣٧٨/١)

(٦) ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف (١٧٥)

قالوا: تكون حرف جواب بمنزلة (إِيْ) و(نعم)، وحملوا عليه ﴿كَلا وَالْقَمَرِ﴾[1] فقالوا: معناه: إِيْ والقمر.))[2].

وقد وردت (كلا) في القرآن الكريم في ثلاثة وثلاثين موضعا كلها في النصف الأخير[3]، منها ثلاثة مواضع لها ارتباط بموضوعنا في هذا المبحث، ورد فيها القسم مسبوقا بـ(كلا)، وهي قوله تعالى: ﴿كَلا وَالْقَمَرِ﴾ وقوله: ﴿كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[4] وقوله: ﴿كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾[5].

وفي هذه الآيات الكريمة وقعت (كلا) التي تحمل معنى النفي والزجر قبل القسم في الآيات، فهي نافية لكلام سابق أو مفهوم مخطئ في عقول المشركين، ثم أتى بعدها القسم مفصولا عنها.

ولو أراد الله، عزَّ وجلَّ، أن يردَّ أقوال المشركين بتكذيب الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، وما أُنزل عليه وإنكار البعث والقيامة، كما قال من تأوَّل معنى (لا) في صيغة (لا أقسم) على أنَّها نفي لما سبق من أقوال الكافرين لكان الأولى أن يكون بـ(كلا) لما فيها من معنى الردع والزجر، الذي يناسب طغيان الكافرين وصدَّهم.

---

(١) المدثر: ٣٢

(٢) مغني اللبيب (١ / ٣٧٨)

(٣) مغني اللبيب (١ / ٣٧٨)

(٤) العلق: ١٥

(٥) الهمزة: ٤

أَغْرَاضُ القَسَمِ:

أجمع النحويُّون، عند كلامهم على (القَسَمِ)، على أنَّ الغرض منه (التوكيد). قال سيبويه: ((اعلم أنَّ القسم توكيد لكلامك.))[1]، وقال ابن يعيش: ((اعلم أنَّ الغرض من القسم توكيد ما يقسم عليه من نفي أو إثبات.))[2]

أمَّا العلماء الذين ألَّفوا في علوم القرآن؛ فقد كان غرض التوكيد في القسم جليًّا واضحًا في أقوالهم، قال ابن قيِّم الجوزيَّة: ((والمُقْسَم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه.))[3]. وقال الزركشي: ((فإنْ قيل ما معنى القسم منه سبحانه، فإنَّه إنْ كان لأجل المؤمن فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار، وإنْ كان لأجل الكافر فلا يفيده، فالجواب قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: إنَّ الله ذكر القسم لكمال الحُجَّة وتأكيدها، وذلك أنَّ الحكم يفصل باثنين إمّا بالشهادة، وإمَّا بالقسم فذكر تعالى النوعين حتَّى لا يبقى لهم حجة.))[4]. ولذلك نجد السيوطي يقول: ((حتَّى جعلوا مثل: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[5] قسما وإنْ كان فيه إخبار بشهادة، لأنَّه لمَّا جاء توكيدا للخبر سمي قَسَمًا.))[6].

وقد ذكر د. كاظم الراوي أسباب إقسام الله، سبحانه وتعالى، في القرآن الكريم[7] أذكر أذكر منها:

١ـ الغالب على معنى القسم الإشهاد، والإشهاد أصل القسم ومنشؤه وليس معنى ذلك أنَّ كلَّ ما يشتقُّ من الشهادة يدلُّ على القَسَمِ. فعندما يقسم، سبحانه وتعالى، كأنَّه يُشهد ما أَقْسَمَ به على ما يقوله فيتعذَّر عليهم الإنكار، كما في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[8].

٢ـ أقسم، سبحانه وتعالى، بذاته لتصحيح الاعتقاد وتوجيه الناس إلى عدم القسم إلا به جلَّ شأنه، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾[9].

---

(١) الكتاب (٣/١٠٤)، وينظر اللمع في العربية (٢٨٦)، اللباب في علل البناء والإعراب (١/٣٧٣)

(٢) شرح المفصل (٩/٩٠)

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٣)

(٤) البرهان في علوم القرآن (٣/٤١)

(٥) المنافقون: ١

(٦) الإتقان في علوم القرآن (٢/١٣٣)

(٧) ينظر أساليب القسم في اللغة العربية (٤٧٢ – ٤٧٧)

(٨) الذاريات: ٢٣

(٩) مريم: ٦٨

٣ــ أقسم، سبحانه وتعالى، بمخلوقاته للاستدلال على وحدانيته، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾(١).

٤ــ إنَّ النفوس تملُّ الكلام على وتيرةٍ واحدةٍ، ولمَّا كان للقسم تأثيره في النفوس، فالله، سبحانه وتعالى، يقرع أسماعهم كلَّما استجدَّ أمرٌ مهمٌ.

٥ــ كون القسم إنشاء؛ فإنَّ ذلك يبهم طريق الإنكار على الخصم ويحمله على التفكير.

٦ــ يقسم، سبحانه وتعالى، لأنَّ في القسم إظهار التأكيد والجدِّ في القول.

٧ــ أقسم، سبحانه، لحكم كثيرة، منها ما يَلفت النظر إلى مواضع العبرة في هذه الأشياء المقسم بها والحثّ على تأمُّلها، ومنها ما ينير السبيل ويوضِّح الحُجَّة ويُبَيِّنُ المَحَجَّة.

٨ــ إنَّ أكثر الأقسام قد صُدِّرَت بها الآيات أو ذُكِرَت لاستئناف الكلام، وذلك يُوجِّه السامع إلى الإصغاء، فالمألوف عند الناس أنَّ الابتداء بالقسم في الكلام يوحي بأهميَّة الأمر المذكور بعده فيصغي الناس إلى الكلام باهتمام أكبر.

٩ــ أكثر أقسامه، سبحانه، لمجابهة الإنكار، وكانت العرب تجابه الإنكار باليمين، فردَّ الله، سبحانه وتعالى، على إنكارهم بالقَسَمِ فقال، جلَّ شأنه: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(٢).

ويبدو لي أنَّ مُجْمَلَ أغراض القسم في القرآن الكريم تنحصر بكونه:

أ _ قَسَمًا لافِتًا مُؤَكِّدًا.

ب_ قَسَمًا غَاضِبًا مُهَدِّدًا.

(١) الشمس: ١-٣

(٢) يونس: ٥٣

المطلب الثاني
خَصَائِصُ القَسَمِ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ

لتوضيح خصائص القسم في القرآن الكريم، عملت إحصاءً للقسم في القرآن الكـريم، وكانت نتائجه على النحو الآتي:

ورد القسم الصريح في القرآن الكريم في خمسةٍ وسبعين موضعًا، منها سبعٌ وخمسون آيةً مكيةً وثماني عشرة آيةً مدنيةً.

والقسم الصريح: هو ما صُرِّحَ فيه بالمُقْسَمِ به، كقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[1].

وقد صنَّف د. كاظم الراوي المواضع التي ورد فيها القسم الصريح في القرآن الكريم، على خمسة أنواع[2]:

١ــ أقسام صدرت من الله، سبحانه وتعالى، ابتداء وإنشاء، وقد ورد ذلك في إحدى وثلاثين آيةً مكيةً[3]، وآيةٍ مدنيةٍ واحدةٍ[4]، وممَّا تجدر الإشارة إليه هنا أنَّ المواضع التي ذُكِرَت فيها آيات قَسَمٍ متصلة كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[5]. عُدَّت موضعًا واحدًا، على الرغم من وجود سبع آيات قسمٍ فيها.

٢ــ أقسام علَّمها الله تعالى رسوله، وأمره بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[6]، وقد ورد ذلك في آيتين مكيتين[1] وآيةٍ مدنيةٍ

---

(١) التين: ١-٣

(٢) ينظر أساليب القسم في اللغة العربية (٣٦١ – ٣٧٠)

(٣) ينظر الحجر: ٧٢ ، ٩٢- ٩٣، النحل: ٥٦ ، ٦٣، مريم: ٦٨ ، يس: ١- ٢، الصافات:١-٤، ص: ١-٢، الزخرف: ١-٣، الدخان: ١-٢، ق: ١-٢، الذاريات: ١-٦ ، ٧-٨ ، ٢٣ ، الطور: ١-٧، النجم: ١، القلم: ١-٢، المدثر: ٣٥، المرسلات: ١-٧ ، النازعات: ١-٧ ، البروج: ١-٤، الطارق: ١-٣، ١١-١٤، الفجر: ١-٤، البلد: ٣، الشمس: ١-١٠، الليل: ١-٤، الضحى: ١-٣، التين: ١-٤، العاديات: ١-٦، العصر: ١

(٤) النساء: ٦٥

(٥) الشمس: ١-٨

(٦) يونس: ٥٣

واحدة[٢].

٣ـ أقسام حكاها القرآن الكريم عن الأنبياء والمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٣]، وقد ورد ذلك في سبع آيات مكية[٤]، وأربع آيات مدنية[٥].

٤ـ أقسام حكاها القرآن عن المنافقين والكافرين، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٦]، وقد ورد ذلك في ثلاث عشرة آية مكية[٧] واثنتي عشرة آية مدنية[٨].

٥ـ أقسام حكاها القرآن الكريم عن إبليس، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٩].

والنوع الذي يعنينا في هذا البحث هو النوع الأوَّل، فإذا تأمَّلنا القسم الصريح الصادر من الله، سبحانه وتعالى، ابتداءً وإنشاءً، نلحظ أنَّ خصائصه تتمثل بـ:

١ـ أنَّ المُقْسَمَ به منَ الله، جلَّ جلاله، مُدْرَكٌ من المخاطب وظاهرٌ لـه، وقد ورد المُقْسَمُ به في هذا النوع بعد واو القَسَمِ ما عدا ثلاثة مواضع ورد في أحدها القسم بصيغة(لَعَمْرُكَ)[١٠] وورد في الموضعين الآخرين بالتاء مع لفظ الجلالة (تالله)[١١].

والمواضع التي ورد القسم الصريح فيها من الله، جلَّ جلالـه، بعد واو القسم، هي قوله تعالى:

- ﴿يس*وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ*إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾[١٢].

---

(١) ينظر يونس: ٥٣، سبأ: ٣

(٢) ينظر التغابن: ٧

(٣) الأنبياء: ٥٧

(٤) ينظر الأنبياء: ٥٧، القصص: ١٧، الصافات: ٥٦، يوسف: ٧٣ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٥

(٥) ينظر المائدة: ١٠٨، ١٠٨، النور: ٦ ، ٨

(٦) الأنعام: ٢٣

(٧) ينظر الأنعام: ٢٣ ، ٣٠ ، ١٠٩، الأعراف: ١٦ ، ٢١ ، ٤٩، ابراهيم: ٤٤، النحل: ٣٨، الشعراء: ٤٤ ، ٩٧، الحجر: ٢٩، النمل: ٤٩، الروم: ٥٥، فاطر: ٤٣، ص: ٨٣، الأحقاف: ٣٤، القلم: ١٨

(٨) ينظر النساء: ٦٢، المائدة: ٥٣، التوبة: ٤٢، ٥٦، ٦٢ ، ٧٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٧، المجادلة: ١٤، ١٨، النور: ٥٣

(٩) سورة ص: ٨٣ ، ينظر الأعراف: ١٦ ، ٢١ ، الحجر: ٣٩

(١٠) ينظر الحجر: ٧٢

(١١) ينظر النحل: ٥٦ ، ٦٣

(١٢) يس: ١-٢

- ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ*بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[1].
- ﴿حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].
- ﴿حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[3].
- ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ*بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[4].
- ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا*فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا*فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا*فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا*إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ*وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[5].
- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ*إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾[6].
- ﴿وَالطُّورِ*وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ*فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ*وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ*وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ*وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِإِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾[7].
- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى*مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[8].
- ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ*مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[9].
- ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ*وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ*وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ*إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾[10].
- ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا*فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا*وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا*فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا*فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا*عُذْرًا أَوْ نُذْرًا*إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[11].
- ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا*يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ*تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾[12].
- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ*وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ*وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ*قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾[1].

---

(١) ص: ١-٢
(٢) الزخرف: ١-٣
(٣) الدخان: ١-٢
(٤) سورة ق: ١-٢
(٥) الذاريات: ١-٦
(٦) الذاريات: ٧-٨
(٧) الطور: ١-٧
(٨) النجم: ١ -٢
(٩) القلم: ١-٢
(١٠) المدثر: ٣٢-٣٥
(١١) المرسلات: ١-٧
(١٢) النازعات: ١-٧

- ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ*إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾(٢).
- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ*إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ*وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾(٣).
- ﴿وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾(٤).
- ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(٥).
- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾(٦).
- ﴿وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾(٧).
- ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٨).
- ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا*فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا*فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا*فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا*فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا*إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾(٩).
- ﴿وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾(١٠).

إنَّ المُقْسَمَ به في هذه الآيات الكريمة مُدْرَكٌ من المخاطب، وظاهرٌ له، لأنَّه من الأمور المحسوسة عنده، المُدْرَكَة بإحدى الحواسِّ الخمس.(١). فنجد القسم (بالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والفجر والضحى والنهار والعصر... إلى آخره).

---

(١) البروج: ١-٤

(٢) الطارق: ١-٣

(٣) الطارق: ١١-١٤

(٤) الفجر: ١-٥

(٥) الشمس: ١-٨

(٦) الليل: ١-٤

(٧) الضحى: ١-٣

(٨) التين: ١-٤

(٩) العاديات: ١-٦

(١٠) العصر: ١

وما يلحظ، أنَّ هذه الآيات الكريمة مكيَّةٌ، إذ الحاجة قائمة إلى تثبيت الأمور المعنوية بالقسم بالمشاهد المحسوس من مخلوقات الله وآياته في الكون، لأنَّ الناس أنكروها ورفضوا تصديقها.

وترى د. عائشة عبد الرحمن: ((أنَّ القسم بالواو، غالبًا، لونٌ من البيان الفني للمعاني بالأشياء الحسية وما يلمح فيه من الإعظام إنَّما يُقْصَدُ به إلى قوَّة اللفت، واختيار المُقْسَمِ به تراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف، وحين نتتبَّع أقسام القرآن في مثل آيــة (الضــحى) نجدها تأتي عَرضًا بيانيًّا لصورة ماديَّةٍ مُحَسَّةٍ يستحضر بها واقعٌ مشهودٌ لافتٌ إلى صــورةٍ مماثلةٍ أخرى معنوية غير مشهودة ولا ملموسة، فالقرآن الكريم في قَسَمِهِ (بالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ وَإِذَا تَنَفَّسَ، والنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى، واللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَإِذَا يَغْشَى، وَإِذَا أَدْبَرَ) يجلو معاني الهدى والحقّ أو الضلال والباطل بماديَّات من النور والظلمة، وهذا البيان للمعنويِّ بالحسِّ هو الذي يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن فنقبلها دون تكلُّف أو قسر في التأويل.))(٢) .

وقد يرى بعضهم أنَّ اقتران الواو في القسم الصريح من الله، تبارك وتعالى، بالمُقْسَمِ به المحسوس والمدرك من المخاطب لا يشمل المواضع المذكورة كلَّها مستدلا علــى ذلــك بالآيات الكريمة، التي ورد القسم الصريح فيها من الله، جلَّ جلاله، بــ(الصَّافَات، المُرْسَلات، النَّازِعَات)(٣).

ولكنَّنَا نقول: إنَّ معنى هذه الآيات الكريمة ليس مُجْمَعًا عليه من المفسرين، فهنــاك اختلافٌ بينهم في حقيقة معاني هذه الآيات الكريمة، فقــد فسَّرها عدد منــهــم بأنَّــــــها الملائكة(٤)، ونجد في الوقت نفسه من يُفسِّر الصافات بــ(العلماء أو الطير)(٥) والمرســلات بــ(رياح العذاب)(٦) والنازعات بــ(خيل الغزاة)(٧).

---

(١) ينظر شروح التلخيص (٣٠٦/٣)، البيان في ضوء أساليب القرآن (٤٢)

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم (٢٠/١)

(٣) ينظر الصافات: ١، المرسلات: ١، النازعات: ١

(٤) ينظر الكشاف (٣٣٣/٣)، (٢٠٢/٤ ، ٢١٢)، تفسير الجلالين (٥٨٧ ، ٧٨٩)، تفســير الصــابوني (٢٨/٣ ، ٥١٣)

(٥) ينظر الكشاف (٣٣٣/٣)

(٦) ينظر الكشاف (٤ / ٢٠٢)

(٧) ينظر الكشاف (٤ / ٢١٢)

وقد رفضت د. عائشة عبد الرحمن أنْ يكون معنى هذه الآيات الكريمة، (الملائكة) وفسَّرَت النازعات بـ(الخيل المغيرة)[1].

وفي القسم الصريح المقترن بالواو لم يرد لفظ الجلالة (الله) مقترنًا بها في القرآن الكريم، وإنَّما ورد مع واو القسم صفة (الرب) مضافا إليها الضمير الذي يشير إلى الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، قال تعالى:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[2].
- ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[3].
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4].
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾[5].
- ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[6].
- ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[7].

أو مضافًا إلى آيات الله، سبحانه وتعالى، كقوله، جلَّ شأنه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[8].

وإذا تأمَّلنا الآيات الكريمة، التي ورد فيها لفظ (الربِّ) مضافًا إلى الضمير الذي يشير إلى الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، نجد أنَّ مسألة المُدْرَك والظاهر عند المخاطب تتَّضِح أكثر فأكثر، فالله، جلَّ جلاله، عندما يُقْسِم مخاطبًا الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، بقوله (فلا وَرَبِّكَ) وفي الآيات الأخرى المذكورة آنفا، فإنَّه، جلَّ شأنه، يُقْسِم بما هو مُدْرَكٌ من الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُصَدَّقٌ عنده، بل يُقْسِم الله، جلَّ جلاله، للنبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، الذي لا يضاهي يقينه بالله يقين أحدٍ من المخلوقين، إذ يقينه، صلَّى الله عليه وسلَّم، أقوى من كلِّ مُدْرَكٍ ومحسوسٍ، يقينٌ مع صلةٍ واتصالٍ مستمرين بالوحي المنزَّل العظيم الذي رافق النبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، في بعثته إلى وفاته. لقد أَقْسَمَ الجليل للنَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، بأعظم ما يُدْرِك.

---

(١) التفسير البياني للقرآن (٩٩/١)

(٢) النساء: ٦٥

(٣) يونس: ٥٣

(٤) الحجر: ٩٢

(٥) مريم: ٦٨

(٦) التغابن: ٧

(٧) سبأ: ٣

(٨) الذاريات: ٢٣

وليس ذلك بِدْعًا في أساليب العربية في لفت المُخَاطب وتقريب الأُمــور إلــى ذهنــه ومَدَارِكِه ليُصَدِّقَ أو يَفْقَه اعتمادًا على المَعْقُول أو المحسوس المُدْرَكِ، ففي أسلوب التشــبيه خير مثالٍ على ذلك، فالتشبيه ينقسم، باعتبار المُشَبَّه والمُشَبَّه به، وهما الركنان الأساسيان فيه، على أربعة أقسام:

١ـــ تشبيه المحسوس بالمحسوس.

٢ـــ تشبيه المعقول بالمعقول.

٣ـــ تشبيه المعقول بالمحسوس.

٤ـــ تشبيه المحسوس بالمعقول، ومنعه بعضهم[١].

وفي كلِّ الأحوال، لابدَّ للمُشَبَّه به أنْ يكون معقولا أو محسوسًا لدى السامع المخاطب، بل يختار صاحب الكلام في الأنواع الأربعة وجه شبه يعتقده حاضرًا أو مثبتًا راسخًا في ذهن السامع المخاطب وإدراكه، ولو قرَّبْنَا في كلامنا الصُوَر والمعاني باستخدام التشــبيه وكــان المُشَبَّه به مُغَيَّبًا عن ذهن المخاطب وإدراكه، أو لا يؤمن به، ولا يصدِّق أصــلا بوجــوده، فسيَبْطُل وجه الشبه ويسقط، فإنْ شَبَّهْت لشخصٍ يسأل عن اتساع الصحراء أمامه وقلت له: إنَّ الصحراء كالبحر في اتِّساعها، مع علمنا أنَّه لَمْ يَرَ البحر ولا يعلم عن اتِّســاعه شــيئا، فليس في ذلك من البلاغة ولا من الدلالة شيء، والبلاغة الدالَّة غاية التشبيه.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُــونَ﴾[٢] يُقــرِّر، جــلَّ جلاله، في الآية الكريمة أنَّ القرآن حقٌّ وأنَّه منزلٌ من عنده، تبارك وتعالى، ويُؤَكِّــدُ ذلــك بالقَسَمِ ثُمَّ بالتشبيه. فقد كان القَسَمُ في الآية الكريمة (بِرَبِّ السَّمَاءِ وَالأرْضِ) أَيْ صــاحبهما وخالقهما وهما تحتويان الإنسان وتحيطان به وبحواسِّه، وأتبــع القســم بالتشــبيه ليقــول للمُكَذِّبِيْن إنَّه لأمْرٌ مُؤَكَّدٌ أنَّ القرآن حقٌ وأنَّه من عندِ الله، كما أنتم أكيدون أنَّكم تنطقون، فقد أعطاهم الحكيم صورةً تخصهم، وتشبيهًا يُدْرِكُونَه وَيُمَارِسُونَه، بل من المُحَــالِ أنْ يُشَــكِّكُوا فيه، إنَّه نُطْقُهم الذي يُدَوِّي فِي رُؤُوسِهِم.

فالله، سبحانه وتعالى، أَقْسَمَ في كتابه العزيز بما هو محســوس ومــدرك ((لا مجــال للمماراة فيه، توطئةً للإقناع بما هو موضع جدلٍ وارتيابٍ من المعنويات والمغيبــات غيــر المدركة بالحسِّ))[٣].

---

(١) ينظر مختصر المعاني (١٨٨– ١٨٩)، شروح التلخيص (٣/٣١١)، البيان في ضوء أساليب القــرآن (٤١–٤٤)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (٢/١٧٢ – ١٧٣).

(٢) الذاريات : ٢٣

(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم (٢/١٣٦)

وفي مقابل القَسَمِ الصريح في القرآن الكريم الذي يكون المُقْسَمُ به ظاهرًا للمخاطب مدركًا محسوسًا فيه لتَتِمَّ الغاية من القسم ويصل المعنى واضحًا إلى ذهن المخاطب، نجد في آيات نفي القسم[١]، أي ما نفى الله، جلَّ شأنه، القسم به بصيغة (لا أقسم) لأنَّه مُغَيَّبٌ غير مدركٍ من المخاطب، وسنفصِّل هذا الأمر ونشرح مواضعه في القرآن الكريم في فصل (أغراض نفي القسم)، ولذا حرصت في هذا المبحث على إثبات أنَّ المُقْسَمَ به، من الله، جلَّ شأنه، في القسم الصريح، ظاهرٌ للمخاطب مدركٌ محسوسٌ منه، وتأكيد هذا الأمر فقط.

٢ــ إنَّ الله، سبحانه وتعالى، عندما يكون المُقْسِمَ وهو الأعلى، فالقَسَمُ أمرٌ مُوَثَّقٌ من جهةٍ عليا تُقْسِمِ بما هو دونها ومن صُنْعِهَا لتَرْفَعَه وتُعَظِّمَه، وهذا عكس ما يكون في قسم الناس الذين يُقسمون بما هو أعلى وأعظم منهم ليُوَثِّقُوا أو يرفعوا ما يُقْسِمُون من أجله. ولهذه الخصيصة واستحضارها أهميَّة ذات صلةٍ بنفي القسم وأغراضه، ستكون جليَّة في موضعها إنْ شاء الله.

٣ــ قال الزركشي: ((أكثر الأقسام المحذوفة الفعل في القرآن لا تكون إلا بالواو فإذا ذُكِرت الباء أُتى بالفعل كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[٢]، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾[٣])) [٤].

وأهمُّ ما يُلحظ في هذه الخصيصة أنَّ الله، سبحانه وتعالى، ليس هو المُقْسِمِ، ولم يرد فعل القسم والضمير فيه عائدٌ إلى الله، جلَّ شأنه، في القرآن الكريم، إلا مسبوقا بــ(لا) في صيغة (لا أقسم) في ثمانية مواضع أُشيرَ إليها.

٤ــ ذكر د. كاظم الراوي خصائص القسم في القرآن الكريم في الدورين المكِّيّ والمدنيّ[٥]، فمن خصائصه في الدور المكِّي:

تأكيد القرآن الكريم[٦] ليلفت النظر ويفنِّد مزاعم القوم فيه، فقد كان القرآن الكريم المعجزة الكبرى والآية المحسوسة المدركة الساطعة التي سحرت أولي البيان وأرباب الفصاحة، وقادتهم إلى الإيمان بالله.

تأكيد الرسالة وصدق النبوة، وتزكية الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم.

---

(١) ينظر الواقعة: ٧٥، الحاقة: ٣٨- ٣٩، المعارج: ٤٠، القيامة: ١-٢، التكوير: ١٥، الانشقاق: ١٦، البلد: ١

(٢) الأنعام: ١٠٩

(٣) التوبه: ٧٤

(٤) البرهان في علوم القرآن (٤٣/٣)

(٥) ينظر أساليب القسم في اللغة العربية (٣٨٢ – ٤٠١)

(٦) ينظر يس: ١-٣، الزخرف: ١-٣، الدخان: ١-٣، ق: ١-٢، الذاريات: ٢٣، الدخان: ١-٣

تأكيد البعث والحشر والجزاء والوعد والوعيد، ولفت النظر إلى آيات الله وكمال قدرته وبديع صنعه.

ومن خصائص القسم في الدور المدنِيّ:

تأكيد حقيقة الإيمان، وابتلاء المؤمنين ونصرهم والتحذير من المنافقين، فضلا عن تأكيد تكفير اليهود والنصارى والحثِّ على مخالفتهم ما ابتعدوا عن الإيمان بالله تعالى.

المبحث الثاني

أَقْوَالُ النحَاةِ فِي (لا) النافِيَة

١] (لا) العَامِلَة عَمَلَ (إِنَّ).

٢] (لا) العَامِلَة عَمَلَ (لَيْسَ).

٣] (لا) العَاطِفَة.

٤] (لا) التِي هِيَ حَرْفُ جَوَاب.

٥] (لا) التي لَيْسَت فِي الأَنْوَاعِ الأَرْبَعَة المذكورة آنِفًا.

فِيْ مَعْنَى النَّفْي:

قال ابن منظور : ((كلّ ما رَدَدْتَه فَقَد نفَيْتَه))[1]، وقال الزركشي: ((النَّفْيُ: هو شَطْرُ

الكَ

النفي والجحد فيما نقله عن ابن الشجري بقوله: ((إنْ كان النافِي صَادِقا فِيْمَا قالــهُ، سُــمِّيَ كَلامَهُ نَفْيًا وَإنْ كَانَ يَعْلَمُ كَذِبَ مَا نَفَاه كَانَ جَحْدًا، فالنَّفْيُ أَعَمُّ لأنَّ كُلَّ جَحْدٍ نفْــيٌ مِــنْ غَيْــرِ عَكْسٍ، فَيَجُوز أَنْ يُسمّى الجَحْدُ نَفْيًا لأنَّ النَّفْيَ أَعَمُّ ولا يَجُوزُ أَنْ يُسمّى النَّفــي جَحْــدًا))[3].

ووجد د. أحمد ماهر أنَّ كلمة (النفي) ((تُفِيد مَعْنى الطَّرْد والإخْرَاج والطَّرْح جَانِبًــا، وكــذلك الفِعْل (يُنْفَوا)[4] فِي القُرآن مَعْنَاه الإخْرَاج مِن البَلَدِ))[5]

ومن أدوات النفي التي ينبغي الحديث عنها في هذا المبحث (لا):

تدخل (لا) النافية على الاسم، وعلى الفعل وتدل الإحصــاءات اللغويَّــة[6] علــى أنَّ استعمالها مع الفعل أكثر من استعمالها مع الاسم، وهي على خمسة أوجه[7]:

١) (لا) العاملة عمل (إنَّ).
٢) (لا) العاملة عمل لَيْسَ.
٣) (لا) العَاطِفَة.
٤) (لا) التي هي حَرْفُ جَوَاب .
٥) (لا) التي لَيْسَت فِي الأنْوَاعِ الأَرْبَعة المذكورة آنِفاً.

---

(١) لسان العرب (٣٣٨/١٥)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣٧٥/٢ ، ٣٧٧)

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣٧٦/٢)

(٤) وردت كلمة (النفي) في القرآن الكريم مرَّة واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الْأَرْضِ﴾ المائدة: ٣٣

(٥) أساليب النفي في القرآن (١١)

(٦) ينظر إحياء النحو (١٣٤ – ١٣٧)، أساليب النفي في القرآن (٢٠)، أساليب النفي فـــي العـــربية (٣١)

(٧) ينظر مغني اللبيب (١ /٤٦١)

الوجه الأول: (لا) النَّافِيَةُ العَامِلَةُ عَمَلَ (إنَّ)[1]

وهي (لا) النافية للجنس على سبيل التنصيص[2] و((الأسماء النكرة التي تُنْفى بـ(لا) هي الأسماء الشائعة التي يراد بنفيها نفي الجنس. والبناء على الفتح مطَّرد فيها إذا كانت مفردة.))[3]، ((وإنَّما يظهر نصب اسمها إذا كان خافضًا، نحو (لا صاحبَ جودٍ ممقوتٌ)... أو رافعًا نحو (لا حسنًا فِعْلُه مذمومٌ)، أو ناصبًا نحو (لا طالعًا جبلا حاضرٌ).))[4]، و(لا) هذه تخالف (إنَّ) العاملة عملها من سبعة أوجه[5]:

أحدها: أنَّها لا تعمل إلا في النكرات.

الثاني: أنَّ اسمها إذا لم يكن عاملا فإنَّه يُبْنَى[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[7]

الثالث: أنَّ ارتفاع خبرها عند إفراد اسمها[8]، نحو (لا رجلَ قائمٌ) بما كان مرفوعًا به قبل دخولها، لا بها، وهذا القول لسيبويه، وخالفه الأخفش والأكثرون، ولا خلاف بين البصريين في أنَّ ارتفاعه بها إذا كان اسمها عاملا.

الرابع: أنَّ خبرها لا يتقدَّم على اسمها ولو كان ظرفًا أو مجرورًا.

الخامس: أنَّه يجوز مراعاة محلِّها مع اسمها قبل مضيّ الخبر وبعدها[9] فيجوز رفع النعت والمعطوف عليه، نحو: (لا رَجُلٌ ظَرِيفٌ فِيها)، و(لا رَجُلَ وامْرَأَةٌ فِيها).

السادس: أنَّه يجوز إلغاؤها إذا تكررت[10]، نحو: (لا حَوْلٌ وَلا قُوَّةٌ إلا بالله) ولك فتح الاسمين، ورفعهما، والمغايرة بينهما.

---

(١) ينظر الكتاب (٢ / ٢٧٤)، الجمل (٣٣٧)، الإيضاح العضدي (٢٣٩/١)، المقتصد في شرح الإيضاح (٧٩٩/٢)، الأمالي الشجرية (٢٢٢/٢)، المقرب (٢٠٧)، مغني اللبيب (١ / ٤٦١)، شرح قطر الندى (١٦٦)، شرح ابن عقيل (٣٩٣/١)، معاني النحو (١ / ٣٦٠)

(٢) ينظر شرح ابن عقيل (٣٩٣/١)

(٣) الإيضاح العضدي (٢٣٩/١)

(٤) مغني اللبيب (٤٦١/١ – ٤٦٢)

(٥) ينظر مغني اللبيب (٤٦٢/١ – ٤٦٣)

(٦) ينظر المقتصد في شرح الإيضاح (٨٠١/٢)

(٧) يوسف: ٩٢

(٨) ينظر المقتصد في شرح الإيضاح (٨٠٣/٢)، شرح ابن عقيل (٣٩٩/١)

(٩) ينظر المقتصد في شرح الإيضاح (٢/ ٨٠٥)

(١٠) ينظر المقتصد في شرح الإيضاح (٨٠٧/٢)

السابع: أنَّه يكثُر حذف خبرها إذا عُلِم[١]، نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾[٢]

الوجه الثاني: (لا) النَّافِيَة العَامِلَةُ عَمَلَ (لَيْسَ)[٣]

قال ابن الشجري: ((إنَّ من العرب من شبَّهُوها بليس، فرفعوا بها الاسم ونصبوا بها الخبر وألزموا اسمها التنكير فقالوا: لا رجلٌ حاضرًا ولا غلامٌ عندي.))[٤]

و((مذهب الحجازيين إعمالها عمل (ليس)، ومذهب تميم إهمالها ولا تعمل عند الحجازيين إلا بشروط ثلاثة:

أحدها: أنْ يكون الاسم والخبر نكرتين، نحو (لا رجلٌ أفضلَ منك)...

الشرط الثاني: ألا يتقدَّم خبرها على اسمها، فلا تقول: (لا قائمًا رجلٌ)

الشرط الثالث: ألا ينتقض النفي بــ(إلا) فلا تقول: (لا رجلٌ إلا أفضلَ من زيد) بنصب (أفضل) بل يجب رفعه))[٥]، قال ابن هشام: (((لا) هذه تخالف (ليس) من ثلاث جهات: إحداها: أنَّ عملها قليل[٦]، حتَّى ادَّعى أنَّه ليس بموجود، الثانية: أنَّ ذكر خبرها قليل حتَّى إنَّ إنَّ الزجَّاج لم يظفر به، فادَّعى أنَّها تعمل في الاسم خاصَّة، وأنَّ خبرها مرفوع، ويردّه قوله[٧]:

تَعَزَّ فَلا شَيءٌ عَلَى الأَرْضِ بَاقِيَا ... ولا وَزَرٌ مِمَّا قَضَى الله وَاقِيَا...

الثالثة: أنَّهَا لا تعمل إلا في النكرات[٨].))[٩]

---

(١) ينظر الأمالي النحوية لابن الحاجب (٣/٩٨)، شرح شذور الذهب (٢٧٤)، الفوائد الضيائية (١/٣٠٣)، الفرائد الجديدة (١/٢٨٨)، شرح الأشموني (١/٦٥٠ – ٦٥٣)، حاشية الخضري (١/٢١٥)

(٢) الشعراء: ٥٠

(٣) ينظر الكتاب (٢/٢٩٦)، الأزهية (١٧١)، الأمالي الشجرية (٢/٢٢٤)، رصف المباني (٢٦١)، مغني اللبيب (١/٤٦٤)، شرح قطر الندى (١٤٤)، شرح ابن عقيل (١/٣١٢)، شرح التصريح على التوضيح (١/١٩٩)

(٤) الأمالي الشجرية (٢/٢٢٤)

(٥) شرح ابن عقيل (١/٣١٢ – ٣١٦)

(٦) ينظر شرح التصريح على التوضيح (١/١٩٩)

(٧) البيت بلا نسبة في الجنى الداني (٢٩٢)، شرح قطر الندى (١٤٤)، شرح ابن عقيل (١ /٣١٣)، شرح التصريح على التوضيح (١/١٩٩)

(٨) ينظر الكتاب (٢/٢٩٦)

(٩) مغني اللبيب (١/٤٦٤ –٤٦٥)

الوجه الثالث: (لا) العَاطِفَة[1]:

قال ابن جني في كلامه على حروف العطف: ((ومعنى (لا): التحقيق للأوَّل والنفي عن الثاني. تقول: قَامَ زَيْدٌ لا عَمْرو))[2]. و(لا) العاطفة يشرك ما بعدها في إعراب ما قبلها[3] ((وهي ترد الاسم على الاسم، والفعل على الفعل، فتدخل بينهما مشتركة في اللفظ من رفع ونصب وخفض وجزم، واسميَّة وفعليَّة، وتخالف بينهما في المعنى، لأنَّها تُخرج ما بعدها من أنْ يدخل في حكم ما قبلها من إثبات الفعل، نحو: قَامَ زَيْدٌ لا عَمْرو، ورَأَيْتُ زَيْدًا لا عَمْرًا، ومَرَرْتُ بِزَيْدٍ لا عَمْرٍو، ولْيَقُمْ زَيْدُ لا يَقْعُدْ، ويَقُومُ زَيْدٌ لا يَقْعُدُ، وأَعْجَبَنِي أَنْ تَقُومَ لا تَقْعُدَ.))[4] و(لا) هذه لم تَرِدْ في القرآن الكريم[5].

وفي أحكام (لا) العاطفة: قال الاسترابادي: ((اعلم أنَّ (لا) لنفي الحكم عن مفرد، بعد إيجابه للمتبوع، فلا تجيء إلا بعد خبر موجب، أو أمر، ولا تجيء بعد الاستفهام والتمني والعرض والتحضيض ونحو ذلك، ولا بعد النهي، تقول ضَرَبْتُ زَيْدًا لا عَمْرًا، واضْرِبْ زَيْدًا لا عَمْرًا، ولا تعطف بها الاسميَّة، ولا الماضي على الماضي، فلا يقال: قَامَ زَيْدٌ لا قَعَدَ، لأنَّه جملة، ولفظة (لا) موضوعة لعطف المفردات، وقد تعطف مضارعا على مضارع، وهو قليل، نحو: أَقُوْمُ لا أَقْعُدُ، والمجوز: مضارعته للاسم، فكأنَّك قلت: أَنَا قَائِمٌ لا قَاعِدٌ.))[6]

وللعطف بـ(لا) ثلاثة شروط: ((أحدها: أنْ يتقدَّمُها إثبات كـ(جَاءَ زَيْدٌ لا عَمْرٌو)، أو أمر كـ(اضْرِبْ زَيْدًا لا عَمْرًا) قال سيبويه: أو نداء، نحو (يا ابْنَ أَخِيْ لا ابْنَ عَمِّي)... الثاني: أنْ لا تقترن بعاطف، فإذا قيل: (جَاءَنِي زَيْدٌ لا بَلْ عَمْرٌو) فالعاطف (بل)، و(لا) ردٌّ لما قبلها، وليست عاطفة. وإذا قلت: (ما جَاءَنِي زَيْدٌ ولا عَمْرٌو) فالعاطف الواو، و(لا) توكيد للنفي وفي هذا المثال مانع آخر من العطف بـ(لا)، وهو تقدم النفي، وقد اجتمعا أيضًا في

---

(١) ينظر الكتاب (١ / ٤٣٥ – ٤٣٩)، اللمع في العربية (١٧٦)، شرح ملحة الإعراب (١٩٢)، المفصل في صنعة الإعراب (٤٠٥)، الأمالي الشجرية (٢/٢٢٧)، شرح الكافية (٤/٤١٦)، رصف المباني (٢٥٧)، مغنى اللبيب (١/٤٦٨)، شرح قطر الندى (٣٠٦)، أوضح المسالك (٣/٣٨٨)، شرح ابن عقيل (٢/٢٣٥)، همع الهوامع (٣/٢١٥)، معاني النحو (٣/٢٦٤)، الأساليب الإنشائية (١٢٩)

(٢) اللمع في العربية (١٧٦)

(٣) ينظر الأمالي الشجرية (٢/٢٢٧)

(٤) رصف المباني (٢٥٧)

(٥) ينظر معترك الأقران (٢/٢٨٧)

(٦) شرح الكافية (٤ / ٤١٦)

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾[1] والثالث: أن يتعاند متعاطفاها، فلا يجوز (جَاءَنِيْ رَجُلٌ لا زَيْدٌ) لأنَّه يصدق (زيد) اسم الرجل بخلاف (جَاءَنِيْ رَجُلٌ لا امْرَأَةٌ).))[2]

ومن أحكام (لا) العاطفة أنَّه لا يجوز تكريرها، كسائر حروف العطف ((لا تقول: قَامَ زَيْدٌ لا عَمْرٌو، لا بَكْرٌ، كما تقول: قَامَ زَيْدٌ وعَمْرٌو وبَكْرٌ، ولو قصدت ذلك: أدخلت الواو في المكرَّر، فقلت، ولا بَكْرٌ ولا خَالِدٌ، فتخرج (لا) عن العطف.))[3]

الوجه الرابع: (لا) النَّافِيَة التِي هِيَ حَرْفُ جَوَاب[4]

وهي التي تكون ((ردًّا في الجواب مناقضة لنعم وبلى، فإذا قال مقرِّرًا (أَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ) قلت (لا) أو (بلى)، وإذا قال مستفهما: هَلْ زَيْدٌ عِنْدَك؟ قلت: (لا) أو (نعم) كما جاء في التنزيل ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[5] وجاء فيه ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾[6].))[7]

وتُحذف الجمل بعد (لا) الجوابية كثيرًا، يقال: (أَجَاءَكَ زَيْدٌ؟) فتقول: (لا)، والأصل: لا لَمْ يَجِئْ[8] قال المرادي ((وزعم ابن طلحة أنَّ الكلمة الواحدة، وجودا وتقديرا تكون كلاما، إذا نابت مناب الكلام. نحو (نعم) و(لا) في الجواب، وهو فاسد وإنما الكلام هو الجملة المقدرة بعد (نعم) و(لا).))[9]

و(لا) الجوابية هذه لم تَرِدْ في القرآن الكريم.[10]

---

(١) الفاتحة: ٧

(٢) مغني اللبيب (٤٦٨/١ – ٤٦٩)

(٣) شرح الكافية (٤١٦/٤)

(٤) ينظر الأمالي الشجرية (٢٢٧/٢)، مغني اللبيب (٤٦٩/١ – ٤٧٠)، الجنى الداني (٢٩٦) البرهان في علوم القرآن (٣٥٥/٤)، معاني النحو (٢٧٢/٤)

(٥) الأعراف: ١٧٢

(٦) الأعراف: ٤٤

(٧) الأمالي الشجرية (٢ / ٢٢٧)

(٨) ينظر مغني اللبيب (٤٦٩/١ – ٤٧٠)

(٩) الجنى الداني (٢٩٦)

(١٠) ينظر معترك الأقران (٢٨٧/٢)

الوجه الخامس: (لا) النَّافِيَة التِيْ لَيْسَت مِنَ الأَنْوَاع الأَرْبَعَة المذكورة آنفًا[١]:

آنفًا[١]:

تدخل (لا) هذه على الاسم وعلى الفعل من غير أنْ يكون لها أثرٌ اعرابيٌّ في أواخر الاسم أو الفعل الداخلة عليه.

أوَّلا: دخولها على الفعل: تدخل (لا) النافية على الفعل المضارع والماضي.

أ – دخولها على الفعل المضارع: وهو الغالب في دخول (لا) النافية على الأفعال[٢]، ونصف ما ورد في القرآن الكريم من هذا النوع[٣]، ومن النحويين من يرى أنَّ (لا) إذَا دخلت على الفعل المضارع فهي لنفي المستقبل. قال سيبويه: (((لا) نفي لقوله يفعل، ولم يقع الفعل، فتقول: لا يفعل))[٤] ((فـ(لا) جواب هو يفعل إذا أُريد به المستقبل، فإذا قال القائل يَقُومُ زَيْدٌ غَدًا وأُرِيْد نفيه قيل لا يَقُومُ لأنَّ (لا) حرفٌ موضوعٌ لنفي المستقبل وكذلك إذا قال: ليفعلنَّ وأُرِيْد النفي قيل: (لا يَفْعَلُ) لأنَّ النون تصرف الفعل للاستقبال.))[٥] وخالف ابن مالك الرأي القائل: إنَّ (لا) تخلص المضارع للاستقبال، فقال: ((والمضارع صالح للاستقبال وللحال[٦]، ولو نفي بـ(لا)، خلافا لمن خصَّها بالمستقبل.))[٧]

وذهب الأستاذ إبراهيم مصطفى إلى أنَّ نفيَ المضارع: يكون ماضيا وحالا ومستقبلا في (لَمْ يَتَكَلَّمْ) و(مَا يَتَكَلَّمُ) و(لَنْ يَتَكَلَّمَ)، ((فإذا قلت: (لا يَتَكَلَّم) كان النفي أوسع وأشمل، ففي نفي (لا) معنى الشمول والعموم.))[٨]، وهذا يعني، كما يرى د.مصطفى النماس ((أنَّ (لا)

---

(١) ينظر الكتاب (٢٢٢/٤)، الأصول في النحو (٤٠٠/١)، الأزهية (١٥٩ ، ١٦٧)، المفصل(٤٠٦)، الأمالي الشجرية (٢٢٦/٢–٢٢٧)، شرح المفصل (١٠٨/٨–١٠٩)، رصف المباني (٢٥٨)، الجنى الداني (٢٩٦)، مغني اللبيب (٤٧٤/١)، البرهان في علوم القرآن (٣٥٣/٤)، إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن (٥٠٠/١)، معاني النحو (٢٠٤/٤)، في التحليل اللغوي (٢٠١)، الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين (٦٤٣)

(٢) ينظر رصف المباني (٢٥٨)، الجنى الداني (٢٩٦)

(٣) ينظر إحياء النحو (١٣٥)

(٤) الكتاب (٢٢٢/٤)، ينظر المقتضب (٤٧١/١)، الأزهية (١٥٩)، المفصل (٤٠٦)، شرح المفصل (١٠٨/٨)، رصف المباني (٢٥٨).

(٥) شرح المفصل (١٠٨/٨)

(٦) ينظر الأمالي الشجرية (٢ / ٢٢٦ – ٢٢٧)، الجنى الداني (٢٩٦)، البرهان في علوم القرآن (٣٥٣/٤)

(٧) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (٥– ٦)

(٨) إحياء النحو (١٣٥)

ليست متعيّنة لنفي المستقبل، وإنَّما تكون لنفي الحال، وتأتي بمعنى (لم).))[1]، ومن الشواهدعلى ذلك في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾[3]، أَمَانِيَّ﴾[3]، وقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[5]

وعلى هذا، جاءت (لا) النافية للفعل المضارع في القرآن الكريم دالَّةً على[6]:

١) المُضِيّ: ونحوه ما جاء على حكاية الحال الماضية كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[7]
٢) الحال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾[8]
٣) المستقبل: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[9]
٤) الاستمرار والدوام: قد يُؤتى بالجملة المنفية دالةً على استمرار النفي كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[10]
٥) التجدُّد: وقد تُفيد الجملة المضارعية المنفية بـ(لا) التجدُّد والتكرر، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[11]

وتُؤَيِّد الباحثة ما ذهب إليه ابن مالك من تنوُّع معنى الفعل المضارع إذا دخلت عليه (لا) النافية، لموافقته معاني الآيات الكريمة في القرآن الكريم، التي ورد فيها هذا الأسلوب.

---

(١) أساليب النفي في العربية (٣٦-٣٧)
(٢) البقرة: ١٧
(٣) البقرة: ٧٨
(٤) المائدة: ٧٩
(٥) النحل: ٢٦
(٦) ينظر الدلالة الزمنية للجملة العربية في القرآن الكريم (١٤٨ – ١٥٢)
(٧) الأعراف: ٧٩
(٨) هود: ٣١
(٩) الانفطار: ١٩
(١٠) البقرة: ٨٦
(١١) النساء: ٦٥

ب) دُخُولُ (لا) النَّافِيَة على الفِعْل المَاضِي:

دخول (لا) النافية على الماضي قليل[1]، وإذا دخلت عليه وجب تكرارها[2] قال ابن هشام: ((ومثال الفعل الماضي: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾[3]... وقول الهذلي: (كَيْفَ أُغَرِّمُ مَنْ لا لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَلَّ) وإنما ترك التكرار في (لا شَلَّتْ يَدَاك) و(لا فَضَّ الله فَاك)، وقوله[4]:

أَلا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلا بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ...

لأنَّ المراد الدعاء، فالفعل مستقبل في المعنى، ومثله في عدم وجوب التكرار بعدم قصد المضي، إلا أنَّه ليس دعاء قولك: (والله لا فَعَلْتَ كَذَا).))[5] ويرى الهروي أنَّ (لا) النافية الداخلة على الفعل الماضي بمعنى (لم) ففي قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ أي لم يُصَدِّق ولم يُصَلِّ، وكذلك قوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾[6] أي لم يقتحم العقبة. ومن هذا قول القائل للنَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم: (أَرَأَيْتَ مَنْ لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا صَاحَ فاسْتَهَلَّ). أي من لم يأكل ولم يشرب يعني الجنين.[7]

وورود (لا) النافية مع الفعل الماضي من غير أنْ تُكَرَّر في قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ حَمَلَ النحاة على التقدير والتأويل لدوام إعمام القاعدة التي وصفوها لـ(لا) التي تسبق الماضي، وذلك بوجوب تكرارها. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾: ((فإنْ قُلت قلَّما تقع (لا) الداخلة على الماضي إلا مُكَرَّرة، ونحو قوله: (فَأَيُّ أَمْرٍ سَيِّءٍ لا فَعَلَه) لا يكاد يقع، فما لها لم تُكرَّر في الكلام الأفصح؟ قلت: هي مُتكرِّرَة في المعنى لأنَّ معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ فلا فكَّ رقبة ولا أَطْعَمَ مسكينا، ألا ترى أنَّه فسَّر اقْتِحَام العقبة بذلك.))[8]

---

(١) ينظر الجنى الداني (٢٩٧)

(٢) ينظر الجنى الداني (٢٩٧)، مغني اللبيب (٤٧٠/١)

(٣) القيامة: ٣١

(٤) البيت لذي الرمة في ديوانه (٥٥٩)

(٥) مغني اللبيب (٤٧٠/١)

(٦) البلد: ١١

(٧) ينظر الأزهية (١٦٧)

(٨) الكشاف (٢٥٦/٤)، وينظر الجنى الداني (٢٩٨)، مغني اللبيب (٤٧٣/١)

وللدكتور خليل عمايرة رأيٌ آخر في تكرار (لا) الداخلة على الفعل الماضي، يبدو سديدًا، إذ قال: ((ليس بالضرورة أنْ تكون في تركيبها مكرَّرة خلافا لما عليه جمهور النحاة، فهم على أنَّها إنْ دخلت على الماضي وجب أنْ تُكَرَّر، ويبدو أنَّ كثرة الاستعمال بتكرار (لا) هو الذي دفع النحاة إلى هذا الرأي))[1]، ثم ذكر نصًّا للفرَّاء يقول فيه: ((ولم يضم إلى قوله ﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ كلامٌ آخرٌ فيه (لا) لأنَّ العرب لا تكاد تُفْرد (لا) في الكلام حتى يعيدوها عليه في كلامٍ آخر، كما قال، عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾[2] وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] وهو ممَّا كان في آخره معناه، فاكتفى بواحدة من أخرى، ألا ترى أنَّه فسَّر اقْتِحَام العقبة بشيئين فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ*أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾[4] ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[5] فسَّرها بثلاثة أشياء، فكأنَّه كان في أوَّل الكلام، فلا فعل ذا ولا ذا ولا ذا))[6]. ذا))[6]. وقد علَّل د. عمايرة تكرار (لا) بجعله من قبيل التوكيد كما في﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ أو من قبيل عطف الجملة المنفيَّة على الجملة المنفيَّة[7].

ثانيا: دُخُولُ (لا) النَّافِيَة عَلَى الاسم:

قال المرادي في (لا) النافية: ((إذا دخلت على الأسماء فيليها المبتدأ، نحو لا زَيْدٌ فِي الدَّارِ ولا عَمْرٌو، والخبر المقدم، نحو﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾[8] ويجب تكرارها في ذلك، وكذلك يجب تكرارها إذا ولِيَهَا خبرٌ، نحو: زَيْدٌ لا قَائمٌ ولا قَاعِدٌ، أو نعت نحو ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[9]، أو حال نحو: جَاءَ زَيْدٌ لا بَاكِيًا ولا ضَاحِكًا. وربَّما أُفردت في الشعر.))[10] وقال ابن هشام: ((ومثال المعرفة ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[11].))[1]

---

(١) في التحليل اللغوي (٢٠١)

(٢) القيامة: ٣١

(٣) يونس: ٦٢

(٤) البلد: ١٣-١٤

(٥) البلد: ١٧

(٦) معاني القرآن (٣/٢٦٤)

(٧) ينظر في التحليل اللغوي (٢٠٢)

(٨) الصافات: ٤٧

(٩) النور: ٣٥

(١٠) الجنى الداني (٢٩٩)

(١١) يس: ٤٠

والاسم بعد (لا) النافية غير العاملة ((يكون معرفةً ويكون نكرةً، كما في نحو: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[2]، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾[3].. وقد يليها ضمير يعادله فعل أو شبه فعل كما في نحو: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[4]))[5]

أمَّا عن تكرار (لا) النافية؛ فقد قال إبراهيم مصطفى: ((وتكرار (لا) لا يجيء قليلا ولا عرضا، بل هو أسلوب من أساليب استعمالها، كما تستعمل (أمَّا).))[6]

---

(١) مغنى اللبيب (١ / ٤٧٠)

(٢) البقرة: ٢٥٤

(٣) يس: ٤٠

(٤) الممتحنة: ١٠

(٥) أساليب النفي في العربية (٤٤)

(٦) إحياء النحو: ١٤

المبحث الثالث

وَقَفَاتٌ لافتة فِي صِيْغَة (لا أُقْسِمُ)

أولا: انْفِرَادُ القُرْآنِ الكَرِيْمِ باسْتِعْمَالِ صِيْغَة نَفْي فِعْل القَسَمِ (لا أُقْسِمُ).

ثانيا: الوَاو الوَاقِعَة بَعْدَ صِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ).

ثالثا: الفَاءُ المُتَّصِلَةُ بِصِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ).

ورد في القرآن الكريم استعمال عددٍ من أساليب القَسَمِ الصريح والمضمر التي كان العرب يستعملونها في كلامهم شعرا أو نثرا قبل نزول القرآن الكريم.

ومن الأساليب التي استعملها القرآن الكريم، وكانت مستعملةً في الجاهلية، القسم الصريح بعد الواو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]، قال عنترة[2]:

واللهِ مَا خَلَّيْتُ فِيْ أَوْطَانِهِم　　　إلا النَّوَائِحَ صَارِخَاتٍ فِيْ الفَلا

وقد كَثُر في أيمان الجاهلية (عمر)[3] مضافةً إلى الأسماء، مضمرةً أو ظاهرةً، وقد قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4]، ومن ذلك قول طرفة بن العبد[5]:

لَعَمْرُكَ مَا الأَيَّامُ إلا مُعَارَةٌ　　　فَمَا اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوْفِهَا فَتَزَوَّدِ

ومن القسم غير الصريح قولهم: (لا جَرَمَ) وهي بمنزلة (لابُدَّ ولا مَحَالَةَ)[6] قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾[7]، ومن أيمانهم في الجاهلية ((لاجَرَمَ لَقَدْ أَحْسَنْتَ))[8] ومن القسم غير الصريح، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[9]، قال الأعشى[10]:

وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ حِيْنَ يُنْـــ　　　سَبُ كُلُّ حَيٍّ ذِيْ غَضَارَه

أَنَّا وَرِثْنَا العِزَّ والْـــ　　　مَجْـــدَ المُؤَثَّلَ ذَا السَّرَارَه

وقد بحثت في نصوص أدبيَّةٍ مختارةٍ من النثر الجاهلي وعددٍ من دواوين الشعر الجاهلي وعددٍ من الكتب التي تكلمت على أيمان العرب في الجاهلية للكشف عن أساليب القسم آنذاك، وللوقوف على صيغة (لا أُقْسِمُ)، سواء أصيغة قسم كانت أم نفي قسم، فلم أجد استعمالا لــ(لا) النافية وبعدها الفعل (أقسم)، على الرغم من استعمال العرب فعل القسم في أيمانهم، كقول زهير بن أبي سلمى[11]:

---

(١) الأنعام: ٢٣
(٢) الديوان (٢١١)
(٣) ينظر من أساليب القرآن (٥١-٥٢)
(٤) الحجر: ٧٢
(٥) الديوان (٤٤)
(٦) ينظر معاني القرآن للفراء (٢/٨)، أدب الكاتب (١/٥٠)
(٧) النحل: ٦٢
(٨) أيمان العرب في الجاهلية (٣١)
(٩) الصافات: ١٥٨
(١٠) الديوان: (١٦٦)
(١١) الديوان (٦)، وينظر شرح الأشعار الستة (١/١٩-٢٠)، شرح المعلقات السبع (١٤٣)

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالٌ بَنَوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ
يَمِيْنًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَـــــا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سحيْلٍ وَمُبْرَمِ

وقول الخنساء[1]:

حَلَفْتُ بِالْبَيْتِ وَزُوَّارِهِ إِذْ يعْمِلُونَ العِيْسَ نَحْوَ الجِمَار
لا أَجْزَعُ الدَّهْرَ عَلَى هَالِكٍ بَعْدَكَ مَا حَنَّت هَوَادِي العِشَار

أمَّا في النثر الجاهلي، فإنَّ أكثر أيمان العرب كانت باستعمال لفظ الجلالـــة صـــريحا، مقترنا بالواو ومجرَّدا من أفعال القسم، كقولهم: (((والله) فإنَّها تَمْلأُ الفَمَ وَتُرْقِئُ الـــدَمَ))[2]، وقول عامر بن الطفيل: ((والله إنِّي لأَرْكَبُ مِنْكَ فِيْ الْحَمَاة وَأَقْتَلُ مِنْكَ للكُمَـــاة.))[3]، وقـــول علقمة بن علاثة: ((والله إنِّي لَبَرٌ وإنَّكَ لَفَاجِرٌ، وإنِّي لَوَلُودٌ وإنَّكَ لَعَاقِرٌ))[4].

ومع أنَّ العرب في الجاهلية لم يستعملوا صيغة (لا أقسم) في نثرهم ولا في شـــعرهم بمعنى يفيد نفي القسم أو زيادة (لا)، إلا أنَّهم استَعمِلوا (لا) النافية قبل حرف القَسَمِ والمُقْسَمِ به، وكَثُر عندهم سبقها للقسم بلفظ الجلالة (الله)، نحو قول أبي خراش[5]:

وَلا والله لا أَنْسَى زُهَيْرًا وَلَو كَثُرَ المَرَازِي والفُقُود

وقول السموأل[6]:

وَقَالُوا إنَّه كَنْزُ لرُغْبٍ فَلا والله أَغْدُرُ مَا مَشيت

وكَثُرَ في أشعارهم كذلك (لا) النافية تسبق القسم بـــ(الأب) كقول امرئ القيس:

فَلا وَأَبِيْكِ ابْنَةَ العَامِرِيّ لا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّيْ أَفِر

وقول الأعشى[7] :

فَلا وَأَبِيْكَ لا نُعْطِيْكَ مِنْهَا طَوَالَ حَيَاتِنَا إِلا سِنَانا

وقول أبي خراش[8]:

فَلا وَأَبِيْكِ الخَيْرَ لا تَجِدِيْنَهُ جَمِيْل الغِنَى وَلا صَبُوْرًا عَلَى العُدْمِ

(١) الديوان (٧٠)
(٢) أيمان العرب في الجاهلية (١٤)
(٣) جمهرة خطب العرب (١/١٤)
(٤) جمهرة خطب العرب (١/١٤)
(٥) ديوان الهذلبين (٢ / ١٦١)
(٦) الديوان (٣٦)
(٧) الديوان (٢١٣)
(٨) ديوان الهذليين (٢ / ١٢٤)

وكَثُرَ في أيمانهم، نثرا، القسم المسبوق بـــ(لا) النافية، نحو قولهم: ((لا وَالذِي شَـــقَّ الرِّجَالَ للْخَيْلِ والجِّبَالَ للسَّيْر.))[1]، ((لا وَالذِي جَلَدَ الإبِلَ جُلُوْدَها))[2]

وكان عبدة الأوثان يُقْسِمون بأسماء أصنامهم كقولهم (لا واللات، والعزى، لا ومناة)[3] ومناة)[3] ومن قسمهم ما سبق بـــ(كلا) نحو قول الأعشى[4]:

كَلا يَمِيْن الله حَتَّى تُنْزِلُوا مِنْ رَأْسِ شَاهِقَةٍ إِلَيْنَا الأَسْوَدَا

وقول المهلهل[5]:

كَلا وَأَنْصَابٍ لَنَا عَادِيَّة مَعْبُودَة قَدْ قُطِّعَتْ تَقْطِيْعا

ومن نثرهم، قول مخالس بن مزاحم للنعمان: ((كَلا وَالذِي رَفَعَ ذِرْوَتَك بِأَعْمَادِهَا، وَأَمَاتَ حُسَّادَكَ بِأَكْمَادِهَا، مَا بَلَغْتَ غَيْرَ أَقْوَالِ الوشَاة.))[6]

وجاءت لفظة (لَعَمْرُ) في أكثر الأقسام المتداولة في كلامهم مضافةً إلى الضمير أو إلى اسم ظاهر، من ذلك قول النابغة[7]:

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيْتُ عَلَى يَزِيْدٍ مِنَ الفَخْرِ المُضَلّل مَا أَتَانِي

وقول أخي الخنساء (صخر)[8]:

لَعَمْرُكَ لَقَدْ أَنْبَهْتَ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَسْمَعْتَ مَنْ كَانَ لَهُ أُذُنَانِ

وقول عوف بن عطية[9]:

لَعَمْرُكَ إِنَّنِيْ لأَخُو حِفَاظٍ وَفِيْ يَوْم الكَرِيْهَةِ غَيْرُ غُمْرِ

وقول عنترة[10]:

لَعَمْرُ أَبِيْكَ لا أَسْلُو هَوَاهَا وَلَو طَحَنَتْ مَحَبَّتُهَا عِظَامِي

(١) أيمان العرب في الجاهلية (١٦)، وينظر المزهر (٢٢٨/٢)

(٢) المخصص (١٣ / ١٨)، وينظر المزهر (٢٢٨/٢)

(٣) أيمان العرب (٢٣)

(٤) الديوان (٥٦)

(٥) إمعان في أقسام القرآن (٢٩)

(٦) جمهرة خطب العرب (٦٥/١)

(٧) الديوان (١١٩)

(٨) الشعر والشعراء (٢٦٢/١)

(٩) المفضليات (٢ / ١٢٨)

(١٠) الديوان (٢٥١)

ومن أيمانهم القسم (بالحَقِّ) مضافًا إلى الأسماء المضمرة أو الظاهرة، كقول عنترة[1]:
عنترة[1]:

وَحَقِّك أَشْجَانِيْ التَّبَاعُدُ بَعْدَكُمْ   فَهَلْ أَنْتُمُ أَشْجَاكُمُ البُعْدُ مِنْ بَعْدِي

وقوله[2]:

بِحَقِّ الهَوَى لا تَعْذِلُوْنِيْ وَاقْصرُوا   عَنِ اللَّومِ إِنَّ اللَّومَ لَيْسَ بِنَافِعِ

ومن أساليهم في القسم (نَشَدْتُكَ الله وَالرَّحِمِ)، من ذلك قول عامر بن الطفيل: ((نَشَدْتُكَ الله والرَّحِمِ أَلا تُفَضِّلَ عَلَيَّ عَلْقَمَــةَ))[3] وقولهم: ((أَنْشُــدُكَ بِــالله أَلا فَعَلْــتَ أَيْ أَسْتَحْلِفُكَ))[4]

ومن أيمانهم (آلَيْتُ أَفْعَلُ)، نحو قول ثقيف للظرب العدواني: ((عَلَيَّ أَلِيَّة إِنْ لَمْ أَقْتُلْــكَ أَوْ تَحْلِفَ لَتُزَوِّجَنِي ابْنَتك))[5].

وغير ذلك من أساليب القسم التي تعددت في الجاهلية، إلا أنَّ موضوع البحث لا يتَّسع لعرضٍ أوسع وأشمل مما عرض.

أمَّا صيغة نفي القسم التي انفرد القرآن الكريم باستعمالها، فسأُحصي مواضعها في القرآن الكريم، وأعرض أسباب نزولها، وترتيبها من حيث وقت النزول، ثم النتائج المستخلصة من ذلك.

الآيات الكريمة التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) في القرآن الكريم:

وهي على وفق ترتيبها في المصحف الشريف، قال تعالى:

١- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[6]

٢- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[7]

٣- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[8]

---

(١) الديوان (١٠٤)

(٢) الديوان (١٤٧)

(٣) جمهرة خطب العرب (٤٤/١)

(٤) المخصص (١١٤/١٣)

(٥) جمهرة خطب العرب (٩٧/١)

(٦) الواقعة: ٧٥-٧٧

(٧) الحاقة: ٣٨-٤٠

(٨) المعارج: ٤٠ – ٤١

٤- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[١]

٥- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[٢]

٦- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ*لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾[٣]

٧- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[٤]

أما ترتيب هذه الآيات الكريمة على وفق نزولها[٥]على النَّبي، صلَّى الله عليه وسـلَّم، فعلى النحو الآتي:

١- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾

٢- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾

٣- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

٤- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾

٥- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

٦- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

٧- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ*لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾

وهذه الآيات الكريمة كلها مكية[٦]،و محكمة لا ناسخ فيها ولا منسوخ[٧]

- أَسْبَابُ النُّزُوْلِ:

قال الواحدي النيسابوري في سورة الواقعة: ((قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[١]... حدثني ابن عباس قال: مُطِر الناس على عهد رسول الله، صلَّى الله عليه

(١)القيامة: ١-٢

(٢)التكوير: ١٥-١٦

(٣)الانشقاق: ١٦-١٩

(٤)البلد: ١ – ٢

(٥)ينظر تنزيل القرآن (٢٣-٢٤)، البرهان في علوم القرآن (١ / ١٩٣ – ١٩٤)، الإتقان في علوم القرآن (٢٥/١)، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (٢٢٧ – ٢٢٨)

(٦) ينظر الناسخ والمنسوخ لقتادة (٥٢)، تنزيل القرآن (٢٣-٢٤)، البرهان في علوم القرآن (١٩٣/١-١٩٤)

(٧) ينظر الناسخ والمنسوخ للمقري (١٧٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨)، الناسخ والمنسوخ لابن حزم (٥٩، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥)

وسلَّم، فقال رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم: أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قـالوا: هذه رحمة وصفها الله تعالى، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، حتى بلغ، ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٢]... وروي أن النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، خرج في سفر فنزلوا وأصابهم العطش وليس معهم ماء، فذكروا ذلـك للنَّبـي، صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أرأيتم إنْ دَعَوت لكم فَسُقِيتم فلعلَّكم تقولون سُقِينا هـذا المطـر بنوء كذا؟ فقالوا: يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء، قال: فصلَّى ركعتين ودعا الله، تبـارك وتعالى، فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطِروا حتَّى سالت الأودية، وملأوا الأسقية، ثم مـرَّ رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، برجل يغترف بقدح له ويقول: سُقِينا بنوء كذا ولم يقل هذا من رزق الله سبحانه فأنزل الله سبحانه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.))[٣]

وقال في سورة المعارج: ((قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْـرِئٍ مِـنْهُمْ أَنْ يُـدْخَلَ جَنَّـةَ نَعِيمٍ *كَلَّا﴾[٤] قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النَّبي، صلَّى الله عليه وسـلَّم، يستمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذِّبون ويستهزئون ويقولون: لَئِن دخل هؤلاء الجنـة لَنَدْخُلَنَّهَا قبلهم، ولَيَكُونَنَّ لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.))[٥]

وقال في سورة القيامة: قوله، عز وجل، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَـعَ عِظَامَـهُ﴾[٦] ((نزلت في عمر بن ربيعة، وذلك أنَّه أتى النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: حَدِّثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمرها وحالها، فأخبره النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، بـذلك فقـال: لوعانيت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به، أويجمع الله هذه العظـام، فـأنزل الله تعالى هذه الآية))[٧]

وإذا تتبَّعنا ترتيب السُوَرِ التي ورد فيها القسم صريحا من الله، جلَّ جلاله، والسُـوَرِ التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) من حيث نزولها[٨]على الرسول، صلَّى الله عليـه وسـلَّم، وليس الترتيب الموجود في المصحف الشريف، وجدنا أنَّ البداية كانت مع السُوَرِ التي فيها

---

(١) الآية: ٨٢

(٢) الآيات: ٧٥-٨٢

(٣) أسباب نزول الآيات (٢٧٠ – ٢٧١)، وينظر لباب النقول (٢٠٤)

(٤) الآية: ٣٨-٣٩

(٥) أسباب نزول الآيات (٢٩٤)

(٦) الآية: ٣

(٧) أسباب نزول الآيات (٢٩٦)

(٨) ينظر تنزيل القرآن (٢٣-٢٤)، البرهان في علوم القرآن (١/١٩٣ – ١٩٤)، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (٢٢٧-٢٢٨)

قسمٌ صريح من الله، جلَّ شأنه، ثم توالت السور وكان بينها التـــي وردت فيهـــا صـــيغة (لا أُقْسِمُ) إلا أنَّنا نجد أنَّ من السور المكية الأخيرة من حيث ترتيب نزولها كانت (الحاقَّـــة ثـــم المعارج ثم النبأ ثم النازعات ثم الانفطار ثم الانشقاق) ونحـــن نعلـــم أنَّ ســـور الحاقَّـــة[1] والمعارج[2] والانشقاق[3] من السور التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)

ولذلك أقول: إنَّ البداية كانت مع السور التي ورد القسم فيها صريحا مـــن الله، جـــلَّ جلاله، وخواتم السور المكِّيَّة كانت مع السور التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِـــمُ) والســـورة المدنيَّة الوحيدة التي ورد فيها قسم صريح من الله، جلَّ جلاله، هي سورة النساء في قولـــه تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًـــا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[4] وفي الآية الكريمة قسمٌ لتأكيد حقيقة الإيمان بعـــد أنْ كـــان القسم الصريح في السور المكية توجيها للناس نحو الإيمان.

ثانيا: الوَاو الوَاقِعَةُ بَعْدَ صِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ)

وردت الواو بعد الآية التي فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) في القرآن الكريم في خمسة مواضع هـــي:
قوله تعالى:

- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ *وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[5]
- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ *وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[6]
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ *وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[7]
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ *وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ *وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ *لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾[8]
- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ *وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ *وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[9]

---

(١) الآية: ٣٨-٣٩
(٢) الآية: ٤٠
(٣) الآية: ١٦
(٤) الآية: ٦٥
(٥) الحاقة: ٣٨-٣٩
(٦) القيامة: ١-٢
(٧) التكوير: ١٥-١٨
(٨) الانشقاق: ١٦-١٩
(٩) البلد: ١-٣

والحديث عن الواو بعد صيغة (لا أُقْسِمُ) يتصل بالحديث عن الواو الواقعة بعد واو القسم واختلاف النحويين فيها أللقسم هي أم للعطف؟.

قال سيبويه: ((قال الخليل في قوله، عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾[1] الواوان الأُخريان ليستا بمنزلة الأولى ولكنهما الواوان اللتان تَضُمَّان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وَعَمْرٍو، والأولى بمنزلة الباء والتاء. ألا ترى أنَّك تقول: (والله لأَفْعَلَنَّ وَوَالله لأَفْعَلَنَّ)، فتُدْخِل واو العطف عليها كما تُدْخِلها على الباء والتاء.

قلت للخليل: فلم لا تكون الأُخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنَّما أقسم بهذه الأشياء على شيء واحد، ولو كان انقضى قسمه بالأوَّل على شيء لجاز أنْ يستعمل كلامًا آخر فيكون، كقولك: بالله لأَفْعَلَنَّ، بِالله لأَخْرُجَنَّ اليَوْم. ولا يقوى أنْ تقول: وَحَقِّكَ وَحَقِّ زَيْدٍ لأَفْعَلَنَّ، والواو الآخرة واو قسم، لا يجوز إلا مستكرها، لأنَّه لا يجوز هذا في مَحْلُوف عليه إلا أنْ تضمَّ الآخر إلى الأوَّل وتحلف بهما على المَحْلُوف عليه... ولو قال: وَحَقِّكَ وَحَقِّ زَيْدٍ، على وجه النسيان والغلط جاز. ولو قال: وَحَقِّكَ وَحَقِّكَ، على التوكيد جاز، وكانت الواو واو الجر.))[2]

وقال بعض النحاة: إنَّ الواو الثانية واو قسم وليست عاطفة[3] إلا أنَّ أكثر النحويين تابعوا الخليل وسيبويه في رأيهما، وقد دل سيبويه على صِحَّة رأيه بقوله: ((وتقول: وحياتي ثم حياتك لأَفْعَلَنَّ، فثُمَّ ههنا بمنزلة الواو. وتقول: والله ثمَّ الله لأَفْعَلَنَّ، وبالله ثمَّ الله لأَفْعَلَنَّ، وتالله ثمَّ الله لأَفْعَلَنَّ.))[4]

أمَّا ابْن جنِّي فقد رأى أنَّ السبب في قول الخليل وسيبويه إنَّ جميع ما بعد الواو الأولى من الواوات إنَّما هو واو عطف وليس بواو قسم ((لئلا يدخل قسمٌ على قسم فيبقى الأوَّل منهما غير مجاب.))[5]

ويتَّصل هذا الكلام بكلامنا على الواوات التي تلحق صيغة (لا أُقْسِمُ)، ولهذه الواوات تخريجان، أحدهما: أنْ نعدَّ أوَّل واو تلي صيغة (لا أُقْسِمُ) واو قسم، والواو الثانية عاطفة كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾[6] وهذا أمرٌ يتماشى

---

(١) الليل: ١-٣

(٢) الكتاب (٣ / ٥٠١-٥٠٢)، وينظر المقتضب (٢ / ٣٣٥ – ٣٣٦)، الأصول في النحو (٢ / ٤٣٦)، الإيضاح في شرح المفصل (٢/٣٣١)، شرح الرضي على الكافية (٤ / ٣٠٦ – ٣٠٧)

(٣) ينظر الإيضاح في شرح المفصل (٢/٣٣)، شرح الرضي على الكافية (٤/٣٠٦)

(٤) الكتاب (٣ / ٥٠١)

(٥) سر صناعة الإعراب (١/٤٠٠)

(٦) الانشقاق: ١٦ – ٨

مع رأي سيبويه من جهة ويخالفه من جهة أخرى، فهو يوافق رأي سيبويه بجعل الواو الأولى قسمًا، والثانية عاطفةً، ويخالفه من جهة أنَّ سيبويه جعل الواو الأولى للقسم وهي غير مسبوقة بقسم أو نفي قسمٍ كما هو حاصلٌ في الآية الكريمة، والجواب عن هذا الإشكال يتحدد بالالتصاق بمعنى الآيات الكريمة، وقد قال ابن الحاجب: ((لو كانت واو القسم لم يخل إمَّا أنْ يكون ما بعدها مشتركا مع ما قبلها أو لا، فإنْ كان مشتركا وجب واو العطف أيضًا، وإنْ كان غير مشترك وجب أنْ يكون لكل واحدٍ منهما جوابٌ مستقلٌ به، لأنَّه قُدِّرَ غير مشترك.))[1]

ومن هنا يمكننا أنْ نفهم قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[2] على أنَّ الواو الواردة بعد صيغة (لا أقسم) في السورة هي واو القسم وليست واو العطف اعتمادا على معنى الآيات لأنَّ قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ نفيٌ للقسم بمكَّة[3]ثم بيانٌ لسبب نفي القسم في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فتكتمل إلى هنا صورة نفي القسم ليأتي بعدها قسمٌ غاضبٌ من الله، جلَّ جلاله، وهو قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، إذًا، الواو في هذه الآية واو قسم دلَّنا على ذلك المعنى، فما بعد الواو غير مشترك مع ما قبلها.

أمَّا إذا كان ما بعد الواو مشتركًا مع ما قبلها في المعنى ومتممًا لمشهده، فهذا يدفعنا إلى الحديث عن التخريج الثاني للواوات التي تلي صيغة (لا أُقْسِمُ) وهو:

أنْ تكون الواو الأولى والثانية عاطفتين على صيغة (لا أُقْسِمُ) وذلك كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ*وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ*وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[4] فقوله: ﴿بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ أي الكواكب التي تختفي وتستتر[5] وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي أدبر[6]

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي إذا بدأ يظهر ويبين[7] فبداية الصباح وظهور أوَّل شعاع نور يرتبط بشكلٍ مباشرٍ بإدبار الليل، لأنَّ اختفاء الكواكب التي كانت ظاهرةً في الليل، وإدبار

---

(١) الإيضاح في شرح المفصل (٣٣١/٢)

(٢) البلد: ١-٣

(٣) في الفصول القادمة بيان وتفصيل كاملان لمعنى صيغة (لا أقسم) ومعنى الآية الكريمة.

(٤) التكوير: ١٥-١٨

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء (٢٤٢/٣)، تفسير البيضاوي (٤٥٨/٥)، تفسير الثعالبي (٣٩١/٤)

(٦) ينظر معاني القرآن للفراء (٣ / ٢٤٢)، تفسير الطبري (٣٠/٧٧-٧٨)

(٧) تفسير البغوي (٤٥٣/٤)

الليل سببه تنفُّس الصباح وظهور الضياء. فهذه الآيات الكريمة صورةٌ متكاملةٌ لمشهدٍ واحدٍ، وبذا يتعيَّن علينا القول: إنَّ الواوات التي تلي صيغة (لا أُقْسِمُ) عاطفة.

وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ*لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾[1] فالآيات الثلاث الأُوَل مرتبطة بعضها ببعض وما بعد الواو مشترك مع ما قبلها فـ((في الجمع بين الشفق، والليل، والقمر، مراعاة للمناسبة الزمنيَّة الجامعة بينها. فالشفق أوَّل الليل من الأفق الغربي، والقمر أوَّله من الأفق الشرقي، (حيث يكون اتِّساقه وكماله وهو بدر في الليلة الخامسة عشرة)، فالمُقْسَم به الواقع عليه النفي، هو هذا الظرف من الزمن، وهو ليلة انتصاف الشهر القمري حيث تغرب الشمس، ويطلع القمر، أو حيث يولِّي سلطان الشمس، ويقوم سلطان القمر، فالظرف الزمني هنا، هو الليل الذي يقوم عليه سلطان القمر.))[2]

وقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ هذه الآية الكريمة عند المفسرين[3] هي جواب جواب القسم إلا أنَّ ابن قيِّم الجوزيَّة جوَّز ((أنْ تكون من القسم المحذوف جوابه، ولَتَرْكَبُنَّ وما بعده مستأنف.))[4]

وقد يلي صيغة (لا أُقْسِمُ) واو واحدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[5] وهي لا محالة واو العطف ولا مجال للشرح والتوضيح هنا، لأنَّ المعنى واضح واضح ويطلب العطف ولا مجال لأنْ تكون الواو غير عاطفة. أمَّا الواو الواردة في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[6]؛ فواو العطف، والآيتان الكريمتان من باب عطف جملة على جملة.

بقي أنْ أقول: إنَّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [7] واو الحال، لأنَّ الجملة بعدها حالية، فضلا عمَّا قيل فيها.

ثالثا: الفَاء المُتَّصِلَةُ بِصِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ):

اتصلت الفاء بـ(لا) التي تسبق الفعل (أُقْسِمُ) في صيغة (لا أُقْسِمُ) في خمسة مواضع، هي قوله تعالى:

---

(١) الانشقاق: ١٦-١٩

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٥٠٧/٧)

(٣) ينظر فتح القدير (٥ / ٤٠٨)

(٤) التبيان في أقسام القرآن (٧٠)

(٥) الحاقة: ٣٨-٣٩

(٦) القيامة: ١-٢

(٧) البلد: ٢

١. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[١]
٢. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[٢]
٣. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[٣]
٤. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[٤]
٥. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾[٥]

وقد تعدَّدت الآراء في هذه الفاء، على الرغم من قلَّة من تحدَّث عنها، فلم أجد لها إشارة عند أغلب العلماء في كتب إعراب القرآن وكتب التفسير، وانحصرت الآراء عند من أوردها على أنَّها: فاء الاستئناف، أو الفاء التي للتفريع، أو الفاء السببية أو فاء التعقيب، أو الفاء الفصيحة، أو فاء العطف.

١ــ فاء الاستئناف: ذهب النحاس إلى أنَّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ هي فاء الاستئناف[٦] وتابعه في ذلك د. محمد سيِّد طنطاوي[٧] في كلِّ المواضع التي ذُكرت فيها الفاء مع صيغة (لا أُقْسِمُ).

والاستئناف في اللغة يعني: الابتداء، جاء في لسان العرب: ((اسْتَأْنَفَ الشَّيءَ وائْتَنَفَهُ: أَخَذَ أَوَّلَهُ وابْتَدَأَهُ.))([٨]) وهو في الاصطلاح: ((الكَلامُ الذِي ذُكِرَ ابْتِدَاءً أَوْ مُواصَلَةً إِثْرَ انْقِطَاع.))[٩]

وهذا يعني أنَّ الله تعالى يَبْتَدِئ كَلامَهُ في هذه الآيات بنفي القسم.

٢ــ فَاءُ التَّفْرِيْع: ((التَّفْرِيْعُ، فَرَّعَ: فَرَّق، وَفَرْعُ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلاه[١٠]، وتَفَرَّعَت أَغْصَانُ الشَّجَرَةِ أَيْ كَثُرَتْ، والتَّفْرِيْع مَصْدَر قَوْلِكَ: (فَرَّعْتُ مِنْ هَذَا الأَصْلِ فُرُوْعًا) إِذَا اسْتَخْرَجْتَهَا.))[١]

---

(١) الواقعة: ٧٥
(٢) الحاقة: ٣٨ –٣٩
(٣) المعارج: ٤٠
(٤) التكوير: ١٥
(٥) الانشقاق: ١٦
(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس (٣/٥٠١)، إعراب القرآن للكرباسي (٨/٢٧ ، ٣٦٣)
(٧) معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم (٧١٧ ، ٧٦٣ ، ٧٦٦ ، ٧٩٤ ، ٨٠٠)
(٨) أَنَف، (٩/١٤)
(٩) معجم المصطلحات النحوية والصرفية (١٤–١٥)
(١٠) ينظر لسان العرب، فرع، (٨/ ٢٤٦)

والتَّفْرِيْعُ: ((هُوَ أَنْ يُثْبَتَ حُكْم لِمُتَعَلِّق أَمْر، بَعْدَ إِثْبَاتِهِ لِمُتَعَلِّقٍ لَهُ آخَرْ))[2] و((الفَرْعُ مَا كان جُزْءًا مِن الأَصْل أَيْ: أنَّه مُتَفَرِّع مِنْه... وقد عبَّرَ صَاحِب الألفيَّة عن الفُروعِ بِلَفظِ التَّفْرِيْع حيث قال عن الضَّمَائر المنصوبَةِ المُنْفَصِلَةِ:

وَذُو انْتِصَاب فِيْ انْفِصَالٍ جعلا   إِيَّايَ والتَّفْرِيْع لَيْسَ مُشْكِلا.[3]))[4]

وقد ورد معنى التفريع للفاء عند ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[5] إذ قال: ((الفاء هنا لتفريع إِثْبَات أنَّ القُرْآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ الله وَنَفْي مَا نَسَبه المُشْرِكُون إليه، تَفْرِيعًا على ما اقْتَضَاه بِتَكْذِيْبِهِم بالبعث من التَّعْرِيض بتَكْذِيب القُرآن الذي أَخْبَر بِوُقُوعِه، وتَكْذيبِهم الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، القَائِل إنَّه مُوْحَى بِه إليه منَ الله تَعَالى.))[6]

وقد كرَّرَ ابْن عاشور هذا المعنى في تفسير الفاء المتَّصلة بصيغة (لا أُقْسِمُ) في سورة التكوير وسورة الانْشقاق[7]

وقال د. محمَّد سيِّد طنطاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[8]: ((الفاء للتفريع على ما تَقَدَّم من أَدِلَّةِ البعث.))[9] وبذا يكون معنى الفاء مرتبطا بما قبلها من معاني الآيات الكريمة.

٣ـ الفَاءُ السَبَبِيَّة أَو فَاءُ التَّعْقِيْب:

إذا كانت الفاء سببيَّة فيمكن تقدير المعنى: تكرَّر منكم التكذيب بما أُنْزِلَ على محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وإنكار البعث والصدُّ عن سبيل الله، فلن أُقْسِمَ لكم بسبب تأكيدكم

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (٣٠٩/٢)

(٢) جواهر البلاغة (٣٨٦)

(٣) ينظر شرح ابن عقيل (٩٨/١)

(٤) معجم المصطلحات النحوية والصرفية (١٧٠)

(٥) الحاقة : ٣٨-٣٩

(٦) التحرير والتنوير (١٤٠/٢٩ – ١٤١) ، ينظر التفسير الوسيط (١١٦/١٥)

(٧) الآية: ١٥ من سورة التكوير، والآية: ١٦ من الانشقاق. ينظر التحرير والتنوير (١٥٢/٣٠، ٢٢٦)

(٨) الواقعة: ٧٥

(٩) التفسير الوسيط (٢٣١/١٤)

الإنكار والتكذيب بالإصرار على تَعَنُّتِكُمْ وجهلكم على الرغم من وضوح الآيات ودلالتها على وجود الله.

وإذا كانت الفاء للتعقيب؛ فهو معنى يرتبط بالسببيَّة من حيث الفهم العام. كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[1] ((قيل: الفاء في هذه الآية الآية للسببيَّة، وفاء السببيَّة لا تستلزم التعقيب.))[2] ويمكن تقدير معنى الفاء المرتبطة بصيغة (لا أُقْسِمُ) على أنَّه: أقسمت لكم فلم تُصَدِّقُوا ولفتُّ انتباهكم إلى الآيات المعجزة فلم تزيدوا إلا صدًّا وتكذيبًا، فلا أُقْسِمُ لكم.

والفاء على ذلك تدلُّ على أنَّ نفي القسم جاء عَقِبَ إقسام الله وتكرار الإنكار والتكذيب من المشركين.

٤ـ الفَاءُ الفَصِيْحَةُ:

سَمِّيَت فصيحةً لأنَّها تُفْصِح عن وجود محذوف. وَقُدِّرَ المحذوف في الآيات الكريمة التي ارتبطت فيها الفاء بصيغة (لا أُقْسِمُ) على أنَّه شرطٌ مقدرٌ، والفاء واقعة في جوابه، فمثلا في سورة الانْشقاق[3] يمكن تقدير الشرط بناءً على معنى الآيات في السورة: إذا لم تُصَدِّقُوا بالحساب والجزاء فلن أُقْسِمَ.

وقد ورد هذا المعنى عند د. محمَّد سيِّد طنطاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ إذ قال: ((والفاء في قوله: (فلا أُقْسِمُ) واقعة في جواب شرط مقدَّر، وهي التي يُعَبَّر عنها بالفَصِيْحَة))[4].

وقال عبد الكريم الخطيب، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾[5]: ((والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ هو مرتبط بما وقع جوابًا للشرط (إذا) في أوَّل السورة وهو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[6] أي أنَّ هذا الحقَّ واقعٌ، فلا أُقْسِمُ لكم على توكيده بالخُنَّسِ، الجَوَارِ الكُنَّسِ))[7]

---

(١) الحج: ٦٣

(٢) مغني اللبيب(٣٢٦/١)

(٣) الآية: ١٦

(٤) التفسير الوسيط (١٥ /٤٧٦)، وينظر ملحة الإعراب (٣١١/١)

(٥) التكوير: ١٥

(٦) التكوير: ١٤

(٧) التفسير القرآني للقرآن (٧ / ١٤٧٢)

٥ــ فَاءُ العَطْفِ:

قال ابْن الشجري: ((ليست (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[١]... ونحو ذلك بمنزلتها في قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٢] كما زعم بعض النحويين، لأنَّها ليست في أوّل السورة فمجيئها بعد الفاء والفاء عاطفة جملة على جملة يُخرجها عن كونها بمنزلتها في ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.))[٣]

وقد ورد هذا المعنى عند الكرباسي[٤] في إعراب قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[٥]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾

ويبدو لي أنَّ معنى الفاء المتصلة بـ(لا أُقْسِمُ): الاستئناف، لأنَّه المعنى الأقرب إلى دلالة الآيات الكريمة.

---

(١) الواقعة: ٧٥

(٢) القيامة: ١

(٣) الأمالي الشجرية (٢ / ٢٢١ – ٢٢٢)

(٤) الحاقة: ٣٨-٣٩

(٥) ينظر إعراب القرآن للكرباسي (٣٤١/٨ ، ٥٤٩)

الفَصْلُ الثَّانِـيْ

أَقْوَالُ العُلَمَاءِ وَآرَاؤُهُم فِي صِيْغَةِ نَفْيِ القَسَم عَرْض وَدِرَاسَة

يَنْقَسِمُ هَذَا الفصْل عَلَى مَبْحَثَيْن:

المَبْحَثُ الأَوْل: عَرْضُ طرائق المُفَسِّرِيْنَ فِي تَفْسِيْرِهِم لآيَاتِ نَفْي القَسَمِ فِي القُرْآنِ الكَرِيْم.

المَبْحَثُ الثَانِي: دِرَاسَةُ الآرَاءِ التِي قِيْلَت فِي صِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ)

المَبْحَثُ الأَوَّل

عَرْضُ طرائِقِ المُفَسِّرِيْنَ فِيْ تَفْسِيْرِهِم آيَاتِ نَفْيِ القَسَمِ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْم

،

كلٍّ منهم في تفسيره آيةٍ من هذه الآيات، وأقواله في تفسير آيةٍ أخرى، فتوصّلت إلى حقيقة وجود خللٍ ملحوظٍ في طريقة تفسير هذه الآيات.

لقد وجدت عدم وضوحٍ وتناقضًا في تفسير هذه الآيات، وإغفــالا واضــحًا للتماســك الوثيق بين معاني الآيات المتتالية بربط السابق واللاحق، فضلا عن اجتزاء المعاني البعيــد عن جوِّ السورة في كثير من الأحيان.

ولحظت اعتمادًا مخلا عند المفسِّرين المتأخِّرين على من سبقهم بنقل أقوالهم وتكرارهــا منسوبة أو غير منسوبة، ولتوضيح عرض الأقوال قسّمت هذا المبحث على ستة مطالب:

المطلب الأوَّل: أقوال المفسِّرين الذين لم يعرضوا لتفسير الصيغة البتَّة.

المطلب الثاني: أقوال المفسِّرين الذين عرضوا الآراء فقط.

المطلب الثالث: أقوال المفسِّرين الذين أيّدوا زيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) ولــم يذكروا لها معنىً آخر.

المطلب الرابع: أقوال المفسِّرين الذين عرضوا الآراء التي قيلت فــي صــيغة (لا أُقْسِمُ) ورجّحوا معنىً من المعاني.

المطلب الخامس: أقوال المفسِّرين الذين قالوا بمعنى النفي في (لا)، وقد اختلفت طرائقهم في توجيه هذا المعنى باتجاهين: **أحدهما:** تأييد معنى النفي لكلام سابق. **والآخر:** تأييد معنى نفي القسم.

المطلب السادس: أقوال المفسِّرين الذين تأرجحوا بشدّة وتنقّلــوا بــين المعــاني فذكروا في كل موضع معنىً يختلف عن الآخر.

اعتمدت على هذا التصنيف بناءً على ما أورده المفسِّرون في كلِّ موضعٍ ذُكر فيه نفــي القسم في القرآن الكريم، فإذا تنوّعت طرائق أحدهم، بحسب الآية التي ورد فيها نفي القسم أدرجته في الأقسام المذكورة مع ما يوافق رأيه المذكور في كلِّ موضع.

وإذا كان لأحدهم رأيٌ قاطعٌ في صيغة (لا أُقْسِمُ) يفيد عموم القياس في كل المواضع من غير ربطٍ خاصٍّ بالآية التي ذَكر فيها رأيه، أدرجته في موضع واحد بوصفه رأيًا واحدًا لــم يتنوَّع.

المَطْلَب الأَوَّل:
أَقْوَال المُفَسِّرِيْن الذِيْن لَمْ يَعْرِضُوا لِتَفْسِيْر الصِّيْغَة البَتَّة

وهم بين مفسِّر لم يذكر قولا عن (لا) في أغلب مواضع ورودها، وآخر ذكرها في مواضع وأغفل ذكرها في مواضع أخرى، ومفسِّر تجاهلها وتجاهل رسمها البتّة وكأنَّها لم ترد في الآية.

ففي قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[1] قال مجاهد: ((أنبأ عبد الرحمن... عن ابن عباس (بمواقع النجوم) نجوم القرآن وذلك أنَّه نزل القرآن إلى السماء الدنيا جميعه جملةً واحدةً ثم نجم على النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، نجوما فرقا قطعا الآية والآيتان وأكثر... عن مجاهد قال: يعني (بمواقع النجوم) في السماء، ويقال أيضا مطالعها ومساقطها.))[2].

وعلى هذا النحو المتناسي لصيغة (لا أُقْسِمُ) فسَّر قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّس﴾[3][4]. وقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَق﴾[5][6] . وقوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[7][8]

---

(١) الواقعة: ٧٥

(٢) تفسير مجاهد (٦٥٢/٢ – ٦٥٣)، وينظر تفسير الصنعاني (٢٧٣/٣)، تفسير غريب القرآن (٤٥١)، التبيان في تفسير غريب القرآن (٤٠٤).

(٣) التكوير : ١٥

(٤) ينظر تفسير مجاهد (٧٣٤/٢ – ٧٥٣)، تفسير الصنعاني (٣٥١/٣)، تفسير غريب القرآن (٥١٧)، التبيان في تفسير غريب القرآن (٤٥٢)، الكشاف (٢٢٣/٤ – ٢٢٤) تفسير ابن كثير (٤٧٩/٤)، تفسير البيضاوي (٤٥٨/٥)، الدر المنثور (٤٥٨/٨)، تفسير أبي السعود (١١٧/٩)، روح المعاني (٥٧/٣).

(٥) الانشقاق : ١٦

(٦) ينظر تفسير مجاهد (٧٤٢/٢)، تفسير الصنعاني (٣٥٨/٣)، تفسير غريب القرآن (٥٢١)، تفسير البغوي (٤٦٤/٤)، الكشاف (٢٣٥/٤)، تفسير ابن كثير (٤٩٠/٤)، تفسير البيضاوي (٤٧/٥)، تفسير أبي السعود (١٣٣/٩)، أضواء البيان (١٩/٨)، التفسير لكتاب الله المنير (٢٠٦/٨).

(٧) البلد :١

(٨) ينظر تفسير مجاهد (٧٥٨/٢)، تفسير الصنعاني (٣٧٣/٣)، النهر الماد من البحر المحيط (١٢٦٥/٢)، التفسير لكتاب الله المنير (٢١٩/٨)

وذكر الماوردي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ الأقوال التي وردت في (الشفق) وتابع تفسير الآيات بعدها من غير أن يقف على معنى (لا أُقْسِمُ) قال: ((﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ فيه أربعة أقاويل: (أحدها) :أنَّه شفق الليل وهو الحمرة، قاله ابن عباس. (الثاني) أنَّه بقِيَّة ضوءِ الشمس، قاله مُجاهد. (الثالث) أنَّه ما بقي من النهار، قاله عكرمة (الرابع) أنَّه النهار كلُّه، رواه ابْن أبي نجيح.))[1]

واسْتطاع الزمخشري أنْ يُفسِّر قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[2] بقوله: ((وقرئ بِرَبِّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ.))[3] !!!.

وينهج النسفيّ المنهج نفسه في تفسير الآية الكريمة ((﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ مطلع الشمس، (والمغارب) مغاربها.))[4] فيدعونا إلى التعجُّب من السطحيَّة المباشرة في أسلوب تفسيره.

وغضَّ ابْن قيِّم الجوزيَّة الطرف عن تفسير (لا) في الآيات الكريمة التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)، ومرّ على هذه الآيات على أنَّها قَسَمٌ مثل أيِّ قسم ولم يلفت ذهن القارئ إلى وجود أسلوب مختلف في هذه الآيات، ولا أعلم سبب اختياره هذا الأسلوب في شرحه، لأنَّه لم يذكر رأيه في ما قيل حول موضوع النفي الذي يسبق القسم ولم يشر إليه البَتَّة. فممَّا قاله مثلا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[5] ((قال مقاتل بِمَا تُبْصِرُوْنَ من الخلق وما لا تُبْصِرُون منه، وقال قتادة: أَقْسَمَ بالأشياء كلِّها بما يُبْصَر منها وما لا يُبْصَر، وقال الكلبيّ: تُبصرون من شيءٍ، وما لا تُبصرون من شيء وهذا أعمّ قَسَم وقع في القرآن، فإنَّه يعمُّ العُلويَّات والسُفليَّات والدنيا والآخرة، وما يُرى وما لا يُرى ويدخل في ذلك الملائكة كلُّهم والجنُّ والإنس والعرش والكرسيّ، وكلُّ ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرِّف الآيات، ففي ضمن هذا القسم أنَّ كلَّ ما يُرى وما لا يُرى آية ودليل على صدق رسوله، وأنَّ ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه لا كلام شاعرٍ ولا مجنونٍ ولا كاهنٍ.))[6] .

---

(١) تفسير الماوردي (٤/٤٢٧-٤٢٨)

(٢) المعارج :٤٠

(٣) الكشاف (٤/١٦٠)

(٤) تفسير النسفي (٤/٢٨١)

(٥) الحاقة ٣٨-٣٩

(٦) التبيان في أقسام القرآن (١٠٩-١١٠)

وعلى هذا النحو كان تفسيره للمواضع الأخرى[1] التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) في القرآن الكريم.

ويبدو أنَّ هؤلاء المفسِّرين حين مرُّوا على آيات صيغة (لا أُقْسِمُ) تجاوزوا هذه الصيغة ولم يقفوا عند معناها أو إعرابها، ولم يحاولوا إيجاد علاقة بينها وبين ما قبلها وما بعـدها، بل تجاوزوها إلى ما بعدها، وقد يعود ذلك إلى جملة أسباب منها:

كون بعض هذه التفاسير موجزا اقْتُصر في تأليفه على بيان معاني المفـردات التـي يراها المؤلف غريبةً أو عصيَّةً على القارئ كتفسير مُجاهد وتفسير غريـب القـرآن لابـن قتيبة.

كون بعضها يفسِّر الآيات بشكل تفصيليّ، كالكشاف وتفسير النسفيّ والدرّ المنثور، إلا أنَّنا نجد أنَّ المفسِّر في عدد من المواضع التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) يتجاوزها ليفسِّر ما بعدها، إمَّا لأنَّه يعتقد أنَّ تفسيره لها في موضع يسبق الموضع الذي لم يفسِّرها فيه يُغنيه عن الإعادة. وإمَّا لإشكال في معنى الصيغة نتيجة الخلاف الواقع فيها فيُؤْثِر تجاوزها وعدم الخوض فيها.

إيمان عدد من المفسرين أنَّ النفي في الصيغة يعني الإثبات، ولذا غضَّ الطرف عـن (لا) إلى (أُقْسِمُ) كابْن قيِّم الجوزيَّة عندما فسَّر صيغة (لا أُقْسِمُ) في كلِّ المواضع التي وردت فيها.

والكلُّ في رأيي مقصِّر في عدم إيضاح صيغة (لا أُقْسِمُ) في الآيات الواردة فيها أيًّا كان رأي المفسِّر في هذه الصيغة، فإذا كان بعضهم قد فسَّرها في موضع واحد ثم أغفلهـا فـي المواضع الأخرى، بحجَّة أنَّ ذلك الموضع يُغنيه عن الإعادة، أقول: إنَّ كلَّ موضع له تفسير يختلف عن الموضع الآخر لعلاقته بما قبله وبما بعده في سياق الوحدة الموضـوعيَّة لكـل سورة.

وكان على المفسِّرين عندما رأوا كثرةً في الآراء وتعددًا في المعاني أنْ يَبتُّوا بأحدها، في الأقل، وأنْ يُدَلِّلُوا على ما ذهبوا إليه، لأنَّ مهمتهم البحث عن المعاني والاجتهاد فيها.

وإذا كان المفسر يتجاهل وجود (لا) تماما وكأنَّه لا يرى الصيغة في الآية، فذلك أمـرٌ مردودٌ لأنَّه يحجب إشراقات الآية عن ذهن القارئ ويُغْمِض عينيه عن الحقيقة.

وهذا كلُّه مرفوض لا يفي بغرض التفسير ويُبْعِدنا عن المعاني المقصودة والمرادة في السورة الكريمة التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ).

(١) ينظر التبيان في أقسام القرآن (١٣٧ ،١٢١-١٢٢، ٩٢-٩٤، ٧٢-٧٣ ، ٦٨-٦٩ ، ٢٢-٢٤)

المَطْلَبُ الثَّانِيْ:
أَقْوَالُ المُفَسِّرِيَنَ الذِيْنَ عَرَضُوا الآرَاءَ فَقَطْ

أجملت في هذا المطلب عرض أقوال المفسرين في صيغة (لا أُقْسِمُ) الذين لم يكن لهم تعليقٌ عليها أو إشارةٌ إلى ترجيح رأيٍ على آخر. ويبدو لي أنَّ هذا النمط في التفسير وسيلة من وسائل الإبهام والتعمية وتشتيت المفاهيم، لأنَّ تَعدُّد الآراء أمام القارئ من غير ترجيح رأيٍ على رأي بعثرةٌ للمعاني وإضاعةٌ لها، ومما لا شكَّ فيه أنَّ الآيات القرآنية تتصف بالوحدة الموضوعيَّة، فإذا لم يتَّصل معنى آيةٍ بما قبلها وبما بعدها، فليس لذكر المعنى أهميةٌ في السياق، هذا فضلا عن أنَّ المفسِّر حين يسرد المعاني ولا يبدي رأيه فيها، لا يعدّ عمله إلا نقلا عمَّن سبقه أو جمعًا للآراء وعرضًا لها.

ومن هذا النمط في التفسير: قول الماوردي مثلا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[1]: ((وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه إنكار أنْ يقسم الله بشيء من مخلوقاته، قال الضحَّاك: إنَّ الله لا يُقْسِم بشيءٍ من خلقه ولكنَّه اسْتفتاحٌ يفتتح به كلامه. الثاني: انَّه يجوز أنْ يُقسم الخالق بالمخلوقات تعظيمًا من الخالق لما أَقْسَمَ به من مخلوقاته فعلى هذا في قوله (فلا أُقْسِمُ) وجهان: أحدهما: أنَّ (لا) صلة زائدة، ومعناه (أقسم). الثاني: أنَّ قوله (فلا) راجع إلى ما تقدَّم ذكره، ومعناه، فلا تُكذِّبوا ولا تَجْحَدُوا ما ذكرته من نعمةٍ وأظهرته من حجَّةٍ، ثم اسْتأنف كلامه فقال (أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوْمِ)، وفيها ستَّة أقاويل: أحدها: أنَّها مطالعها ومساقطها قاله مجاهد. الثاني: انْتشارها يوم القيامة وانْكدارها قاله الحسن. الثالث: أنَّ (مَوَاقِعَ النُّجُوْمِ) السماء قاله ابن جريج. الرابع: أنَّ مَوَاقِعَ النُّجُومِ الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مُطِروا قالوا: مُطرنا بنوء كذا قاله الضحَّاك ويكون قوله (فلا أُقْسِمُ) مستعملا على حقيقته في نفي القسم بها. الخامس: أنَّها نجوم القرآن أنزلها الله من الّوح المحفوظ من السماء العليا إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ونجمه جبريل على محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، عشرين سنة، فهو ينزله على

(١) الواقعة : ٧٥

الأحداث في أمَّتِه قاله ابن عباس... السادس: أنَّ مواقع النجوم هو محكم القـرآن ،حكـاه الفرَّاء عن ابن مسعود.))[1].

وقد استعمل عدد من المفسِّرين هذا النمط في تفسير قولـه تعـالى: ﴿لَـا أُقْسِـمُ بِيَـوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[2][3] فعدَّدوا الآراء التي قيلت في صيغة (لا أُقْسِمُ) مـن كونها زائدةً مؤكدةً، أو نافيةً لكلام سابق، أو نافيةً للقسم، إلى آخر ما قيل فيها من غير أنْ يرجِّحُوا رأيًا على رأي ممَّا قيل فيها، تاركين بذلك الباب مفتوحًا أمام كثرة التأويلات.

والأغرب من ذلك، أنَّهم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَـةِ﴾ ذكـروا للنفس اللوَّامة معنيين متناقضين، أحدهما: أنَّها قد تكون صفة مدح وعلى هـذا؛ فـالمعنى قسم. والآخر: أنَّها قد تكون صفة ذم وعلى هذا؛ فالمعنى نفي للقسـم. وتركـوا التـرجيح والاختيار وما يترتب عليهما من ربطٍ للمعاني والوصول إلى مفهومٍ عامٍ للآيات، على كاهل القارئ الذي لجأ إلى التفسير بُغية التفسير.

ونلمس هذا النمط من التفسير عند ابن عطيَّة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَـذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[4] فبعد أنْ ذكر الاختلاف الواقع في تفسـير (لا أُقْسِـمُ) وذكـر الأقوال الواردة فيها من غير ترجيح لأيٍّ منها، انْتقل إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْـتَ حِـلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فقال: ((معناه: حالٌّ ساكنٌ بهذا البلد، وعلى هذا يجيء قول من قال هي مكيَّـة. والمعنى على إيجاب القسم بَيِّن... وذكر الثعلبيّ عن شرحبيل بن سعد أنَّ معنى (وأنت حل) أي قد جعلوك حلالا مستحلَّ الأذى والإخراج والقتل لك لو قـدروا.))[5] ونبقـى مـع هـذا الأسلوب من التفسير في حيرةٍ من أمرنا، أيّ معنى من معاني (لا) نختار؟ ومع أيِّ معنى من معاني (حِلّ) نربط الآيـة الأولى؟ ونحن نحتاج للرابط بينهما، لأنَّ معنى هاتين الآيتين لـه

---

(١) تفسير المـاوردي (٤/١٧٧ – ١٧٨)، وينظـر تفسـير البغـوي (٤/٢٨٩)، المحـرر الـوجيز (٥ / ٢٥٠ – ٢٥١)، زاد المسـير (٨/١٥٠– ١٥١)، الخـازن (٤/٢٤١)، تفسـير الثعـالبي (٤/٢٥٦– ٢٥٧)، فتح البيان (٩ / ٢٧٣ – ٢٧٤)، تفسير الشربيني (٤/١٩٤ – ١٩٥)، التفسير الوسيط (١٤/٢٣١– ٢٣٢) .

(٢) القيامة : ١– ٢

(٣) ينظر تفسير الماوردي (٤/٣٥٥– ٣٥٧)، تفسير البغـوي (٤/٤٢٠– ٤٢١)، المحـرر الـوجيز (٥/٤٠١ – ٤٠٢)، الخازن (٤/٣٦٩ – ٣٧٠)، تفسير الثعالبي (٤/٣٦٥)، أسرار التكـرار فـي القرآن (٢١١)، تفسير القرآن الكريم للشربيني (٤/٤٣٨ – ٤٣٩) .

(٤) البلد :١–٢

(٥) المحررالوجيز (٥/٤٨٣–٤٨٤)، وينظر التفسـير الوسـيط (١٥/٥٦٢–٥٦٣)، تفسـير الشـربيني (٤/٥٣٦–٥٣٧)

أثرٌ كبيرٌ في توجيه معنى السورة كلّها، فإذا كان المعنى على القسم والرسـول، صـلَّى الله عليه وسلَّم، ساكنٌ فيه يتَّجِه معنى السورة إلى التعظيم، وإذا كان المعنى نفي القسم بمكـة، لاسْتِبَاحة قريش حرمة الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، فيها يتحوّل معنى السورة كلّها إلـى الغضب ورفع التعظيم عن مكة. ولذا لا يمكننا الاعتماد على هذا النمط من التفسـير لأثـره السلبيّ في تشتيت المعاني.

وقد استعمل الأسلوب نفسه عدد من المفسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَـا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[1][2]. وقوله: ﴿فَلَـا أُقْسِـمُ بِـرَبِّ الْمَشَـارِقِ وَالْمَغَـارِبِ إِنَّـا لَقَادِرُونَ﴾[3][4]. وقوله﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾[5][6].

(١) الحاقة :٣٨-٣٩

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٣٦٢/٥)، مجمـع البيـان (٣٤٩/٥)، الخـازن (٣٣٧/٤)، تفسـير الثعـالبي (٣٣٦/٤)، التفسير الوسيط (١١٦/١٥-١١٧)

(٣) المعارج :٤٠

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٣٧١/٥)

(٥) التكوير : ١٥

(٦) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٣/٥-٤٨٤)، تفسير الثعالبي (٣٩١/٤)

المَطْلَبُ الثَّالِثُ:
أَقْوَالُ المُفَسِّرِيْنَ الذِيْنَ أَيَّدُوْا زِيَادَةَ (لا) فِيْ صِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ) وَلَمْ يَذْكُرُوْا لَهَا مَعْنَى آخَر

ذكر المفسِّرون من هذا النوع للآية التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) معنًى واحدًا فقط، وهو زيادة (لا)، ويكون ما بعدها قسمًا مستأنفًا، وعباراتهم في ذلك متفاوتة بين الزيادة والصلة.

وقد عرضوا هذا الرأي بِصُوَرٍ مختلفةٍ، لم أجد في أيٍّ منها ما يُقْنِع، إذ إنَّ معظم المفسِّرين القائلين بزيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) وما بعدها قسم مستأنف لم يذكروا الرابط بين القسم وجوابه، وذلك نحو قول الطبري: ((القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾[1] وهذا قسم أقسم ربنا بالشفق، والشفق الحمرة في الأفق من ناحية المغرب من الشمس في قول بعضهم، واخْتَلَفَ أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم هو الحمرة... وقال آخرون هو النهار... وقال آخرون الشفق هو اسم للحمرة والبياض وقالوا هو من الأضداد.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنَّ الله أَقْسَمَ بالنهار مُدْبِرا والليل مُقْبِلا، وأمَّا الشفق الذي تحلُّ به صلاة العشاء، فإنَّه للحمرة عندنا للعلة التي بينَّاها في كتابنا كتاب الصلاة.

وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يقول والليل وما جَمَع ممَّا سَكَن وهَدَأ فيه من ذي روح كان يطير أو يدب نهارا يقال عنه وَسَقْتُهُ أَسقَه وَسْقًا...

وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ يقول والقمر إذا تمَّ واستوى، وبنحو الذي قُلنا قال أهل التأويل...

وقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ اخْتلف القُرَّاء في قراءته فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامَّة قُرَّاء مكَّة والكوفة (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح التاء والباء، واخْتلف قارئو ذلك في معناه... وقرأ ذلك عامَّة قُرَّاء المدينة وبعض الكوفيين (لَتَرْكَبُنَّ) بالتاء وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافَّة أنَّهم يركبون أحوال الشدَّة حالا بعد حال...وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ بالتاء وبفتح الباء... وإذا كان

(١) الانشقاق : ١٦ – ١٩

الصواب في القراءة في ذلك ممَّا ذكرنا فالصواب في التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنَّ أنت يا محمد حالا بعد حال وأمرا بعد أمر من الشدائد.))[1]

فالواضح من تفسير الطبري لهذه الآيات الكريمة أنَّه لم يتعرَّض لذكر الرابط بين المُقْسَمِ به وجواب القَسَمِ، فضلا عن أنِّي لم أفهم من تفسيره معنًى مترابطًا للآيات أو إشراقةً مبهجةً، وكلّ ما وجدته في هذا النصِّ أنَّه أورد المعاني جافَّة مُفَكَّكَة، كأنه يفسِّر آيات من سور مختلفة وليست في سورة واحدة، فشتَّت معانيها وفرط عقدها المنظوم المُعْجِز في تعانق المعاني واتِّصال بعضها ببعض.

ومن المفسِّرين من جزم بمعنى القسم وزيادة (لا) في كل المواضع التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) في القرآن الكريم بأقوالٍ مختصرةٍ سريعةٍ من غير ذكر دليل يُؤَكِّد كلامه أو يدعم اختياره، ومن غير إشارةٍ إلى الغرض من القسم وأثره في الآيات بعده، نحو قول الواحديّ: ((فلا أُقْسِمُ (لا) زائدة (بِمَوَاقِعِ النُّجُوْمِ)[2] مساقطها ومغاربها وقيل أراد نجوم القرآن))[3].

وقوله: (((فلا أُقْسِمُ) (لا) زائدة (بما تُبْصِرُوْن) ما تَرَوْنَ من المخلوقات (وما لا تُبْصِرُون)[4] ما لا تَرَوْنَ منها))[5].

واسْتعمل الواحديّ الأسلوب نفسه في تفسير الآيات التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) في (سورة المعارج والتكوير والانشقاق والبلد)[6].

ومن المفسِّرين من حاول الاسْتِدلال على معنى القسم في صيغة (لا أُقْسِمُ) ولكنَّ دليله كان ضعيفًا، نحو قول محمَّد الأمين في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾[7] (((فلا أُقْسِمُ) ظاهره النفي، والحال أنَّه أَقْسَمَ بدليل جواب القسم بعده ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ *عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾[8]...))[9]

---

(١) تفسير الطبري (١١٩/٣٠ – ١٢٥)، وينظر تفسير الطبري لسورة البلد (١٩٣/٣٠)

(٢) الواقعة : ٧٥

(٣) تفسير الواحدي (١٠٦٣/٢ – ١٠٦٤)

(٤) الحاقة : ٣٨ –٣٩

(٥) تفسير الواحدي (١١٢٩/٢ – ١١٣٠)

(٦) ينظر تفسير الواحدي (١١٣٤/٢ ، ١١٧٨ ، ١١٨٧ – ١١٨٨ ، ١٢٠٣)

(٧) المعارج: ٤٠

(٨) المعارج: ٤٠–٤١

(٩) أضواء البيان (٥١٨/٨–٥١٩)

وقوله في تفسيره قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[1] ((تقـدّم الكـلام علـى هـذه اللام...إلا أنَّها هنا ليست للنفي، لأنَّ الله تعالى قد أَقْسَم بهذا البلد في موضع آخر، وهو قوله تعالى﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[2] لأنَّ هذا البلد المراد بـه مكّـة إجماعًا...))[3].

إنَّ الأدلَّة التي ذكرها (محمَّد الأمين) في تفسير معنى القسم فـي صـيغة (لا أُقْسِـمُ) ضعيفة وغير مقنعةٍ، ففي سورة المعارج كان دليله على معنى القسم في الآية، قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ واكتفى بهذا القدر من الشرح، وعلى القارئ أنْ يعرف كيف تكـون الآيـة الكريمة دليلا على القَسَم؟ ومن ثمَّ دليلا على زيادة (لا) !!.

أمَّا في سورة البلد فقد أعطى المفسِّر نفسه دليلا مختلفا لإثبات معنى القَسَم في الآيـة وهو أنَّ الله تعالى قد أقسم (بالبلد الأمين) في سورة التين.

وممَّا لا شكَّ فيه، أنَّ القرآن يفسِّر بعضه بعضا، غير أنَّ (محمَّد الأمين) لم يلتفت إلـى صفة (الأمين) التي التصقت بالقسم بالبلد في سورة التين وافترقت عن البلد في سورة البلد، وفاته الالتفات إلى عناصر كثيرة في السورتين تجعل المعنى في الآيتين وما بعدهما مختلفا، لأنَّ للقسم الصريح بالبلد في سورة التين سببًا وأهدافًا وتوقيتًا معينًا، ولنفي القسم بالبلد في سورة البلد سببٌ وأهدافٌ وتوقيتٌ، وسأثبت هذا الأمر في حديثي عن سورة البلد في موضع قابل إنْ شاء الله تعالى.

ومن المفسِّرين من وقع في التناقض من غير أنْ يشعر وهو يحـاول تطبيـق معنـى القسم بشكل قَسْرِيّ على الآيات التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) نحو قول الماورديّ: ((﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[4] ومعناه على أصحِّ الوجوه: أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ. وفي (البلد) قولان: أحدهما: مكَّة، قاله ابن عباس. الثاني :الحرم كلّه، قاله مجاهد. ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[5] فيه ثلاثـة أوجه: أحدها: حِلٌّ لك ما صنعته في هذا البلد من قتال أو غيره، قاله ابن عباس ومجاهـد. الثاني: أنت مُحِلٌّ في هذا البلد غير مُحْرِم في دخولك عام الفتح، قالـه الحسـن وعطـاء. الثالث: أنْ يستحلَّ المشركون فيه حرمتك وحرمة من اتَّبعك، توبيخا للمشـركين. ويحتمـل رابعا: وأنت حَالٌّ أي نَازلٌ في هذا البلد.))[6].

---

(١) البلد: ١

(٢) التين: ١-٣

(٣) أضواء البيان (٩/٢٢٣)

(٤) البلد: ١

(٥) البلد: ٢

(٦) تفسير الماوردي (٤/٤٥٦ – ٤٥٧)

لقد اعتدنا من الماوردي في معظم المواقع التي وردت فيها صيغة (لا أقسم) أن يعرض الآراء التي قيلت في (لا)[1]، ولكنَّه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ لم يذكر إلا رأيًا واحدًا، والأدهى من ذلك أنَّه جزم بالقول فيه وتبنَّاه مع ذكره وجوه تأويل كلمة (حِلّ) الواردة في الآية الثانية، وهنا يقع التناقض، إذ الاقْتِصار على رأي زيادة (لا) في (لا أُقْسِمُ) يتناقض مع ذكر الأقوال والتأويلات في كلمة (حِلّ) لأنَّ الآيتين متصلتان فلا يمكن تفسير معنى (لا أُقْسِمُ) من غير تقرير معنى (حِلّ)، ولأنَّ من أوجه معانيها التي ذكرها الماوردي ما لا يتماشى البَتَّة مع معنى الزيادة المُتَبَنَّى في بداية قوله.

والقارئ قد يتوهم توافق المعاني المذكورة في (حِلّ) مع معنى زيادة (لا) والقسم بالبلد، ولاسيما أنَّ الماورديّ يعرض المعاني من غير أنْ يربط أحدها بالآخر.

أما د. محمَّد سيِّد طنطاوي فقد تناقضت المعاني عنده وهو يحاول الالتفاف على المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[2] إذ قال: ((والفاء في قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ للتفريع على ما تقدَّم من تحقيق وقوع البعث وهي تعطي أيضا معنى الإفصاح، و(لا) مزيدة لتأكيد القسم، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[3] أي إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أنَّ البعث حق. فأُقْسِمُ بالنجوم التي تَخْنُس بالنهار أي يَغِيْب ضوؤها عن العيون بالنهار ويظهر بالليل والتي تجري من مكان الى آخر بقدرة الله تعالى ثم تَكْنِس أي تَسْتَتِر وقت غروبها كما تتوارى الظباء في كُنُسِهَا. إنَّ هذا القُرآن لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيْم.))[4] فهو يُبَيِّن بعد قوله بزيادة (لا) في الآية الكريمة أنَّ الكلام مُوَجَّهٌ لأُناسٍ أنكروا البعث فأَقْسَمَ الله تعالى لهم (بالخُنَّس الجوَارِ الكُنَّسِ وباللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وبِالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) على أنَّ القُرآن قَوْلُ رَسُوْلٍ كَرِيْمٍ.

وهذا كلام غير مترابط وليس لأوَّله صلةٌ بآخره، والأَوْلى أنْ يكون جواب القسم على وفق هذا التفسير (إنَّ البَعْثَ حَقٌّ).

---

(١) ينظر تفسير الماوردي (٤/١٧٧-١٧٨)، (٤/٣٥٥-٣٥٧)

(٢) التكوير: ١٥-١٦

(٣) التكوير: ١٩

(٤) التفسير الوسيط (١٥/٤٢٤)

وقد ورد تأييد عددٍ من المفسرين لمعنى القسم وزيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) في كلِّ مواضع ورودها[1] .

(١) ينظر تفسير البغوي (٤/٤٥٣-٤٨٨)، الكشاف (٤/١٥٤-٢٥٥)، زاد المسير (٩/٤١-٤٢)، تفسير القرطبي (١٨/٢٩٥، ١٩/٢٣٦-٢٤٠)، تفسير النسفي (٤/٢٧٧، ٣٢٠، ٣٢٧، ٣٣٩)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢٩/٤١، ٣٠/٩٨)، الخازن (٤/٣٤٢-٣٤٣)، تفسير ابن كثير (٤/٤١٨، ٤٤٨-٤٤٩)، تفسير البيضاوي (٥/٤٩٢)، الدر المنثور (٨/٤٣، ٣٤٢)، تفسير أبي السعود (٩/٣٤-٣٥، ١٦٠)، تنوير الأذهان (٤/٥١٩)، روح البيان (١٠/٤٣٣)، فتح البيان في مقاصد القرآن (١٠/٧٠)، تفسير الكريم الرحمن (٧/٢٧٥)، تفسير الشربيني (٤/٣٨٧، ٤٩٣)، التحرير والتنوير (٣٠/١٥٢-٢٢٦).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ:
أَقْوَالُ المُفَسِّرِيْنَ الذِيْنَ عَرَضُوْا الآرَاءَ التِيْ قِيْلَتْ فِيْ صِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ) وَرَجَّحُوا مَعْنًى مِنَ المَعَانِيْ فِيْهَا

يندرج تحت هذا النوع من التفسير، أقوال المفسرين الذين عرضوا لنا أكثر من رأيٍ في تفسير صيغة (لا أُقْسِمُ) في القرآن الكريم، ومن ثَمَّ أيَّدُوا معنًى من المعاني المذكورة أو رجَّحُوه على ما سواه لِتَوَافُقِه مع معنى الآيات في السورة بحسب فهمهم. وقد اخْتلفت طرائق المفسِّرين في عرض الآراء والتعامل معها:

فمن المفسِّرين مَنْ عَرَضَ الآراء التي قيلت في (لا أُقْسِمُ) ورَجَّحَ رأيًا منها من غير أنْ يُفَنِّد الآراء الأخرى أو يناقشها، نحو قول الطبرسيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] ((قيل إنَّ (لا) صلة ومعناه أُقْسِمُ بيوم القيامة عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وقيل إنَّ (لا) ردٌّ على الذين أنكروا البعث والنشور من المشركين، فكأنَّه قال (لا) كما تظنون ثم ابْتَدأ القسم فقال أُقْسِمُ بيوم القيامة إنَّكم مبعوثون... وقيل معناه لا أُقْسِمُ بيوم القيامة لظهورها بالدلائل العقليَّة والسمعيَّة، وقيل معناه لا أُقْسِمُ بيوم القيامة فإنَّكم لا تُقِرُّون بها. ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[2] فإنَّكم لا تُقِرُّون بأنَّ النفس تلوم صاحبها يوم القيامة... وقيل معناه أُقْسِمُ بيوم القيامة ولا أُقْسِمُ بالنفس اللوامة... والأَوْلَى أنْ يكونا قَسَمَيْن.))[3].

وهذه الطريقة في التفسير لا تفي بالغرض من التفسير، لأنَّ المفسِّر إنْ لَمْ يُفَنِّدَ الآراء الأخرى غير الرأي المختار عنده، ويُغْني اخْتياره ويُبرهن عليه بالأدلَّة والاسْتنتاجات يكون قد أنجز الجزء السطحيّ من العمل وترك الغوص في أعماقه.

ومن المفسِّرين من يُرَجِّح رأيًا ويُجَوِّز الآراء الأخرى وكأنَّها خَيَاراتٌ مُتَاحَةٌ أمام القارئ لينتقي منها ويختار واحدًا. أمَّا عملية ربط معاني الآيات بعضها ببعض، فغير واردة أو غير مرعيِّة في مثل هذه الأقوال، من ذلك قول البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[4]: (((فلا أُقْسِمُ) إذ الأمر أوضح من أنْ يحتاج إلى قسم، أو فَأُقْسِمُ،

(١) القيامة: ١

(٢) القيامة: ٢

(٣) مجمع البيان (٥/٣٩٣ – ٣٩٤)

(٤) الواقعة: ٧٥

ولا مزيدة للتأكيد كما في ﴿لِئلا يَعْلَمَ﴾[1]، أو(فلأنا أقسم) محذوف المبتدأ، أو أشبع فتحة لام الابْتِدَاء، ويَدُلُّ عليه قراءة (فلا أُقْسِمُ) أو (فَلا) رَدٌّ لكلامٍ يخالف المُقْسَمَ عليه.))[2].

وعلى النقيض من هاتين الطريقتين في عرض الآراء نجد من المفسِّرين من عــرض الآراء وناقشها، ومن ثَمَّ قام بِتَفْنِيْدِ الآراء المُخَالِفَة للرأي الذي اخْتَاره وأثبت رأيه بالأدلَّـــةِ والبراهين، كعبد الكريم الخطيب في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إذ ذكــر في بداية تفسير هذه الآية الآراء التي قيلت في صيغة (لا أقسم) وفَنَّــدها بقولـــه: ((أكثــر المفسِّرين على أنَّ (لا) في قوله تعالى: (فلا أُقْسِمُ) زائدة وأنَّ التقدير أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُــومِ، ولم يذكروا لهذه الزيادة وجهًا مقبولا، حتَّى لكأنَّها زيادةٌ مقحمةٌ كضرورة الشــعر. ويــرى الزمخشريّ مثلا أنَّ زيادة (لا) تقتضي أنْ يكون النظم هكذا: (فَلأَنَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِــعِ النُّجُــومِ) وعلى هذا يكون أَصْلُ النظم جملةً من مبتدأ وخبر وأنَّ لام الابْتِداء دخلت على المبتدأ وهــو وإنْ كان نادرًا إلا أنَّ ذلك ورد في لسان العرب... وهذا تكلفٌ بعيدٌ وركوب ضرورات كثيرة لا يلجأ إليها إلا عند العجز وضيق مجال الكلام وهذا ما يتنزَّه عنه كلام الله. ثم إنَّ الموجود هنا (لا) لا لامَ الابْتِداء، التي تحوَّلت بهذه الصناعة المُتَكَلَّفَة إلى (لأَنَا) ثُمَّ حُذِفَت (أَنَا)، وبقيت منها الهمزة التي لصقت بلام الابتداء فأعطتها هذه الصورة الزائفة !! وكلام الله تعالى مُنَزَّهٌ عن النقص، مُتَعال عن الوقوع تحت حكم الضرورة وإنَّ كلَّ حرفٍ منه لَيرجح الوجود كلــه كمالا، وجلالا.))[3]

وبعد أنْ انْتَهَى (الخطيب) من مُنَاقَشَةِ الآراء وتَفْنِيْدِها بما لا يدع مجالا للشكِّ في الأمر عنده، انْتَقل إلى تقرير الرأي الذي اختاره وإثباته، وهو أنَّ صيغة (لا أُقْسِمُ) هي صيغة نفي للقسم الوارد بعدها إذ قال: ((فما هي (لا) هذه ؟ وما مفهومها ؟ هي، والله أعلم، (لا) النافية وهي تجيء غالبًا في معرض القسم تنزيهًا للمُقْسَمِ به وإجلالا لِقَدْرِه أنْ يُقْسَمَ به على أمورٍ واضحةٍ بَيِّنَةٍ، لا تحتاج إلى سند يسندها من قسمٍ أو نحوه.

فالقسم عادة إنَّما يَرِدُ لإثبات أمرٍ من الأمور التي يستبعد المُخَاطب وقوعها أو لتقريــر حقيقةٍ من الحقائق وتوكيدها وإزالة الشبهة عنها عند المُقْسَمِ لـــه حتَّـــى يقبلهـــا ويطمـــئنَّ إليها))[4].

---

(١) الحديد: ٢٩

(٢) تفسير البيضاوي (٥/٢٩٢)، وينظر (٥/٣٨٤)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٧/٧٣٢)

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٧/٧٣٢ – ٧٣٦)

ومن المفسِّرين من يُرَجِّح رأيًا من الآراء المذكورة في صيغة (لا أُقْسِمُ) من غير أنْ يذكر سببًا لترجيحه هذا الرأي أو دليلا يدعم ترجيحه، وفي الوقت نفسه يرفض غيره من الآراء بذكر أسبابٍ ضعيفةٍ وغيرِ مقنعةٍ، كقول أبي السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[1]: (((فلا أُقْسِمُ) أي فَأُقْسِمُ، على أنَّ (لا) مزيدة للتأكيد، وأمَّا حمله على معنى نفي الإقسام لظهور الأمر واسْتغنائه عن التحقيق؛ فيردّه تعيين المُقْسَمِ به بقوله تعالى: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما مرَّ في سورة الواقعة، أي أقسم بالمشاهدات والمغيبات، وقيل بالدنيا والآخرة، وقيل بالأجسام...))[2].

إذا تأملنا كلام أبي السعود هذا نجده قد أطلق الحكم بزيادة (لا) للتأكيد وجعل المعنى أُقْسِمُ ولم يُعْنَ بشرح إشراقات معنى القسم في الآيات أو الاستدلال على صحة اختياره هذا الرأي، ولكنَّه عندما ردَّ معنى نفي القسم اعتلَّ لرأيه بتعيين المُقْسَمِ به، وهو قوله تعالى: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ولكنْ مَا المقصود بقوله تعيين المُقْسَمِ به؟ هل هو تعيين مُسَمَّى المُقْسَمِ به أو تعيين معناه؟ فإنْ كان المقصود تعيين مُسَمَّاه فهذا أَمْرٌ غير موجودٍ في الآية الكريمة لأنَّ الأشياء التي تُبْصَر لا تُعَدُّ ولا تُحصى، والتي لا تُبْصَر الله أعلم بها، وإنْ كان القصد تعيين المعنى، فالمعنى مفتوحٌ لا يحدُّه حدٌّ.

ومن المفسِّرين من وقع في الخَلط وعدم الدقَّة في نِسبة الآراء إلى أصحابها مثل السبحاني في تفسيره لسورة البلد، فبعد أنْ ذكر رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[3] وأنَّ المعنى في الآية قَسَمٌ بالبلد لاحتضانه أشرف بيوت الله، وأنَّ النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، ساكنٌ فيه، فزاده شرفا على شرف قال: ((ولكنْ ربَّما يُفَسَّر بالمُسْتَحَلِّ، أي مَنْ اسْتُحِلَّتْ حُرْمَتُهُ وهُتِكَتْ كرامته، وعند ذلك ينقلب معنى الآية إلى شيءٍ آخر ويكون معناها هنا: لا أُقْسِمُ بهذا البلد المُقَدَّس حَال أنَّك مَهْتُوك الحُرْمَةِ والكرامة... وقال الطبرسي: معناه لا أُقْسِمُ بهذا البلد وأنت حِلٌّ فيه مُنْتَهَكُ الحرمة مُسْتَبَاح العِرْضِ لا تُحْتَرَمُ، فلم يبقَ للبلد حرمة حيث هتكت حرمتك.))[4].

فالسبحاني، في هذا، نسب إلى الطبرسي رأيًا لم يكن الطبرسي آخذًا به أو مُتَبَنِّيًا إيَّاه، بل كان رأيه في الآية الكريمة على العكس من الرأي المنسوب إليه هنا، وهو أنَّ المعنى فيها قسمٌ بالبلد.

---

(١) الحاقة: ٣٨-٣٩

(٢) تفسير أبي السعود (٩/٢٧)

(٣) البلد : ١

(٤) مفاهيم القرآن (٩/٤٤٢)

أمَّا الكلام المنسوب إليه؛ فقد ذكره في تفسيره لسورة البلد، لكنْ على سبيل إيراد الآراء الأخرى وكان مسبوقًا بقوله (قيل) وليس على سبيل تَبَنّي الرأي، ونَصُّ الطبرسي يقول: ((أجمع المفسِّرون على أنَّ هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكَّة﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[1] أي وأنت يا محمَّد مُقِيم به وهو مَحَلُّك وهذا تنبيهٌ على شرف البلد بشرف من حَلَّ به... وقيل معناه: لا أُقْسِمُ بهذا البلد وأنت حِلٌّ فيه مُنْتَهَك الحرمة مُسْتَبَاح العرض لا تُحْتَرم، فلم يبقَ للبلد حُرْمَةٌ حيث هُتِكَتْ حُرْمَتُك...))[2].

ومن المفسِّرين مَنْ ادَّعَى وجود اتِّفاقٍ مزعومٍ على الرأي الذي رجَّحه، كابْن الجوزي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[3] إذ قال: ((قوله تعالى: (لا أُقْسِمُ) اتَّفقوا على أنَّ المعنى أُقْسِمُ واخْتَلَفُوا في (لا) فجعلها بعضهم زائدة... وجعلها بعضهم رَدًّا على منكري البعث ويدلُّ عليه أنَّه أَقْسَمَ على كون البعث... وقرأ ابْن كثير إلا ابْن فليح (لأُقْسِمُ) بغير ألف بعد اللام فجعلت لاما دخلت على (أُقْسِمُ)... قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، قال الحسن أَقْسَمَ بالأُولى ولم يُقْسِم بالثانية، وقال قتادة حكمها حكم الأُولى. وفي النفس اللوَّامة ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّها المذمومة... والثاني: أنَّها النفس المؤمنة... والثالث أنَّها جميع النفوس...))[4]

وهكذا صرَّح ابْن الجوزيّ باتِّفاق المفسِّرين على أنَّ المعنى (أُقْسِمُ) واخْتِلافِهِم في (لا)، غير أنَّه لم يذكر لنا المُتَّفِقِيْن، ولم يذكر دليلا على ما اتَّفقوا عليه من معنى (أُقْسِمُ) في الآية الكريمة بل إنَّه هو نفسه أورد لنا رأيًا معاكسًا يُفيد معنى (نفي القسم) عندما قال في نصِّه السابق (قال الحسن أَقْسَمَ بالأُولى ولم يُقْسِم بالثانية). فلط يوجد اتِّفاق على أنَّ معنى (لا أُقْسِمُ): أُقْسِمُ، هذا من جانب، ومن جانب آخر يفيد معنى قوله (اتَّفَقُوا) أنَّهم اجْتَمَعُوا وتحاوروا وتشاوروا ومن ثَمَّ استَطاعوا أنْ يتوصلوا إلى معنًى واحد واتفقوا عليه وكان الأحرى به أنْ يقول اتَّفَقَت آراء المفسِّرين أو أقوالهم على أنَّ معنى (لا أُقْسِمُ) هو أُقْسِمُ. هذا فضلا عن أنَّه لم يَذْكر لنا الأمر الأهمّ وهو الرابط بين القسم بيوم القيامة وإتباعه بالقسم بالنفس اللوَّامة، ولِمَ أقسم الله جلَّ جلاله بهما، وما علاقة القسم بما تلاه من آيات؟

ومن المفسِّرين مَنْ جَوَّز في (لا) رأيين ما دام معنى القسم بعدهما قائمًا، وهو بذلك يُلْغِي أثر (لا) في الآية الكريمة ويُسلِّط الأضواء على معنى القسم بعدها فقط، كالطبرسي في

---

(١) البلد : ٢

(٢) مجمع البيان (٥/ ٤٩٣)

(٣) القيامة : ١-٢

(٤) زاد المسير (٨/٤١٥ – ٤١٦)

تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[1] إذ قال: ((و(لا) زائدة والمعنى فَأُقْسِمُ عن سعيد بن جبير، ويجوز أنْ تكون (لا) ردًا لما يقوله الكفَّار في القرآن من أنَّه سحرٌ وشعرٌ وكهانةٌ ثم اسْتَأْنف القسم فقال: أُقْسِمُ.))[2]

وقد سار كثيرٌ مِن المفسِّرين على هذا النهج في تفسير الآيات التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)[3].

---

(١) الواقعة: ٧٥

(٢) مجمع البيان (٥/٢٢٥-٢٢٦)

(٣) ينظر تفسير الطبري (٢٧/٣٠٣-٣٠٤، ٢٩/٦٥-٦٦، ١٧٢-١٧٥)، تفسير الماوردي (٤/٢٩٩)، الكشاف (٤/٥٨)، المحرر الوجيز(٥/٤٥٨)، تفسير القرطبي (١٧/١٩٤، ١٨/٢٧٥، ١٩/٩١-٩٣، ٢٠/٥٩-٦١)، تفسير النسفي (٤/٢١٢، ٢٩٩)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢٩/١٠٤)، البحر المحيط (٨/٢١٣، ٣٣٦، ٣٨٤، ٤٧٤-٤٧٥)، تفسير أبي السعود(٨/١٩٩، ٩/٦٤)، تفسير شبر(٥٣٦، ٥٦٦)، فتح القدير(٥/١٥٩-١٦٠، ٢٨٦، ٣٣٥، ٣٩٠-٣٩١، ٤٠٧-٤٠٨، ٤٤٢-٤٤٦)، روح المعاني (٢٧/١٥٢-١٥٣، ٢٩/١٣٥-١٣٧)، حاشية الشهاب (٨/٢٨٠، ٣٦١-٣٦٢)، فتح البيان (١٠/٥٦، ١٤٨-١٤٩)، الميزان (١٩/١٥٥، ٢٠/١٨٨)، الجديد (٧/٩٥-٩٦، ٣٧١-٣٧٢)، التحرير والتنوير (٢٩/١٤١، ٣٣٨)، الأمثل في كتاب الله المنزل (٢٠/٦١-٦٢، ١٩٢)

المَطْلَبُ الخَامِسُ:
أَقْوَالُ المُفَسِّرِيْنَ الذِيْنَ قَالُوا بِمَعْنَى النَّفْي.

وَجَّه المُفَسِّرُوْنَ هَذَا المَعْنَى بِاتِّجَاهَيْن:

الاتجاه الأوَّل:ــ تأييد معنى النفي لكلامٍ سابق: أي نفي ما ورد من كلام قبل (لا) وليس القسم المباشر بعدها، وفي هذا الاتِّجاه قد تكون (لا) نفيًا لكلامٍ سابقٍ لهـا أو مقـدَّرٍ يوضِّحُهُ معنى الآيات في السورة وجوّهَا العام، وفي كلتا الحالتين لا نجد ربطًا واضحًا لمعنى (لا) من حيث كونها نفيًا لكلامٍ سابقٍ أو مقدَّرٍ مع القسم بعدها والمعاني الوارده في السورة الكريمة التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)، من ذلك قول الطبريّ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[1] ((يقول، تعالى ذكره، فلا مَا الأمر كما تقولون معشر أهل التكذيب بكتاب الله ورسله (أُقْسِمُ بالأشياء كلِّها التي تُبْصِرون منها والتي لا تُبْصِـرون منها).))[2].

أمَّا البغويّ في تفسيره للآية نفسها، فلم يُحَدِّد قول المشركين الذي رُدَّ عليـه بـــ(لا) فقال: (((لا) رَدٌّ لكلامِ المشركين كأنَّه قيل ليس الأمر كما يقـول المشـركون أُقْسِـمُ بمـا تُبْصِرون وما لا تُبْصِرون أي بما تَرَون وما لا تَرَون، قال قتادة: أُقْسِمُ بالأشياء كلِّها فيـدخل فيه جميع المكونات والموجودات...))[3].

فبعد قراءة هذا النصّ، للقارئ أنْ يتوقَّع ويتخيَّل قول المشركين الذي نفاه الله بقوله (لا) ثم أَقْسَمَ، جلَّ جلاله، (بما تُبْصِرُون وما لا تُبْصِرُون) لأنَّ المفسِّر لم يذكره، ولم يذكر الصلة بين هذا الأمر والقسم الوارد في الآية الكريمة ولم يَتَكَلَّم على أثر ذلك في الآيات بعده.

وقد ذهب بعض المفسِّرين إلى أكثر من ذلك فوسَّع باب الاحتمالات كما فعل السبحاني في تفسير الآية نفسها حين قال: ((إنَّ قوله (لا) ردٌّ لكلامٍ مسبوقٍ أو مقدَّرٍ، ثُمَّ يُبْتَدَأُ بقولـه

---

(١) الحاقة : ٣٨- ٣٩

(٢) تفسير الطبري (٦٥/٢٩- ٦٦)

(٣) تفسير البغوي (٣٩٠/٤)، وينظر زاد المسير (٣٥٤/٨)

أُقْسِمُ...))[1] فـ(لا) في رأي السبحاني إمَّا ردّ لكلامٍ مسبوقٍ ولم يحدِّده، أو ردّ لكلامٍ مقدَّرٍ ولم يذكره.

ومن المفسِّرين من قَدَّر المُقْسَم عليه الذي نفي بـ(لا) بما ليس له صلة بالآيات الواردة في السورة، نحو قول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾[2] ((أي الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقا ومغربا وسخَّر الكواكب تبدو في مشارقها وتغيب في مغاربها وتقديرالكلام ليس الأمر كما يزعمون أنْ لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور بل كلّ ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بـ(لا) في ابتداء القسم ليدلَّ على أنَّ المُقْسَمَ عليه نفي وهو مضمون الكلام وهو الردّ على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى مَا هو أبلغ من إقامة القيامة وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيهما من المخلوقات.))[3].

وسيأتي الكلام على هذه الآية الكريمة وما يتعلَّق بها من الآيات في باب أغراض نفي القسم، إنْ شاء الله تعالى.

الاتجاه الثاني: تَأْيِيد مَعَنى نَفْي القَسَمِ: أي أنَّ (لا) في صيغةِ (لا أُقْسِمُ) هي نفي لفعل القسم الوارد بعدها، وقد ورد هذا المعنى في معظم التفاسير على أنَّه رأي من الآراء المذكورة في معنى (لا أُقْسِمُ)، ولكنَّني في هذا النوع جمعت الأقوال في المواضع المختلفة التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) على أَنَّهَا نفيٌ للقسم وأنَّ (لا) نافية لا غير.

من ذلك قول شهاب الدين الهائِم المصريّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[4] (((وأنت حِلٌّ) أي حَالٌّ ساكنٌ أي لا أُقْسِمُ به بعد خروجه منه. (كَبَد) الكَبَد الشِّدَّة والمُكَابَدة لأُمور الدنيا والآخرة.))[5].

أمَّا سيِّد قطب، وهو مِن المفسِّرين المُحْدَثِين؛ فَقَد أَعْطَى إشراقات لمعنى نفي القسم في الآيات التي وردت فيها صيغة(لا أُقْسِمُ) بصورة ما كانت لِتَتِمَّ في عصورٍ سابقةٍ، لأنَّه عاش في زمنٍ تطوَّر العلم فيه وازْدَهر وظهر للإنسان كثيرٌ ممَّا كان غامضًا أو غيرَ معلومٍ، ولذا نجده في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ

---

(١) مفاهيم القرآن (٣٩٣/٩)

(٢) المعارج : ٤٠

(٣) تفسير ابن كثير : (٤٢٤/٤)

(٤) البلد : ١

(٥) التبيان في تفسير غريب القرآن (٤٦٣)

لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[1] قد استُعان بما اكْتُشِفَ بعد تطوُّر العلم وتقنيات البحث بما يُثْبِتُ معنى نفي القسم في الآية الكريمة فقال: ((لم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل الذي يُدركونه بعيونهم المجرَّدة. ومن ثَمَّ قال لهم:﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. فأمَّا نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمُقْسَمِ به نصيبًا أكبر بكثيرٍ ممَّا كانوا يعلمون، وإنْ كنَّا نحن لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم وهذا القليل الذي وَصَلْنَا إليه بمراصِدِنا الصغيرة، المحدودة المناظيْر، يقول لنا: إنَّ مجموعةً واحدةً من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودًا، مجموعة واحدة هي المجرَّة التي تُنسب اليها أُسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم ! ويقول الفلكيون إنَّ مِنْ هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدَّة بلايين نجم، ما يُمْكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يُرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أنْ تَحسّ به الأجهزة دون أنْ تراه هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أيُّ احتمالٍ أنْ يقترب مجالٌ مغناطيسي لنجم من مجالِ نجمٍ آخر، أو يصطدم بكوكبٍ آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتْجاهٍ واحدٍ وبسرعةٍ واحدةٍ، وهو احتمالٌ بعيدٌ، وبعيدٌ جدًا إنْ لَمْ يَكُن مُسْتَحِيْلا[2]... وكلُّ نجمٍ في موقعه المُتباعد عن موقع إخوته، قد وُضِعَ هناك بحكمةٍ وتقديرٍ، وهو منسَّق في آثاره وتأثُّراته مع سائر النجوم والكواكب لتتوازن هذه الخلائق كلّها في هذا الفضاء الهائل.

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم، وهو أكبر كثيرًا جدًا ممَّا كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أوَّل مرَّة. وهو في الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكليَّة لعظمة مواقع النجوم.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ فالأمر أوضح وأجلى من أنْ يحتاج إلى قسم. ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وهذا التلويح بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير في تقرير الحقيقة التي لا تحتاج إلى القسم لأنَّها ثابتةٌ واضحةٌ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[3]))[4]

وقد سار محمَّد تقي المدرسي على النهج نفسه في إدخال المعارف والنتائج الجديدة في تفسير الآية الكريمة وزاد: ((وإنَّما يُدرك عظمة قسم الله بمواقع النجوم الذي يطَّلع على

---

(١) الواقعة : ٧٥ – ٧٧

(٢) ينظر القرآن وإعجازه العلمي (٦٢)

(٣) الواقعة: ٧٧- ٨٠

(٤) في ظلال القرآن (١٤٣/٢٧-١٤٤)

مثل هذه الحقائق، أمَّا الذي يجهلها فإنَّ القسم بها عنده، ليس ذا أهمية ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فكلَّما تقدَّم الإنسان خطوةً في العلم كلَّما ظهرت وتأكَّدت له عظمة هذا القسم... ونخلص إلى القول بأنَّ عدم قسمه مباشرةً بها يعود إلى أمرين رئيسين:
أحدهما: إنَّ القسم بشيءٍ يحقِّق غرضه حينما تكون عظمته معروفة عند الطرف المقابل.
والآخر: إنَّ الناس في الجاهلية كانوا يعتقدون في النجوم ومواقعها بالخرافات والشرك فلم يُقسم الله بها كي لا تَتَعَمَّق اعتقاداتهم الباطلة.))[1].

إنَّ أهمَّ ما ينماز به تفسير القائلين بمعنى (نفي القسم) في صيغة (لا أُقْسِمُ) الربط المميَّز بين الآيات التي تسبق نفي القسم والآيات التي تليها، وتسخير ذلك كلّه بما يخدم المعنى ويؤكده.

ففي تفسير المدرسي لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[2] نجد هذا الأمر واضحًا جليًا ومقنعًا في الوقت نفسه إذ قال: ((والتَّمهيد لأيِّ حديث بالقسم أو بالإشارة للقسم يؤكِّد أهميَّته وعِظَمَ شأنه، وإذ لا يقسم الله فذلك يدلُّ على أنَّ ما يريد قوله وبيانه غاية في الوضوح، بحيث لا يحتاج لإقناع الآخرين به إلى القسم، ولكنَّه في الأثناء يلفتنا إلى حقيقة علميَّة واقعيَّة وهي أنَّ الحياة لا تتلخَّص في ما يراه الإنسان ببصره بل لها جانبان: جانبٌ ظاهرٌ يحضر عنده بحواسِّه الماديِّة، وآخر خفيٌّ مغيَّبٌ يحتاج إلى العلم والبصيرة النافذة لكي يشاهده، وكأنَّه بذلك يستَحِثُّنَا نحو توسيع معارِفِنَا والتطلُّع إلى الوجه الآخر في الحياة، فهل نكفر بوجود الميكروبات والفيروسات لأنَّنا لا نراها بأعيننا؟ كلا لأنَّ ذلك لا يُغَيِّر من الواقع شيئًا فهي موجودةٌ رغم ذلك، وهكذا فإنَّ من يكفر بالآخرة لأنَّه لا يراها بعينه فإنَّه من الخاطئين، ومن هذه الزاوية يوصل القرآن الآيتين الآنفتين بتأكيده على أنَّ الرسالة ليست من بنات أفكار النَّبي، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، إنَّما هي متَّصِلة بالغيب حيث جبريل الأمين يتنَزَّل بمفرداتها كلمة كلمة وبحروفها حرفا حرفا، بل وبحركاتها دون نقيصةٍ أو تغيير، فإنَّ للرسالة جانبين: ظاهرٌ يتمثَّل في القرآن الذي يبصره الناس بأعينهم وتدركه حواسُّهم وغيبٌ لا يُبْصِرونه ولا يُدْرِكونه ولا ينبغي لهم ذلك وهو جبرائيل الواسطة بين المُرْسَل والرسُول.))[3]

ومِنَ المُفَسِّرِيْنَ مَنْ جَعَلَ في نفي القسمِ تنزيهًا لله عن أنْ يُقْسِمَ على أمرٍ لا يستدعي القسم عليه، نحو قول عبد الكريم الخطيب في تفسير قوله تعالى:﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ

---

(١) من هدى القرآن (٤٥٢/١٤ – ٤٥٤)
(٢) الحاقة: ٣٨ – ٣٩
(٣) من هدي القرآن (٣١٣/١٦-٣١٦)

وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾[1] (((لا) في قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ للنَّفي أي نفي القسم بِربِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ تَنْزِيْهًا لله، سبحانه وتعالى، عن أنْ يُقْسِمِ به على أمرٍ لا يحتاج إلى قسمٍ لظهوره ظهورًا يكاد في عداد البدهيات، وهو أنَّ الله سبحانه قادرٌ على أنْ يُذْهب بهؤلاء المشركين ويَقْطع دابرهم، ثُمَّ يأتي بِمَنْ هم خير منهم وعيًا، وإدراكًا، واستقامةً على طريق الهدى.. كما يُشِير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ*وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[2].))[3].

وقد ورد معنى نفي القسم في التفاسير في كلِّ المواضع التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)[4].

(١) المعارج : ٤٠

(٢) إبراهيم: ١٩ –٢٠

(٣) التفسير القرآني للقرآن (١١٩٠/٨)

(٤) ينظر تفسير القمي (٤٤٢/٢)، تفسير فرات الكوفي (٥٧٧)، الكشاف (١٨٩/٤ – ١٩٠)، تفسير الرازي (٢١٤/٣٠–٢١٥)، تفسير البيضاوي (٢٩٢/٥ ، ٣٨٤)، في ظلال القرآن (٨٦/٢٩، ١١٣ – ١١٤ ، ٢٠٥ ، ٦٦/٣٠ ، ١٠٤ – ١٠٥)، التفسير الواضح (١٠٢/٢٩، ٢٠/٣٠)، تقريب القرآن (١٢٥/٢٧ ، ٨٢/٢٩ ، ١٤٩ ، ٣٠ / ٦٠ – ٦١ ، ٩١ – ٩٢)، التفسير لكتاب الله المنير (١١٠/٨ ، ١٤٧)، التفسير القرآني للقرآن (١١٤٨/٨ – ١١٤٩ ، ١٣١٢ – ١٣١٣، ١٤٧٢، ١٥٦٦)، من هدي القرآن (٣٨١/١٦ – ٣٨٢ ، ٣٦٧/١٧ – ٣٦٨ ، ٤٤٩ – ٤٥٢ ، ١١٦/١٨– ١١٧)، تفسير الشربيني (٣٧٨/٤)، من وحي القرآن (٩٤/٢٣– ٩٥، ١٢٣– ١٢٤ ، ٢٦١ – ٢٦٢ ، ١٠٦/٢٤– ١٠٧ ، ١٧٥– ١٧٧).

المَطْلَبُ السَّادِسُ:
أَقْوالُ المُفَسِّرِيْنَ الذِيْنَ تَأَرْجَحُوا وَتَنَقَّلُوا بَيْنَ المَعَانِيْ فَذَكَرُوا فِيْ كُلِّ مَوْضِعٍ مَعْنًى يَخْتَلِفُ عَنْ الآخَرِ

أختم هذا المبحث بمطلبٍ أُسَلِّطُ الضوء فيه على عددٍ من المفسِّرين وجدت في أقـــوالهم جمعًا للاضطراب والتناقض في الأسلوب وتقليب المعاني، وهذا ما دفعني إلى البحـــث فـــي موضوع نفي القسم لأنَّهم تنقَّلُوا بين المعاني الواردة من صيغة (لا أُقْسِمُ) التي أوردتها فـــي المباحث السابقة. فنجدهم قد ذكروا رأيًا في أحد مواضع ورود (لا أُقْسِمُ) وأوردوا في موضعٍ آخر رأيًا آخرَ يختلف عن الأوَّل من غير مُسَوِّغٍ يدعم تَنَقُّلَهُم بين المعاني.

لقد تأرجحت آراؤهم واختلطت الأمور لديهم إلى حدٍّ يدفع القـــارئ إلـــى الاضـــطراب والتردُّد والحيرة.

وممن ظهر في تفسيره آيات نفي القسم هذا التردُّد، وتلك الحيرة في الوصـــول إلـــى المعنى، البغوي ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[1] عـــدَّدَ الآراء التـــي قيلت في (لا) من غيْرِ أنْ يُرَجِّحَ رأيًا منها، قال: ((قال أكثر المفسِّرين معناه أُقْسِمُ و(لا) صلة وكان عيسى بن عمر يقرأ (فَلَأُقْسِمُ) على التحقيق وقيل قوله (لا) ردٌّ لما قاله الكفَّـــار فـــي القرآن إنَّه سحرٌ وشعرٌ وكهانةٌ معناه ليس الأمر كما يقولون ثُمَّ اسْتَأْنف القسم.))[2] وفَعَـــلَ الأمر نفسه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[3][4].

أمَّا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[5]؛ فقد أعطى رأيًـــا واحدًا محددًا في (لا) حين قال: ((﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ (لا) ردٌّ لكلام المشركين كأنَّه قال ليس كمـــا يقـــول المشركون أُقْسِمُ بما تُبْصِرُون، وما لا تُبْصِرُون))[6].

وآثر البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[1] ألا يبـــدأ بتفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمِ﴾ بل بدأ بما بعده، فقـــال: ((﴿فَلَـــا أُقْسِـــمُ بِـــرَبِّ الْمَشَـــارِقِ

---

(١) الواقعة: ٧٥

(٢) تفسير البغوي (٤/٢٩٨)، وينظر زاد المسير (٨/١٥٠-١٥١)

(٣) القيامة: ١-٢

(٤) ينظر تفسير البغوي (٤/٤٢٠-٤٢١)، زاد المسير (٨/٤١٥-٤١٦)

(٥) الحاقة: ٣٨-٣٩

(٦) تفسير البغوي (٤/٣٩٠)، وينظر زاد المسير (٨/٣٥٤)

وَالْمَغَارِبِ﴾ يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه.))[٢]، وفعل الأمر نفسه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾[٣][٤]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾[٥] أعطى لـ(لا) معنًى واحدًا يختلف عمَّا ذكره في سورة الحاقة، إذ قال: ((و(لا) زائدة معناه أُقْسِمُ بالخُنَّسِ))[٦].

أمَّا في سورة البلد[٧]؛ فقد ذهب إلى أنَّ المعنى (أُقْسِمُ) من غير تحديد هويَّة (لا) فقال: (((لا أُقْسِمُ) يعني (أُقْسِمُ)، (بهذا البلد) يعني مكَّة.))[٨]

وعلى مثل هذا الأسلوب سار الطبريّ وابن كثير في تفسير الآيات التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)، فالطبريّ مثلا قد يسرد الآراء التي قيلت في (لا أقسم) من غير أنْ يُرَجِّح رأيًا، أو قد يُقَرِّر أنَّ (لا) ردٌّ لكلامٍ سابق، أو يقول: إنَّ المعنى (أُقْسِمُ) مُتجاهِلا معنى (لا)، أو يتجاهل الصيغة مُتَجَاوزا تفسيرها[٩]

أمَّا ابْنُ كثير، فَيُقَرِّرُ في موضعٍ، أنَّ (لا) زائدةٌ وفي موضعٍ آخر، يقول: إنَّ (لا) ردٌّ لكلامٍ سابقٍ وفي غيرهما، يتجاهل تفسير صيغة (لا أُقْسِمُ)[١٠].

ومن المفسِّرين من لَمْ يَكْتَفِ بالتَّنَقُّل بين معاني (لا) التي لا تُؤَثِّر في معنى ما بعدها، بل تجاوز هذا الأمر إلى ذكر معانٍ متناقضةٍ في صيغة (لا أُقْسِمُ) فتراه في موضعٍ مِنْ مواضعها يقول بزيادة (لا) والمعنى بعدها(قَسَم)، وفي موضعٍ آخر يقول بكونها نافيةً، أي نفي القسم الوارد بعدها، مما يُظْهِر اضطراب المفسِّر وعدم تمكُّنه من حسم الأمر، والتوصُّل إلى معنًى ثابتٍ ومستقرٍ.

وممَّن وقع في هذا التناقض الزمخشري، ففي تفسيره قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[١١] بيَّن في بداية كلامه أنَّ (لا) زائدة مؤكدة، وفنَّد قراءة (لأُقْسِمُ) بقوله: ((﴿فَلَا

(١) المعارج :٤٠

(٢) تفسير البغوي (٣٩٦/٤)، وينظر زاد المسير (٣٦٦/٨)

(٣) الانشقاق: ١٦

(٤) ينظر تفسير البغوي (٤٦٤/٤-٤٦٥)، زاد المسير (٦٦/٩)

(٥) التكوير : ١٥-١٦

(٦) تفسير البغوي (٤٥٣/٣)، وينظر زاد المسير (٤١/٩-٤٢)

(٧) البلد: ١

(٨) تفسير البغوي (٤٨٨/٤)

(٩) ينظر تفسير الطبري (٣٠٣/٢٧-٣٠٤)، (٦٥/٢٩-٦٦، ١٧٢-١٧٣)، (١١٩/٣٠-١٢٥)، (٨٧/٢٩-٨٨، ٧٣/٣٠-٧٩)

(١٠) ينظر تفسير ابن كثير (٢٩٨/٤ ،٤٤٨-٤٤٩)، (٤٢٤/٤، ٥١٢)، (٤١٨/٤ ، ٤٧٩ ، ٤٩٠)

(١١) الواقعة: ٧٥

أُقْسِمُ﴾ معناه فأُقْسِمُ و(لا) مزيدة مُؤكِّدَة مثلها في قوله تعالى: ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْـلُ الْكِتَـابِ﴾[1] وقرأ الحسن (فلأُقْسِمُ) ومعناه فلأَنَا أُقْسِمُ...))[2]. وذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[3] أنَّ المعنى (قَسَمٌ) من غير أنْ يُفَسِّر (لا) ويُبَيِّنُ حقيقتهـا، إذ قال: ((هو إقسام بالأشياء كلِّها على الشمول والإحاطة لأنَّها لا تخرج من قسمين، مُبْصَر وغير مُبْصَر...))[4].

أمَّا مواضع نفي القسم في سور المعارج والتكوير والانْشقاق، فقد تجاهل صـيغة (لا أُقْسِمُ) في هذه السور، وانْتَقَل إلى تفسير ما بعدها[5].

ونجده في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[6] قد تَبَنَّـى رأيًا في (لا) يُنَاقِضُ رَأْيَه في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، فبعد أنْ ذكر ما قيـل في زيادة (لا) والاعتراض عليه قال: ((والوجه أنْ يُقال هي للنفي، والمعنى في ذلك: أنَّه لا يُقْسِمُ بالشيء إلا إعظامًا له، يَدُلُّك عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[7] فكأنَّه بإدخَال حرفِ النَّفي يقول: إنَّ إعظامي له بإقسامي به كلا إعظـام، يعني أنَّه يستأهل فوق ذلك.))[8]

وممَّن وقع في تناقض المعاني في تفسير الآيات التي وردت فيها صـيغة (لا أُقْسِـمُ)، البيضاوي، والشربيني، والكرمي، قال البيضاوي في معنى (لا أُقْسِمُ) في سـورتي الواقعـة والحاقَّة: إنَّها نفيٌ للقسم لظهور الأمر، ثم عاد ليرجِّح معنى زيادة (لا) فـي (لا أُقْسِـمُ) وأنَّ المعنى بعدها قَسَم[9] في سورتي القيامة والبلد. وأكَّد الشربيني أنَّ المعنى في (لا أُقْسِمُ) قَسَم قَسَم و(لا) زائدة في سورتي المعارج والتكوير، أمَّا في سورة الحاقَّة فقد أكَّد أنَّ معنـى (لا أُقْسِمُ) نفيٌ للقسم[10]. وذهب الكرميّ إلى أنَّ (لا أُقْسِمُ) الواردة في سورة الحاقَّة والمعـارج

(١) الحديد: ٢٩

(٢) الكشاف (٤/٥٨)

(٣) الحاقة: ٣٨-٣٩

(٤) الكشاف (٤/١٥٤)، وينظر (٤/٢٥٥)

(٥) ينظر الكشاف (٤/١٦٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠)

(٦) القيامة: ١-٢

(٧) الواقعة: ٧٥-٧٦

(٨) الكشاف (٤/١٨٩)

(٩) ينظر تفسير البيضاوي (٥/٢٩٢، ٣٨٤)، (٤/٤٤٨)، (٥/٤٩٢)

(١٠) ينظر تفسير الشربيني (٤/٣٨٧، ٤٣٨)، (٤/٣٧٧)

والقيامة نافية للقسم، أمَّا في سورة التكوير، فذهب إلى أنَّ معنى (لا أُقْسِمُ) قَسَمٌ، ولم يفسِّر قوله تعالى: (لا أُقْسِمُ) في سورتي الانْشقاق والبلد[1].

ويبدو لي أنَّ مِثْل هذا التأرجُح بين المعاني في تفسير صيغة (لا أُقْسِمُ) غير جائزٍ، لأنَّها صيغةٌ واحدةٌ ولابدَّ من تثبيت القول فيها في المواضع كلِّها. فالمفسِّرون في تردُّدهم وحيرتهم الظاهرة التي أدَّت بهم إلى اسْتعمال هذا الأسلوب كانوا يُبعدون القارئ عن أيِّ معنًى مستقرٍ للآيات التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)، ويَجْعَلُونه في حيرةٍ مِنْ أَمْرِه.

(١) ينظر التفسير لكتاب الله المنير (٨/١١٠، ١١٤-١١٥، ١٤٧)، (٨/١٩٧)، (٨/٢٠٦ ، ٢١٩)

المَبْحَثُ الثَانِي

دِرَاسَةُ الآرَاءِ التِي قِيْلَت فِي صِيْغَةِ (لا أُقْسِمُ)

في هذه الصيغة، سأُجْمِل في هذا المبحث الآراء بمعزلٍ عن قائليها لمناقشتها بتجــرُّدٍ مــع الإحالة على مواضع ورودها عند المفسِّر أو النحويِّ أو عالم اللغة، لأنَّ ذِكْرَ النصوص فــي المبحث الأوَّل يُغْنِيْنِي عن تكرارها في هذا المبْحَث.

الرَّأْيُ الأَوَّل
(لا أُقْسِمُ) بِمَعْنَى: أُقْسِمُ، و(لا) زَائِدَة لِلتَّوْكِيْدِ، أو صِلَةٌ فِيْ الكَلامِ وَوُجُودهَا كَعَدَمِهَا.

وقد استَدَلَّ أصحابُ هذا الرأي على زيادة (لا) افْتِرَاضِهِم أنَّها وردت في القُرآن الكَرِيم زائدة في مواضع عدَّة، ومِنْ أمثلة ما أوردوه:

قوله تعالى: ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[١]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٢]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٣]

واستَدَلُّوا على زيادة (لا) من الشعر بقول امْرِئ القيس[٤]

فَلَا وَأَبِيْكِ ابْنَةَ العَامِرِيّ ... لا يَدَّعِيْ القَوْمُ أَنِّيْ أَفِر

وهنا يُطْرَحُ سؤال، يكاد يفرض نفسه، هو: هل هناك زيادة في القرآن الكريم، وهل هي مقبولة أو مرفوضة ؟

والقول بها (أي الزيادة) ليس سهلا، لأنَّها تعني قلب المعاني بما تُحْدِث من اضطرابٍ وتغييرٍ في الدلالة، فالألفاظ قوالب المعاني، وتقرير زيادة لفظ أو عدم زيادته لا يمكن ربطه بالقواعد فقط، وإنَّما يجب أنْ يُبْنَى على أساس معاني الآيات وارتباط السابق منها باللاحق.

وما ذهب إليه النحاة القدامى من ترجيح جانب الإعراب والقواعد النحويَّة على جانب المعنى دفع عددًا من المُحْدَثِيْن إلى عَدَمِ التسليم بما ذهبوا إليه، فالدكتور الجواري مثلا يقول: ((إنَّ الذي يُنْعِم النظر في كلام النحاة على حروف الجر يَتَبَيَّن أنَّهم معنيُّون بجانب الإعراب قبل كل شيء.. أمَّا جانب المعنى فأمره عندهم هيِّن. إذ يقع الحرف عندهم موقع حرف آخر، أو

---

(١) الحديد : ٢٩

(٢) الأعراف : ١٢

(٣) الأنعام : ١٥١

(٤) الديوان : ١٠٩

يُضَمَّن الفعل معنى فعلٍ قريبٍ من معناه، وهذا يدلُّ بوضوحٍ على تَجَاهُـلِ الجانـب اللغـوي وانْعِزَال قواعد النحو ومسائلِه عنه كأنَّه تركيبٌ مؤلَّفٌ من مفرداتٍ تجردت عـن مـدلولاتها اللغويَّة.))[1] وقال في موضع آخر: ((ولا عِبْرة في علوم اللغة بالركون إلى المنطق المجـرَّد لأنَّه كثيرًا ما يقود إلى البعد عن الواقع، ويأخذ في التدرُّج والتفَرُّع شيئًا فشيئًا حتى ينتهـي إلى أمورٍ غريبةٍ عن مادَّة البحث التي لابدَّ أنْ تكون هي الأساس في وضع القواعد))[2] .

ويقول مراجع عبد القادر بلقاسم الطلحيّ: ((لقد فهـم النحـاة القـدامى أنَّ العلاقـة الإعرابيَّة هي الفارق الوحيد بين المعاني النحويَّة المختلفة... وقد قال النحاة: إنَّ الإعـراب فرع المعنى، ومع أنَّ هذه العبارة تعني أنَّ الإعراب مُتَوَقِّفٌ على المعنى، وأنَّ المعنـى هـو الأساس في الإعراب وتحديده بعلامةٍ معيَّنةٍ، إلا أنَّ عبادة النحاة لظاهرة الإعراب وتفسـير النحو العربي على أساس علاماته وحدها، قد قلب هذا الوضع رأسا علـى عقـب فأصـبح المعنى فرع الإعراب، فالإعراب قد أصبح مُقَدَّمًا على المعنى))[3] .

فالاهتمام بجانب المعنى في كتاب الله العزيز أمرٌ مُقَدَّسٌ لأنَّ مفاهيم القـرآن مرتبطـةٌ بشكلٍ مباشرٍ بتكوين عقيدة المسلم، وهذا أمرٌ خطيرٌ يجب أنْ لا يُتَهَاوَن بالتعامل معه. ولـذا نجد الكثير من النحويين وعلماء اللغة والمفسِّرين لا يُجِيْزُون وقوع الزيـادة فـي القـرآن الكريم لأنَّه كلامُ الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تحدَّى الله، جلَّ جلاله، به أمَّة تعشق الكلام وتَتَفَنَّن به أنْ يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مِنْ مِثْلِه، فقال تعـالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ*فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَـارَةُ أُعِـدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[4].

و(شهداؤهم) هنا هم أعلم علماء اللغة عندهم، وأرباب صنعتها فيهم، والقرآن يتحدَّاهم بما لم ولن يقدروا عليه، فكلام الله إذن، فوق كلامهم، وعليه تُقاس لغتهم وتوجَّه ولا يمكن أنْ يُنعت كلام الله بما يُمكن أنْ يُنعت به أهمُّ كلامِهِم.

ولكي نكون على بيِّنَةٍ من الزيادة لابدَّ من معرفة معناها:

قال ابن فارس: ((الزاي والياء والدال أصلٌ يَدُلُّ عَلَى الفَضْلِ، يَقُوْلُـونَ: زَادَ الشَّـيْءُ يَزِيْدُ، فَهْوَ زَائِدٌ، وَهَؤُلاءِ قَوْمٌ زَيْدٌ عَلَى كَذَا، أَيْ يَزِيْدُوْنَ ..))[5] وقال الجوهريُّ: ((الزِّيَـادَةُ:

---

(١) نحو القران (٨٨)

(٢) نحو القرآن (٩١– ٩٢)

(٣) الجواز النحوي (٥٣٦ – ٥٣٧)

(٤) البقرة: ٢٣–٢٤

(٥) مقاييس اللغة (٣/٤٠)

النُّمُو))[1] وهذا يعني أنَّ ((الزِّيَادَة خِلاف النُّقْصَان، زَادَ الشَّيْءُ يَزِيْدُ زَيْدًا وَزِيْدًا وَزِيَادَةً زِيَادًا مَزِيْدًا مَزَادًا أَيْ ازْدَادَ))[2].

ونحن نلحظ هذا المعنى في الزيادة الصرفيَّة التي تَلحق الأسماء والأفعال. وحروف هذه الزيادة مجموعة في قولنا (سألتمونيها). وفي معنى الزيادة الصرفيَّة والغرض منها قال د.هاشم طه شلاش: ((ذكر الصرفيون أنَّ الزيادة هي إلحاق الكلمة ما ليس فيها وأشاروا إلى أنَّ أغراض هذه الزيادة هي:

١ـ إفادة معنى، والقصد من ذلك الحصول على معنًى جديدٍ لم نحصل عليه من المجرَّد، ولذلك كانت الزيادة عاملا مهمًا في نماء اللغة العربية وتكوين ثروةٍ لغويةٍ أوجدتها الحاجة.

٢ـ لضربٍ من التوسُّع، وذلك أنْ يكون الغرض من الزيادة لتكثير الكلمة فتلحق بالرباعيّ لا لإفادة معنى على سبيل التوسُّع في اللغة، أي أنَّ الغرض من الزيادة لفظيٌّ بحت.

٣ـ زيادة بناء فقط لا يُراد بها شيء ممَّا تقدَّم، وقد رفض بعض اللغويين ذلك ورأى أنَّ هذا النوع من الزيادة يفيد التأكيد والمبالغة، أمَّا قولهم: إنَّ (أقال) بمعنى(قال) فذلك منهم تسامح في العبارة))[3]. ومن عادة العرب ((أن تزيد في بناء الاسْم ليشعر بزيادة المعنى الدالِّ عليه))[4] .

إلا أنَّنا إذا تحوَّلنا إلى الزيادة النحويَّة نجد معنًى مختلفًا للزيادة، وهو عكس معنى النمو: قال سيبويه:((و(لا) لغوٌ في كلامهم، ألا ترى أنَّك تقول: خِفْتُ أنْ لا تَقُولَ ذَاكَ. وَتَجْرِيْ مجْرَى خِفْتُ أنْ تَقُوْلَ. وتقول: إنْ لا يَقُلْ أَقُلْ، فـ(لا) لغوٌ))[5]. وقال ابن يعيش: ((نعني بالزائد أنْ يكون دُخُوله كخروجه من غير إحداث معنى))[6] .

من النحويين من يسمِّي الزيادة صلةً أو حشوًا أو إقحامًا أو لغوًا أو شذوذًا: قال ابْن يعيش: ((والصِّلَة والحشو من عبارات الكوفيين، والزيادة والإلغاء من عبارات البصريين))[7] .

ومن النحويين من يستعمل لفظة (شذوذ) في الزيادة الواقعة في حروف المعاني في القرآن الكريم، كقول ابْن الحاجب عن (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[1]

---

(١) الصحاح، (زيد)، (٤٨١/٢)، وينظر مختار الصحاح (٢٧٩)، لسان العرب، (زيد)، (١٩٨/٣)

(٢) لسان العرب، (زيد) (١٩٨/٣)

(٣) أوزان الفعل ومعانيها (٥١- ٥٢)

(٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (٣/ ٢٨)

(٥) الكتاب (٧٧/٣)

(٦) شرح المفصل (١٢٨/٨)

(٧) شرح المفصل (١٢٨/٨)، وينظر التأويل النحوي في القرآن (١٢٧٩/٢)

((وشذَّت في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وشبهه))[٢].

ومع أنَّ أبا الحسن الجرجاني يقول: ((الشاذ: ما يكون مخالفا للقياس من غير نظرٍ إلى قلة وجوده وكثرته))[٣]. إلا أنَّ هذا اللفظ ثقيلٌ إذا ما استعمل في كلام الله تعالى، ولذلك نجد الجاحظ يرفض أنْ يكون في كلام الله شذوذٌ وما يستغنى عنه[٤].

وجاء لفظ (لغو) كذلك على لسان عدد من النحويين، وهم يتحدثون عن كلام الله تعالى، فهذا سيبويه يقول: ((وتقول: لا مَنْ يَأْتِكَ تُعْطِه ولا مَنْ يُعْطِكَ تَأْتِه، مِنْ قِبَلِ أَنَّ (لا) لَيْسَتْ كَإِذْ وَأَشْبَاهِهَا، وذلك لأَنَّها لَغْوٌ بمنزلة (مَا) في قوله عزَّ وَجَلَّ:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[٥]))[٦].

وإذا علمنا أنَّ اللغو: ((ضمُّ الكلام ما هو ساقط العبرة منه وهو الذي لا معنى له في حق ثبوت الحكم))[٧] أدركنا أنَّ من غير اللائق استِعمال هذا اللفظ لوصف كلمةٍ أو حرفٍ في كتاب الله، جلَّ جلاله، ويؤكِّد لنا ذلك الاستِعمال القرآنيُّ للكلمة، فقد وردت في عدة مواضع في القرآن الكريم، لم تكن في واحدةٍ منها صفةً محمودةً، وإنَّما كانت في كلِّ مواضع ورودها صفةً ذميمةً ترفّع الله بالمؤمنين الصادقين عن الاتّصاف بها، فكيف نتجرَّأ على وصف كلام الله جلَّ جلاله بهذه الصفة؟.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاما﴾[١٠]، وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[١١]، وقال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[١٢].

---

(١) الواقعة : ٧٥
(٢) الإيضاح في شرح المفصل (٢/٢٢٩)
(٣) التعريفات (٧٢)
(٤) ينظر إعراب القرآن المنسوب للزجاج (١/١٣٤)
(٥) آل عمران : ١٥٩
(٦) الكتاب (٣/٧٦)
(٧) التعريفات (١٠٨)
(٨) المؤمنون : ١-٣
(٩) القصص : ٥٥
(١٠) الفرقان : ٧٢
(١١) البقرة : ٢٢٥
(١٢) الطور : ٢٣

أمَّا لفظ (الحشو)؛ فيعبَّر به عمَّا لا فائدة فيه، قال عبد القاهر: ((وأمَّا الحشو فإنَّما كُرِهَ وذُمَّ وأُنْكِرَ ورُدَّ لأنَّه خَلا مِنَ الفَائِدَةِ ولَمْ يَحُلْ منه بعَائِدَة، ولَو أَفَادَ لم يَكُنْ حَشْوًا ولـم يُـدْعَ لَغْوًا))[1]، وقال أسامة بن منقذ: ((الحَشْو أنْ تَأْتِي في الكـلامِ بِأَلْفَـاظٍ زَائِـدَةٍ لَـيْسَ فيهـا فَائِدَة))[2]. ولذا ذهب صاحب التعريفات إلى أنَّ الحشوَ في اللغة ((ما يُمْلأُ به الوسادة، وفـي الاصْطِلاح عبارة عن الزائد الذي لا طائل تحته))[3].

ومع ما ذكرته من معانٍ لهذه الألفاظ وما فيها من تجاوزٍ نجد د.عبد الفتَّـاح الحمُّـوز يقول: ((وقد تجنَّب كثيرٌ من النحويين والمفسِّرين إطلاق لفظ الزيادة على ما في التنزيل من هذه المسألة تأدُّبًا، ومن الألفاظ التي تدور في مؤلفاتهم بالإضافة إلى لفـظ الزيـادة عنـد بعضهم: الإقحام، الصلة، التوكيد، والإلغاء والحشو))[4].

ويبدو لي أنَّ هذه الألفاظ التي استُعملت في هذا المجال أكثر سوءًا من لفـظ الزيـادة، ويجب أن يُنَزَّه القرآن الكريم عن أنْ يُوصَف لفظٌ من ألفاظه بها، فهي ألفاظٌ لا تليق بقـدر الله، تبارك وتعالى، وكلامه الجليل.

والنحاة إذا قالوا: إنَّ الحرف زائدٌ، فإنَّهم يَعْنُون به شيئين: جواز حذفـه مـن غيـر اخْتِلاف المعنى، وأنَّ تأثيره الإعرابيّ مُنْعدمٌ على وجه العموم، وإنْ لم يصح أصـل المعنـى بإسقاطه كما في (غضبت من لا شيء).[5]

وهذا المعنى المقصود من الزيادة هو ما رفضه كثير من العلماء والنحويين والبلاغيين والمفسِّرين، وقد تعدَّدت أسباب رفضهم إيَّاه، وسأوضحها بذكر طرف من أقوالهم على النحو الأتي:

١ــ نُسِبَ إلى الجاحظ قوله: ((الأَوْلَى ألا يكون في كـلام الله شـذوذٌ ومـا يُسْـتَغنى عنه))[6]. فالجاحظ يرفض وجود زيادة في القرآن الكريم، أو ما يكون وجوده وعدمه سواء. سواء.

٢ــ قال الطبري: ((غير جائز أنْ يكون في كتاب الله شيءٌ لا معنى له، وإنَّ لكلِّ كلمةٍ معنًى صحيحًا، فتبيَّن بذلك فساد قول من قال (لا) في الكلام حشوٌ لا معنى لها))[7].

---

(١) أسرار البلاغة (١٩)

(٢) البديع في نقد الشعر (١٤٢)

(٣) التعريفات (٥٣)

(٤) التأويل النحوي في القرآن الكريم (١٢٧٩/٢)

(٥) ينظر أساليب النفي في القرآن (٥٠)

(٦) إعراب القرآن المنسوب للزجاج (١٣٤/١)

(٧) تفسير الطبري (١٣٠/٨)

٣ــ قال ابْن جنِّي في باب (زِيَادَةِ الحروف وحذْفِها): ((وكِلا ذَيْنِك ليس بقيـاسٍ لمـا سنذكره. أخبرنا أبو علي، رحمه الله، قال: قال أبو بكر: حَذْفُ الحروف ليس بالقياس. قال: وذلك أنَّ الحروف إنَّما دخلت الكلام لضربٍ من الاخْتِصَار، فلو ذهبت تَحْذِفها لكُنْتَ مختصـرًا لها هي أيضًا، واختصار المختصر إجحافٌ به. تمَّت الحكاية.

وتفسير قوله (إنَّما دخلت الكلام لضربٍ من الاخْتِصَار) هو أنَّك إذا قلت: مَا قَامَ زَيْدٌ فقد أغنت (ما) عن (أَنْفِيْ) وهي جملة فعل وفاعل، وإذا قلت: قَامَ القَوْمُ إلا زَيْدًا فقد نابـت (إلا) عن (أَسْتَثْنِي) وهي فعل وفاعل... فإذا كانت هذه الحروف نوائب عمَّا هو أكثر منهـا مـن الجمل وغيرها، لم يَجُزْ من بعد ذا أنْ تَتَخَرَّقَ عليها، فَتَنْتَهِكها وتُجْحِف بِهَا))[١]. وهذا يعني أنَّ حذف الحروف عند ابْن جنِّي ((لا يُسَوِّغُهُ القياسُ، لما فيه من الانْتِهاكِ والإجحاف))[٢].

هذا ما يخصُّ حذف الحروف، أمَّا ما يخصُّ زيادتها، فعنده ((خارجٌ عن القياس أيضا. وذلك أنَّه إذا كانت إنَّما جِيْءَ بها اخْتِصَارا وإيْجَازًا كانت زيادتها نقضًا لهذا الأمر، وأخذًا له بالعكس والقلب، ألا ترى أنَّ الإيجاز ضدّ الإسهاب، ولذلك لم يُجِزْ أبو الحسن توكيـد الهـاء المحذوفة في صلة الذي في نحو (الذي ضَرَبْتُ زَيْد)، فأفسد أنْ تقول: الذي ضَـرَبْت نَفْسُـه زَيْد. قال: لأنَّ ذلك نقضٌ؛ من حيث كان التوكيد إسهابًا والحذف إيجازًا، وذلك أمـرٌ ظـاهر التدافع. هذا هوالقياس: ألا يجوز حذف الحروف ولا زيادتها ومع ذلك فقـد حُـذِفت تـارة وزِيْدت أخرى))[٣] .

وقد عبَّر ابْن جنِّي، عن رفضه الزيادة والحذف معا في كتابه سِرُّ صـناعة الإعـراب بقوله: ((اعْلم أنَّ الحروف لا يليق بها الزيادة ولا الحذف وأنَّ أعدل أحوالها أنْ تُسْتَعمل غير مزيدةٍ ولا محذوفةٍ... وأمَّا وجه ضعف زيادتها فمن قِبَلِ أَنَّ الغرض في الحرف الاخْتِصَـار كما قدَّمنا فلو ذهبت تَزِيْدها لنَقَضْت الغرض الذي قصدته لأنَّك كنت تصير من الزيـادة إلـى ضدِّ ما قصدته من الاخْتِصَار فاعْرِف هذا، فإنَّ أبا علي حكاه عن الشيخ أبي بكر، رحمهمـا الله، وهو نهايةٌ في معناه. ولولا أنَّ في الحرف إذا زِيْدَ ضربًا من التوكيد لما جازت زيادتـه البتَّة كما أنَّه لولا قوَّة العلم بمكانه لما جاز حذفه البتَّة، فإنَّما جاز فيه الحذف والزيادة مـن حيث أريتك على ما به من ضعف القياس))[٤].

---

(١) الخصائص (٢/٢٧٥ – ٢٧٦)

(٢) الخصائص (٢/٢٨١)

(٣) الخصائص (٢/٢٨١-٢٨٢)

(٤) سر صناعة الإعراب (١/٢٦٩-٢٧٠)

٤ـ ما ذكره الرازي من أنَّ القول بكون (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] صلة زائدة، ضعيف لأنَّ ((تجويز هذا يُفْضِي إلى الطعن في القرآن، لأنَّ على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتًا والإثبات نفيًا وتجويزه يُفضي إلى أنْ لا يبقى الاعْتِمَاد على إثباته ولا على نفيه))[2]. وأكَّد أنَّ القول بكون (لا) صلة، لغو باطل ((يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام، ومعلوم أنَّ وصف كلام الله تعالى بذلك لا يجوز))[3] .

٥ـ قول ابْن الاثير: ((الزيادة في الكلام لغير فائدة: كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[4]، فـ(ما) ها هنا زائدة لا معنى لها، أي فَبِرَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لهم. وهذا القول لا أراه صوابا، وفيه نظر من وجهين:

أحدهما: أنَّ هذا القسم ليس من المجاز، لأنَّ المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة، وهذا غير موجود في الآية، وإنَّما هي دالةٌ على الوضع اللغويِّ المنطوق في أصل اللغة.

الوجه الآخر: أنِّي لو سلَّمت أنَّ ذلك من المجاز لأنكرت أنَّ لفظة (ما) زائدةٌ لا معنى لها، ولكنَّها وردت تفخيمًا لأمر النِّعمة التي لان بها رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، لهم، وهي محض الفصاحة، ولو عُرِّيَ الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة... ولا يَعْرِفُ ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة... ومن ذهب إلى أنَّ من القرآن لفظًا زائدًا لا معنى له فإمَّا أنْ يكون جاهلا بهذا القول، وإمَّا أنْ يكون متسمحًا في دينه واعْتِقَاده))[5] .

وقوله في موضع آخر: ((... قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾[6] بتكرير (أنْ) مرَّتين دليلٌ على أنَّ موسى، عليه السلام، لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأوَّل: بل كان عن إبطاءٍ في بسط يده إليه، فعبَّر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾. وجرت بيني وبين رجلٍ من النحويين مفاوضةٌ في هذه الآية، فقال: إنَّ (أنْ) الأولى زائدة، ولو حُذِفَت فقيل: فلمَّا أراد أنْ يبطش، لكان المعنى سواء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[7] وقد اتَّفق النحاة على أنَّ (أن) الواردة بعد (لمَّا)

---

(١) القيامة : ١

(٢) التفسير الكبير (٣٠/٢١٤)

(٣) التفسير الكبير (٣٠/٢١٤-٢١٥)

(٤) آل عمران : ١٥٩

(٥) المثل السائر (٢/٩٣-٩٥)

(٦) القصص : ١٩

(٧) يوسف :٩٦

وقبل الفعل زائدةٌ. فقلت له: النحاة لا فُتْيَا لهم في مواقع الفصــاحة والبلاغــة، ولا عنــدهم معرفة بأسرارها من حيث إنَّهم نحاة، ولا شكَّ أنَّهم وجدوا (أنْ) ترد بعد (لمَّا) وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب، فظنُّوا أنَّ المعنى بِوجُودِهَا كــالمعنى إذا أســقطت، فقالوا: هذه زائدة، وليس الأمر كذلك بل إذا وردت (لمَّا) وورد الفعل بعدها بإسقاط (أنْ) دلّ ذلك على (الفَوْرِ) وإذا لم تسقط لم يدلّنا ذلك على أنَّ الفعل كان (على الفَوْرِ) وإنَّما كان فيــه تراخٍ وإبطاء وبيان ذلك من وجهين:

أحدهما: أنِّي أقول: فائدة وضع الألفاظ أنْ تكون أدلَّة على المعاني، فإذا وردت لفظــةٌ من الألفاظ في كلامٍ مشهودٍ له بالفصاحة والبلاغة، فالأَوْلَى أنْ تحمل تلك اللفظة على معنى، فإنْ لم يوجد معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل، قيل: هذه زائدة، دخولها في الكلام كخروجها منه. ولمَّا نظرت أنا في هذه وجدت لفظة (أنْ) الواردة بعد (لمَّا) وقبل الفعل دالَّــة على المعنى، وإذا كانت دالة على معنًى فكيف يسوَّغ أنْ يُقَال إنَّها زائدةٌ؟ ...

الوجه الآخر: إنَّ هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قَدْحًا في كلام الله تعــالى، وذاك أنَّه يكون قد نطق بزيادةٍ في كلامه لا حاجة إليها، والمعنى يَتِمُّ بدونها وحينئذ لا يكون كلامه معجزًا، إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه، وإنَّ التطويل عيبٌ في الكلام، فكيف يكون ما هو عيبٌ في الكلام من باب الإعجاز؟ هذا مُحَال))[1].

٦ــ قول رضيِّ الدين الاسترابادي في زيادة حروف المعاني: ((وأمَّا (لا) فتُزَاد بعــد الواو العاطفة بعد نفي أو نهي، وقد مرَّ ذكرها في باب حروف العطف، نحو: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ ولا عَمْرٌو، وهي وإنْ عُدَّت زائدةً، لكنَّها رافعةٌ لاحْتِمال أحد المجيئين دون الآخر... والعجب أنَّهم لا يرون تأثير الحروف معنويًّا كالتأكيد في الباء، ورفع الاحْتِمَال في (لا) هذه وفي (مِنْ) الاستغراقية مانعًا من كون الحروف زائدة، ويرون تأثيرها لفظيًّا، ككونها كافةً مانعًــا فــي زيادتها))[2].

٧ــ قول ابْن هشام في (لا) المقترنة بالعاطف: ((... وكذلك (لا) المقترنة بالعــاطف في نحو (ما جَاءَنِي زَيْدٌ ولا عَمْرٌو) ويسمُّونها زائدة وليست بزائدة البتَّة، ألا ترى أنَّــه إذا قيل: (ما جَاءَنِيْ زَيْدٌ وَعَمْرٌو) احْتَمَل أنَّ المراد نفي مجيء كلٍّ منهما على كلِّ حال، وأنْ يُرَاد نفي اجتماعهما في وقت المجيء، فإذا جيء بــ(لا) صار الكلام نصًّا في المعنى الأوَّل))[3].

---

(١) المثل السائر (٣/١٣– ١٤)

(٢) شرح الكافية (٤/٤٣٦)

(٣) مغني اللبيب (١/٤٧٤)

٨ــ ما ذكره الزركشيُّ في حديثه عن الزيادة بقوله: ((والأكثرون يُنْكِرون إطلاق هذه العبارة في كتاب الله... وقد اخْتُلِفَ في وقوع الزائد في القرآن، فمنهم من أنكره، قال الطرطوسي في العمدة: زعم المبرِّد وثعلب ألا صلة في القرآن... وقال ابْن الخبَّاز في(التوجيه) وعند ابن السراج أنَّه ليس في كلام العرب زائدٌ، لأنَّه تكلُّمٌ بغير فائدة، وما جاء منه حمله على التوكيد))[١].

٩ــ ما نقله السيوطي عن ابْن عُصفور في شرح المقرَّب، قوله: ((زيادة الحروف خارجة عن القياس فلا ينبغي أنْ يُقال بها إلا أنْ يَرِد بذلك سماعٌ أو قياسٌ مطرد... قال ابْن السرَّاج: لا زائد في كلام العرب، لأنَّ كلَّ ما يُحْكَم بزيادته يُفِيد التأكيد))[٢].

١٠ــ قول محمَّد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٣]: إنَّ (لا) في الآية الكريمة ليست زائدةً وتقدير الكلام أوَّل ما أوصاكم به تعالى من ذلك كما يدلُّ عليه لاحق الكلام هو أنْ لا تشركوا بالله شيئا من الأشياء وإنْ كانت عظيمةً. ((و(أنْ) تفسيرية، ونَدَع النحاة في اضْطِرابهم وخِلافهم في تطبيق ما في حيِّزها من النهي والأمر على قواعدهم، فنحن لا يعنينا إلا فهم المعاني من الكلام بغير تكلفٍ، وما وافق القرآن من قواعدهم كان صحيحًا مطردًا وما لم يوافقه فهو غير صحيحٍ أو غير مطردٍ))[٤].

١١ــ قول عبد الكريم الخطيب في معرض حديثه عن زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[٥]: ((الحروف التي يُقَال إنَّها زائدةٌ.. ما تأويلها ؟ يَكاد المفسِّرون يجمعون على أنَّ (لا) في قوله تعالى: ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ زائدة، وأنَّ المعنى إنَّما يستقيم بحذفها. وقد سوغ عندهم القول بهذه الزيادة، واحْتِمَال وجودها في القرآن الكريم، ما وجدوه في بعض الشواهد لهذا في اللغة العربية، وهذه الشواهد، وإنْ صحَّ أصلها، فإنَّها لا تقوم حجةً على القرآن الكريم، ولا ينبغي أنْ يُؤْخَذَ كلام الله، سبحانه وتعالى، بمعيارها... فالزيادة لغير غرضٍ بلاغي، هي حشوٌ، يدعو إليه الاضْطِرار، الذي لا يكون إلا عنْ عجزٍ مُتَحَكِّمٍ، لا يستطيع المرء مجاوزته، والاستعلاء عليه.. وتعالى الله سبحانه وتعالت كلماته عن هذا علوًا كبيرًا))[٦].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٧٠ – ٧٢)

(٢) الأشباه والنظائر (١/٢٣٤ – ٢٣٥)

(٣) الأنعام : ١٥١

(٤) تفسير المنار (٨/١٨٤)

(٥) الحديد : ٢٩

(٦) التفسير القرآني للقرآن (٧/٨٠٢)

أمَّا إذا توجَّهْنَا نحو المفهوم الأساسيِّ لزيادة حروف المعاني عند النحويين؛ فنجد أنَّــه يتعلَّق بعمل ما قبل الحرف بما بعده، أي أنَّ الحرف إذا ورد في جملة وهو يفصل بين الجار والمجرور مثلا، فلا يُلغي عمل حرف الجر بالاسم الذي وقع بعد الحرف، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[1]. فــ(ما) لم تلغِ إعمال الباء بــ(رحمة) ولكنَّهم في الوقت نفسه لم يذكروا معناها.

قال سيبويه: ((وَتَقُولُ: لا مَنْ يَأْتِكَ تُعْطِهْ وَلا مَنْ يُعْطِكَ تَأْتِهْ، مِنْ قِبَلِ أنَّ لا لَيْسَتْ كَإِذْ وَأَشْبَاهِهَا، وذلك لأنَّها لَغْوٌ بِمَنْزِلَةِ (مَا) في قوله، عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ فَمَا بَعْدَهُ كَشَيْءٍ لَيْسَ قَبْلَهُ (لا). ألا تَرَاهَا تَدْخُلُ عَلَى المَجْرُوْرِ فلا تُغَيِّرُهُ عَنْ حَالِــهِ، تَقُــوْلُ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ لا قَائِمٍ ولا قَاعِدٍ، وتَدْخُلُ على النَّصْبِ فلا تُغَيِّرهُ عن حَالِهِ، تقول: لا مَرْحَبًا ولا أَهْلا فلا تَغَيِّر الشَّيْءَ عن حَالِهِ التي كان عليها قَبْلَ أنْ تَنْفِيه، ولا تَنْفِيْهِ مُغَيَّرًا عــن حَالِــه، يَعْنِي في الإعْرَاب التي كان عليها، فَصَارَ ما بَعْدَهَا مَعَهَا بِمَنْزِلَة حَرْفٍ وَاحِــدٍ لَيْسَــتْ فِيْــهِ (لا)))[2].

وقال ابن الأثير في الآية نفسها: ((وقول النحاة: إنَّ (ما) في هذه الآية زائدةٌ، فإنَّمــا يَعْنُون به أنَّها لا تَمْنَعُ ما قبلها عن العمل، كمَّا يُسَمُّونَهَا في موضعٍ آخر كافة، أي أنَّها تَكُفُّ الحرف العامل عن عمله كقولك: إنَّمَا زَيْدٌ قَائِمٌ، فما قد كفت (إنَّ) عن العمل في زيدٍ، وفــي الآية لم يمتنع عن العمل ألا ترى أنَّها لم تمنع (الباء) عن العمل في خفض الرحمة))[3].

وقال ابْن هشام ((من أقسام (لا) النافية المعترضة بين الخافض والمخفــوض، نحــو (جِئْتُ بِلا زَادٍ)، (وغَضِبْتُ مِنْ لا شَيْءٍ) وعن الكوفيين أنَّها اسم، وأنَّ الجارَّ دخــل عليهــا نفسها وأنَّ ما بعدها خفض بالإضافة، وغيرهم يراها حرفًا، ويسمِّيها زائدةً كمــا يُسَــمُّون (كان) في نحو: (زَيْدٌ كَانَ فَاضِلٌ) زائدة، وإنْ كانت مفيدةً لمعنى هو المضيّ والانقطاع، فعُلم أنَّهم قد يريدون بالزائد المعترض بين شيئين متطالبين، وإنْ لم يصح أصل المعنى بإسقاطه كما في مسألة (لا) في نحو (غَضِبْتُ مِنْ لا شَيْء)، وكذلك إذا كان يَفُوتُ بِفَوَاتِه معنًى كمــا في مسألة (كان)))[4].

ولكنَّ هذا المعنى تطوَّر وتوسَّع وتشعَّب حتَّى صار للزيادة، أكثر من مفهوم:

---

(١) آل عمران : ١٥٩

(٢) الكتاب (٣/٧٦- ٧٧)

(٣) المثل السائر (٢/٩٥)

(٤) مغني اللبيب (١/٤٧٤)، وينظر الجنى الداني في حروف المعاني (٣٠٠)، البرهان في علوم القرآن (٣/٧٣- ٧٤)

فهي إمَّا زيادة لفظٍ مع بقاء المعنى، أو زيادة توكيدٍ لحرف نفيٍ سابقٍ لـــه، أو زيـــادة شاملة، فيكون دخول الحرف كخروجه، وقد تكلَّمت على وجوه (لا) في الفصـــل الأوَّل فـــلا حاجة للإعادة هنا.

وبناءً على هذه الأقسام، تَكْثُر الآراء، وتَتَعَدَّد الوجوه، ويضيع المعنى بين ما قاله فلان ورفضه فلان، على نحو تعدُّد الآراء حول (لا) في قوله تعالى: ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[1]: فبعضهم قال: إنَّها زائدةٌ للتوكيد[2]، ومنهم من قال: إنَّهـــا زائـــدةٌ ودخولهـــا فـــي الكـــلام كخروجها[3]، ومنهم من قال: إنَّها زائدةٌ شذوذًا في مواضع يُوقَفُ فيها مع السماع[4].

وبين قبول النحويين لزيادة الحروف في القرآن الكريم مع إعطـــائهم معنًـــى للحـــرف الزائد ورفض آخرين الزيادة في القرآن الكريم، نجد من النحويين من غالى في تأكيد زيادة الحروف في القرآن الكريم وقبولها، وإنْ لم يكن للحرف الزائد أيّ معنى، فهذا أبـــو علـــيّ الفارسيّ يقول عن زيادة الحروف: ((وربَّما أنكر منكرون وقوع هذه الحروف زوائد ولـــيس يخلو إنكارهم لذلك من أنَّهم لم يجدوه في اللغة فلم يُدْخِلُوا فيها ما لم يجدوه منها، أو يكونوا أنكروه لرأيٍ رأوه، فإنْ كانوا أنكروا لأنَّهم لم يجدوه في اللغة فيجب إذا وجدوا من ذلك ما لا مصرف له في التنزيل والشعر وسائر الكلام إلا إلى الزيادة أنْ يتركوا إنكاره، لما رأوه إليه لأنَّ ذلك الرأي فاسدٌ، لدفعه الوجود ونفيه الموجب. وفي التنزيل ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَـــابِ﴾، و﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾[5]، و﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[6]. وفي الشعر من ذلك ما لا يحصى يحصى كثرةً، ولا مصرف له إلا إلى الزيادة.

فإنْ قال قائل: فيما كان منه في التنزيل إنَّه للتأكيد، فهو قولٌ، ويجوز عندي أنْ يكـــون فيه زائدة لغير التأكيد، ألا ترى العرب يزيدونها في النثر وحيث لا حاجة إلى إقامة الـــوزن، كما يزيدونها في النظم وحيث يُقام الوزن في نحو (آثرًا ما)، و(لاسيَّما) وشبهه، والتنزيـــل على لسانهم نزل وبلغتهم جاء... ألا ترى أنَّ فيه مثل قوله ﴿لَعَلَّهُ يَتَـــذَكَّرُ أَوْ يَخْشَـــى﴾[7]، ومثل ﴿قَاتَلَهُمْ اللَّهُ﴾[8] و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[1] و﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾[2] وكلُّ هذا علـــى

---

(١) الحديد: ٢٩

(٢) ينظر الكتاب (٢٢٢/٤)

(٣) ينظر الجنى الداني في حروف المعاني (٣٠٢ – ٣٠٣)

(٤) ينظر رصف المباني في شرح حروف المعاني (٢٧٣ – ٢٧٤)

(٥) نوح: ٢٥

(٦) آل عمران: ١٥٩

(٧) طه : ٤٤

(٨) التوبة :٣٠

على ما في عُرْفهم ومجرى خطابهم. وإذا كان كذلك لم يمتنع زيادتها أوَّلا، كما تزداد وسطا، وطرفا))[٣] .

لم يكن أسلوب أبي علي الفارسي في محاولة إقناع منكري الزيادة في القرآن الكريم أسلوبًا ناجحًا ولم يكن موفقًا في سرد أدلَّته، ويمكن نقد كلامه من أوجه:

الأوَّل: ورود الحروف زائدة في شعر العرب ونثرهم ليس دليلا على إمكانيَّة إثبات وجود الزيادة في القرآن الكريم، لأنَّ الجميع يعلم أنَّه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره في الخروج عن القواعد العامة للعربيَّة لضرورة الوزن والقافية. فهذا الباب مما لا يُقَاس عليه. فضلا عن أنَّ النحويين يَرَوْنَ للزيادة فوائدَ معنويَّة، كالتوكيد، وإنْ لم تكن موجودةً فلابدَّ من وجود فائدة لفظية ((هي تزيين اللفظ، وكون زيادتها أفصح، أو كون الكلمة أو الكلام بسببها تهيأ لاستِقامة وزن الشعر ولحُسن السجع، أو غير ذلك من الفوائد اللفظيَّة))[٤]، غير أنَّ كلام الله، جلَّ جلاله، معجز لا يضاهيه كلام ولا ضرورة تُلْجِئه إلى التزيين والتكلف.

الثاني: يَقْبَل أبو عليٍّ الفارسيّ الزيادة في القرآن الكريم من غير فائدة معنوية، ويراها تُزاد في الشعر والنثر بلا فائدة لفظية. فما الحرف الزائد في نظره وما ضرورة وجوده في الجملة؟ إلا أنْ يكون عبثا، وهذا ما يراه النحويون، وقد ذكرت في موضع سابق أقوال العلماء في هذا الشأن، وأزيد هنا قول الاسترآبادي في عدم تجويز خلو الحرف الزائد من الفوائد اللفظيَّة والمعنويَّة معا ((وإلا لَعُدَّت عبثًا، ولا يجوز ذلك في كلام الفصحاء، ولاسيَّما في كلام الباري تعالى))[٥].

الثالث: في قوله: ((إذا وجدوا من ذلك ما لا مصرف له في التنزيل والشعر وسائر الكلام الزائد إلا إلى الزيادة، أنْ يتركوا إنكاره))[٦] . كان ينبغي له أنْ يُعْمِل فكره في البحث عن معنًى للحرف الزائد، فإذا عجز، يحقُّ له حينذاك أنْ يُقَرِّر أنْ لا مصرف لهذه المواضع إلا إلى الزيادة، أو يترك الأمر فيها لغيره يجتهد في دفع اللغو أو الزيادة عن القرآن الكريم.

الرابع: ضرب أبو علي الفارسي أمثلةً من القرآن الكريم جاءت على ما تَعَارف عليه العرب في مجرى خطابهم واستدلَّ بها على قبول الزيادة.

---

(١) المرسلات : ١٥

(٢) مريم : ٣٨

(٣) المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات (٣٤٣-٣٤٥)

(٤) شرح الكافية (٤/٤٣٣)

(٥) شرح الكافية (٤/٤٣٣)

(٦) المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات (٣٤٤)

ونقول لأبي علي: هل زيادة الحروف ممَّا تعارف عليه العــرب وهــو فــي أسـلوب كلامهم؟، ونحن نعلم دقَّة اللغة العربية في استعمال الحروف والألفاظ والتعـابير، كــلٌّ فــي موضعه ولكلٍّ معناه الذي يطلبه، ولاسيَّما في القرآن الكريم، بحيث إنَّ لكلِّ لفظةٍ فيه (اسـمًا كانت أو فعلا أو حرفًا) معنًى، فـ((لا تكون هذه اللفظة إلا كأنَّها خُلِقَت لذلك المعنــى خلقًــا، وأُفْرِغَت عليه إفْراغًا، حتَّى لا يُنَاسِبُه غيرها فيما يَلْتَئِم على لسان المُتَكَلِّم، ولا يكــون فــي موضعها أَلْيَق منها في مذهبه ولحن قومه وطريقة لُغَتِهِ))[1]، والقرآن الكريم، أيضا، ((لــو نُزِعَتْ كلمة منه أو أُزِيْلَت عن وجهها ثُمَّ أُدِير لسان العرب كلّه على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يَتَهَيَّأ ذلك، ولا اتَّسَعت له اللغة بكلمةٍ واحدةٍ))[2].

بعد هذا العرض، الذي تكلَّمت فيه على معاني الزيادة وفوائدِها ومُؤَيِّدِي وُجُوْدِها في القرآن الكريم ومُنْكِرِي ذلك، سأناقش القائلين بزيادة (لا) فــي صــيغة نفــي القسم في القرآن الكريم، وقد اعتمد القائلون بزيادتها في المواضع الثمانية التي وردت فيها[3]على ثلاثة أدلة هي:

أوَّلا: آياتٌ من القرآن قيل إن (لا) فيها زائدة ، وأبياتٌ من الشعر.

ثانيًا: إنَّ القرآن كلَّه كالسورة الواحدة ولذلك جوَّزوا زيادة (لا) في بداية الكلام.

ثالثًا: إنَّ لزيادة (لا) في الكلام فائدةً، هي (التوكيد).

أَوَّلا: آياتٌ من القرآن الكريم قيل إن (لا) فيها زائدة، وأبياتٌ من الشعر:

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (١٨٨)

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٢٥)

(٣) ينظر الواقعة : ٧٥، الحاقة : ٣٨- ٣٩، المعارج : ٤٠، القيامة : ١-٢، التكوير: ١٥، الانشقاق: ١٦، البلد: ١

ولمناقشة هذا الدليل، نقف عند أمرٍ مهمٍ يُعَدُّ أصلا من أصول النحو، هو القياس، فهل زيادة (لا) في العربية قياسيَّة؟ يُجِيب عن هذا التساؤل ابْن جنِّي فيقول: ((القياس: ألا يجوز حذف الحروف ولا زيادتها))[1]، والسيوطي بقوله: ((قال ابن عصفور في (شرح المقرب): زيادة الحروف خارجةٌ عن القياس... قال ابْن السراج: لا زائد في كلام العرب لأنَّ كــلَّ مــا يُحكم بزيادته يُفيد التأكيد))[2] .

فعند نفي القياس عن موضوع زيادة الحروف يُلْغَى وجوب الأخذ بالزيادة. إلا أنَّنا نجد النحويين قد رصدوا المواضع التي قِيل فيها عن (لا): إنَّها زائدةٌ، وقرَّروا أنَّ هذه المواضع هي:

أــ بعد الواو العاطفة بعد نفيٍ أو نهي[3]، وقد وردت آياتٌ كثيرةٌ أدلةً على هذا النوع من زيادة (لا) أذكر منها: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالِّينَ﴾[4]، ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[5]، ﴿وَمَــا يَسْــتَوِي الْــأَعْمَى وَالْبَصِيرُ*ولا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ*ولا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ*وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْــأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[6]، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّــيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[7]، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[8]
بِكُمْ﴾[8]

هذه الآيات الكريمة أمثلة لزيادة (لا) بعد العطف المسبوق بنفي أو نهي، يمكن تفسير وجود (لا) في موضعها الذي ذُكِرت فيه من غير القول بزيادتها، وهذا أَوْلَى وأفضــل مــن دعوى الزيادة فيها، إذا علمنا أنَّ (لا) الواردة بعد النفي تُغْنِي عن تكرار الفعل وإعادة ذِكْرِه مرَّةً أخرى في الآية، فالكلام من غير ذكرها يمكن أنْ يقدَّر مثلا: (ما يودُّ الذين كفروا مــن أهل الكتاب وما يودُّ المشركين)، فَذِكْرُ (لا) يفيد توكيد النفي السابق لها وتوكيد معنى الفعــل

---

(١) الخصائص (٢/٢٨٢)

(٢) الأشباه والنظائر (١/٢٣٤-٢٣٥)

(٣) ينظر الإيضاح في شرح المفصل (٢/٣٦٥-٣٦٦)، رصف المباني في شرح حروف المعاني (٢٧١)، الجنى الداني (٣٠١)، البرهان في علوم القرآن (٤/٣٥٦)

(٤) الفاتحة: ٧

(٥) البقرة: ١٠٥

(٦) فاطر: ١٩-٢٢

(٧) فصلت: ٣٤

(٨) الأحقاف: ٩، وينظر البقرة: ٢٥٥، النساء: ١٩ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، المائدة: ١٠٣ ، الشورى: ٥٢ ، سبأ: ٣٧ ، الأحقاف: ٢٦ ، الفتح: ٢٢ .

في الكلمة الواردة بعد حرف العطف، وهذا ما أشار إليه ابْن جنِّي[1]، وَذِكْر (لا) يُجَنِّبُ الحشو والتطويل اللذين لا فائدة منهما، ويكون لمعنًى لا يُؤَدَّى إلا بها، وعدم ذِكرها قد يُلْجِئ إلى التقدير الذي يُوقِع في الوهم واضْطِراب المعنى، قال ابْن القيِّم في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إنَّ المراد من ذكر (لا): ((المُغَايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (لا)، وقيل (غير المغضوب عليهم والضَّالِّين) أَوْهَمَ أنَّ المراد ما غاير المجموع المركَّب من النوعين، لا ما غاير كلَّ نوعٍ بمفرده، فإذا قيل (ولا الضالين) كان صريحًا في أنَّ المرادَ صراطٌ غير هؤلاء وغير هؤلاء))[2]. فلكلِّ نوعٍ صراطه ونهجه المختلف عن الآخر، رغم اشْتِراك الطرفين في الخلل والانحراف والبُعد عن الصراط المستقيم.

وصرَّح الزركشيُّ أنَّ (لا) الواردة بعد حرف العطف، وقبل نفيٍ أو نهيٍ، داخلةٌ ((لنفي احتمال أنْ يكون المقصود نفي مجيئهما جميعا تأكيدًا للظاهر من اللفظ ونفيًا للاحتمال الآخر فإنَّه يُفيد النفي عن كلٍّ واحدٍ منهما نصًا، ولو لم يأتِ (لا) لجاز أنْ يكون النفي عنها على جهة الاجتماع ولكنَّه خلافٌ للظاهر))[3].

ومن النحويين من يرفض القول بزيادة (لا) بعد حرف العطف إذا كانت مسبوقةً بنفيٍ أو نهيٍ. قال ابْن هشام (((لا) المقترنة بالعاطف في نحو(مـا جَاءَنِي زَيْدٌ ولا عَمْرٌو) ويُسَمُّونها زائدةً وليست بزائدةٍ البتَّة، ألا ترى أنَّه إذا قيل (ما جَاءَنِي زَيْدٌ وعَمْرٌو) احْتمل أنَّ المُراد نفي مجيء كلٍّ مِنْهُما على كلِّ حال، وأنْ يُراد نفيُ اجتماعهما في وقت المجيء، فإذا جِيْءَ بـ(لا) صار الكلام نصًّا في المعنى الأوَّل))[4]. وقال الاسترابادي: ((وأمَّا (لا) فتُزَاد بعد بعد الواو العاطفة بعد نفيٍ أو نهيٍ... نحو (ما جَاءَنِي زَيْدٌ ولا عَمْرٌو)، وهي وإنْ عُدَّت زائدةً لكنَّها رافعةٌ لاحْتمال أحد المجيئين دون الآخر... والعجب، أنَّهم لا يرون تأثير الحروف معنويًا، كالتأكيد في الباء، ورفع الاحْتمال في (لا) هذه، وفي (مِنْ) الاستغراقية، مانعًا من كون الحروف زائدة، ويرون تأثيرها لفظيًا، ككونها كافةً: مانعًا من زيادتها))[5].

---

(1) ينظر إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن (١/٥٠١)

(2) بدائع الفوائد (٢/٣٤-٣٥)

(3) البرهان في علوم القرآن (٤/٣٥٦)

(4) مغني اللبيب (١/٤٧٤)

(5) شرح الكافية (٤/٤٣٦)، وينظر أساليب النفي في العربية (٢٧٩)

ونصُّ الاسترابادي هذا يدفعنا إلى القول: إنَّ صُنَّاع النحو قد غضُّوا الطرف عن المعاني في غَمْرة انْخِراطهم في التفتيش عن القواعد، وهذا ما أكَّده ابْن الأثير[١] في نصٍّ سابقٍ ذكرته في هذا المبحث.

وفي الآيات الكريمة التي ورد فيها الفعل (اسْتَوَى) نجد أغلب النحويين يميلون إلى زيادة (لا) معه، لأنَّه من الأفعال التي تطلب اسمين.

غير أنَّنا نستشفُّ معنًى بديعًا في قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾، هو أنَّ الحسنات لا تستوي، أي أنَّها ليست كلّها بميزانٍ واحدٍ، ولا السيئات تستوي، فهي أيضًا ليست كلُّها بميزانٍ واحدٍ، فهناك حسناتٌ كبيرةٌ وثوابها عظيم تختلف عن الحسنات الأقلِّ، وكذلك الأمر في السيئات، فضلا عن عدم اسْتِوَاءِ الحسنة والسيئة.

والأمر نفسه في الآية الكريمة: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ*ولا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ*ولا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ*وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ﴾[٢]، فالظاهر من سياق الآية الكريمة أنَّ (لا) نافية وليست زائدةً البتَّة، لأنَّ الظلمات درجاتٌ لا تستوي، وكذلك النور، وفي الوقت نفسه لا تستوي الظلمات والنور، وهذا إعجاز في اسْتِعمال الألفاظ في القرآن الكريم. قال الزركشي: ((وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ فمن قال المراد أنَّ الحسنة لا تساوي السيئة، فـ(لا) عنده زائدة ومن قال إنَّ جنس الحسنة لا يستوي أفراده، وجنس السيئة لا يستوي أفراده وهو الظاهر من سياق الآية فليست زائدةً، والواو عاطفة جملة على جملة))[٣].

ولا أعرف ما الغرض من التشبث بزيادة (لا) مع وجود هذه المعاني البديعة التي تُثْلِج الصدور وتزيد من إشراقات الآية في النفوس.

هذه إشاراتٌ موجزة إلى ما يمكن أنْ تحمله هذه الآيات الكريمة من معانٍ، وسأتكلَّم بعد إكمال عرض تصنيف النحويين لزيادة (لا) على الآيات الكريمة التي اسْتَدلُّوا بها على الموضعين الآخرين لزيادة (لا) لأنَّ تلك الآيات أكثر ورودًا في كتب المفسِّرين والنحويين.

ب_ تُزاد (لا) بعد (أنْ) المصدريَّة الناصبة للفعل المضارع[٤] ومن الآيات الكريمة التي اسْتَدلُّوا بها على هذه الزيادة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

(١) ينظر المثل السائر (١٣/٣– ١٤)

(٢) فاطر : ١٩ –٢٢

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣٥٧/٤)

(٤) ينظر الأمالي الشجرية (٢٣٠/١–٢٣١)، شرح المفصل (١٣٦/٨–١٣٧)، الإيضاح في شرح المفصل (٢٢٩/٢)، شرح الكافية (٤٣٦/٤)، رصف المباني في شرح حروف المعاني (٢٧٢)، الجنى الداني (٣٠٣)، مغني اللبيب (٤٨٠/١)، البرهان في علوم القرآن (٣٥٧/٤–٣٥٨)

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾[١]، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[٢]، ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا*أَلا تَتَّبِعَنِي﴾[٣]، ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ألا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ...﴾[٤] .

وقد تضاربت آراء المفسِّرين والنحويين حول زيادة (لا) في الآية الأخيرة، وستكون لي، إنْ شاء الله تعالى، وقفةٌ معهم.

ت_ زيادة (لا) قبل قَسَمٍ[٥]، ومن الآيات الكريمة التي استَدَلُّوا بها على هذه الزيادة: ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[٦]، ﴿فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[٧]، ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٨]

والآيات الكريمة التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) سأتحدَّث عنها، وأشرح مضامينها حين أتكلَّم على الرأي القائل: إنَّ (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) نافيةٌ، وفي فصل (أغراض صيغة نفي القسم) أمَّا هنا؛ فسنتكلَّم على الآيات الكريمة التي كَثُرَ ورودها والحديث عنها في كتب التفسير والنحو ومعاني القرآن وإعرابه، على أنَّ (لا) الواردة فيها زائدة وهي:

﴿لئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ﴾، ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ...﴾

١ـ قوله تعالى: ﴿ لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٩]

ذكرت أنَّ كثيرًا من العلماء قالوا بزيادة (لا) الواردة في الآية الكريمة ولكنْ تعدَّدت أسبابهم: فمنهم من قال إنَّها زائدةٌ، لأنَّها وقعت بعد (أنْ) المصدريَّة، ومنهم من قال: إنَّها

(١) الأنعام: ١٥١

(٢) الأعراف: ١٢

(٣) طه: ٩٢-٩٣

(٤) الحديد: ٢٩، ينظر آل عمران: ٧٩-٨٠ ، الأنعام: ١٠٩ ، الأنبياء: ٩٥ ، الإسراء: ٢

(٥) ينظر حروف المعاني (٨)، الأمالي الشجرية (١/٢٣٠-٢٣١)، شرح المفصل (٨/١٣٦-١٣٧)، الإيضاح في شرح المفصل (٢/٢٢٩)، شرح الكافية (٤/٤٣٦)، الجنى الداني (٣٠٣)، مغني اللبيب (١/٤٨٠)، البرهان في علوم القرآن (٤/٣٥٧-٣٥٨)

(٦) النساء: ٦٥

(٧) الواقعة: ٧٥

(٨) القيامة: ١-٢، ينظر الحاقة: ٣٨-٣٩، المعارج: ٤٠، التكوير: ١٥، الانشقاق: ١٦، البلد: ١

(٩) الحديد: ٢٩

زائدةٌ، لأنَّ في الآية نفيًا آخر، وكلُّ كلام دخل في آخره نفيٌ أو في أوّله نفي غير مصرَّحٍ به يجعلون (لا) فيه زائدةً. ومنهم من قال: إنَّها زائدةٌ لمجرَّد توكيد الكلام وتقويته.

قال سيبويه: ((وأمَّا قول الناس للرجل: أمَّا أنْ يَكُون عالمًا فهوعالمٌ، وأمَّا أنْ يَعْلَمَ شيئًا فهو عالمٌ، فقد يَجُوْز أنْ تقولَ: أمَّا أنْ لا يكونَ يَعْلَمُ فهو يعلمُ وأنتَ تُرِيْدُ أنْ يكُونَ، كما جاءت ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ في معنى لأنْ يَعْلَمَ أهلُ الكتَابِ، فهذا يُشْبِه أنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَةِ المَصْدَرِ، لأنَّ أنْ مع الفعل الذي يكونُ صِلَةً بمنزلَةِ المَصْدَرِ))[1] .

إذا أنعمنا النظر في المثال الذي ضربه سيبويه قياسًا على الأسلوب الوارد في الآية وهو قوله: (أمَّا أنْ لا يكون يعلم فهو يعلم وأنت تريد أنْ يكون) نجد المعنى المراد في قوله (لا يكون) بحاجةٍ إلى كثيرٍ من التقديرات الخاصَّة حتَّى نعلم أنَّ المتحدِّث لا يريد النفي وإنَّما الإثبات، ومثاله لا يَتَمَاشى مع أسلوب الكلام في الآية الكريمة، لأنَّ نص الآية الذي ذكره سيبويه مُقْتَطَعٌ من السياق، المُتَمَثِّل بكلامٍ سابقٍ وآخر لاحق، ولا يخفى ما للسياق من أثرٍ كبيرٍ في المعنى.

وقال الفرَّاء في الآية نفسها: ((والعرب تجعل (لا) صلةً في كلِّ كلامٍ دخل في آخره جحدٌ، أو في أوّله جحدٌ غير مصرحٍ به))[2].

أمَّا الذين ذهبوا الى أنَّ (لا) في هذه الآية زائدةٌ للتوكيد؛ فمنهم الأخفش بقوله: ((...فزيدت توكيدًا، كما قال: ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي لأنْ يعلم))[3].

غير أنَّنا نجد رأيًا آخر في (لا) هذه، تبنَّاه عدد من النحاة والمفسرين، وهو أنَّ معناها النفي، نحو ما ورد في إعراب القرآن المنسوب للزجَّاج ((والذي يوجبه اللفظ على ظاهره أنْ يكون الضمير في (يقدرون) للنَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم وآله والمؤمنين، والمعنى لئلا يعلم اليهود والنصارى أنَّ النَّبي، صلَّى الله عليه وآله والمؤمنين، لا يقدرون على ذلك، وإذا لم

---

(١) الكتاب (٣٩٠/١)، وينظر الإيضاح في شرح المفصل (٣٦٥/٢)، شرح الكافية (٤٣٦/٤)، البرهان في علوم القرآن (٧٨/٣)

(٢) معاني القرآن (١٢٩/٣)

(٣) معاني القرآن (٤٦٧/٢، ٤٩٥)، وينظر الأصول في النحو (٢١١/٢)، الكشاف (٦٨/٤)، المفصل في صنعة الإعراب (٤٢٤)، شرح المفصل (١٣٦/٨)، شرح اللمع (٩٣/١)، التبيان في إعراب القرآن (١٢١١/٢)، البحر المحيط (٢٢٩/٨)، مغني اللبيب (٤٨٠/١)، إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن (٥٠١/١)

يعلموا أنَّهم لا يقدرون فقد علموا أنَّهم يقدرون عليه، أي إنْ آمنتم كما أمرتكم آتاكم الله من فضله، فعلم أهل الكتاب ذلك ولم يعلموا خلافه، والعلم في هذا ومثله يوضع موضع وقوع الفعل، لأنَّه إنَّما يعلم الأشياء واقعةً بعد وقوعها. قال أبو سعيد السيرافي: إنْ لم تجعل (لا) زائدةً جاز، لأنَّ قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَئِلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي يفعل بكم هذه الأشياء ليتبيَّن جهل أهل الكتاب وأنَّهم لا يعلمون ما يؤتيكم الله من فضله لا يقدرون على تغييره وإزالته عنكم، فعلى هذا لا يحتاج إلى زيادة (لا)))[1].

وقال الرازي في الآية نفسها ((قال الواحديُّ هذه آية مُشْكلة وليس للمفسِّرين فيها كلامٌ واضحٌ في كيفية اتِّصال هذه الآية بما قبلها. واعْلم أنَّ أكثر المفسِّرين على أنَّ (لا) ههنا صلةً زائدةً، والتقدير: ليعلم أهل الكتاب، وقال أبو مسلم الأصفهاني وجمعٌ آخرون: هذه كلمة ليست بزائدةٍ، ونحن نفسِّر الآية على القولين بعون الله وتوفيقه: (أمَّا القول المشهور): وهو أنَّ هذه اللفظة زائدةٌ، فاعْلم أنَّه لابدَّ ههنا من تقديم مُقدِّمة وهي: أنَّ أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله تعالى، خصَّنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين. إذا عرفت هذا فنقول: إنَّه تعالى لمَّا أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمَّد، عليه الصلاة والسلام، وعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان، أتبعه بهذه الآية. والغرض منها أنْ يزيل من قلبهم اعتقادهم بأنَّ النبوة مختصَّة بهم وغير حاصلةٍ إلا في قومهم، فقال إنَّما بالغنا في هذا البيان، وأطنبنا في الوعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنَّهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقومٍ معينين، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين، وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعْتراض عليه في ذلك أصلا. أمَّا القول الثاني، وهو أنَّ لفظة (لا) غير زائدة، فاعْلم أنَّ الضمير في قوله: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ عائدٌ إلى الرسول وأصحابه، والتقدير: (لئلا يعلم أهل الكتاب أنَّ النَّبي والمؤمنين لا يقدرون على شيءٍ من فضل الله، وأنَّهم إذا لم يعلموا أنَّهم لا يقدرون عليه فقد علموا أنَّهم يقدرون عليه)، ثُمَّ قال: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي وليعلموا أنَّ الفضل بيد الله، فيصير التقدير: إنَّا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنَّهم يقدرون على حصر فضل الله وإحسانه في أقوامٍ معينين، وليعتقدوا أنَّ الفضل بيد الله.

واعْلم أنَّ هذا القول ليس فيه إلا أنَّا أضْمرنا فيه زيادة، فقلنا في قوله: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ تقدير: (وليعتقدوا أنَّ الفضل بيد الله)، وأمَّا القول الأوَّل: فقد افْتقرنا فيه إلى حذف

---

(١) إعراب القرآن المنسوب للزجاج (١/١٣٣-١٣٤)، وينظر مجمع البيان (٥/٢٤٥)، البرهان في علوم القرآن (٣٥٧/٤)

شيءٍ موجودٍ، ومن المعلوم أنَّ الإضمار أَوْلَى من الحذف، لأنَّ الكلام إذا افْتقر إلى الإضمار لم يُوهم ظاهره باطلا أصلا، أمَّا إذا افْتقر إلى الحذف كان ظاهره موهمًا للباطل، فعلمنا أنَّ هذا القول أَوْلَى والله أعلم))[1].

وقال المدرسي: ((في الآية وجهان: يكون المعنى على الوجه الأوَّل: لكي لا يقنطوا من رَوْحِ الله وفضله فيبرِّروا بذلك عدم إيمانهم بالرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، والكتاب الجديد، أو يبرِّروا عدم سعيهم إلى الفضل، كلا، فدعوة الله ووعده للجميع. أمَّا على الوجه الثاني: فيكون المعنى: لكي لا يظنَّ أهل الكتاب (النصارى واليهود) أنَّ الفضل حكرٌ عليهم، وأنَّ المؤمنين المسلمين لا سبيل لهم إلى فضله تعالى، كلا، (وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) ويبدو أنَّ أهل الكتاب كانوا يعيشون عقدتين خطيرتين: الأولى: أنَّهم العنصر الأسمى فالفضل لهم لا لغيرهم، الثانية: أنَّهم لو آمنوا لا يتساوون في الفضل مع السابقين من المسلمين لأنَّهم عرب وهم غرباء، أو لأيِّ سببٍ آخر، وخاتمة الآية وربَّما فاتحتها أيضًا تنفي كلتا العقدتين، لأنَّ الفضل بيد الله، فإنَّه يؤتيه للمسلمين كما آتاه سابقا لأهل الكتاب عندما آمنوا برسلهم . ثم لأنَّ الفضل بيد الله، فإنَّه لا يميِّز بين عربيٍّ وأعجميٍّ، وسابقٍ ولاحقٍ...))[2].

أمَّا عبد الكريم الخطيب؛ فقوله في ذلك فَصْلٌ، جاء فيه ((يكاد المفسِّرون يُجمعون على أنَّ (لا) في قوله تعالى: ﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ زائدةٌ وأنَّ المعنى يستقيم بحذفها. وقد سوَّغ عندهم القول بهذه الزيادة، واحْتِمال وجودها في القرآن الكريم، ما وجدوه، من بعض الشواهد لهذا في اللغة العربية، وهذه الشواهد، إنْ صحَّ أصلها، فإنَّها لا تقوم حجَّةً على القرآن الكريم، ولا ينبغي أنْ يُؤْخَذَ كلام الله بِمِعْيَارِها.

فالزيادة، لغير غرضٍ بلاغي، هي حشوٌ، يدعو إليه الاضْطرار، الذي لا يكون إلا عن عجز متحكمٍ، لا يستطيع المرء مجاوزته، والاستعلاء عليه، وتعالى الله، سبحانه، وتعالت كلماته عن هذا علوًا كبيرًا.

ونحن مع (لا) هذه بين أمرين لا ثالث لهما:

فإمَّا أنْ تكون من كلام الله سبحانه، وإذن فلابدَّ أنْ تكون من بِنية هذا الكلام، لا يستقيم المعنى إلا بها وأنَّ عدم اعتبارها، عدوانٌ على المعنى، وإفسادٌ له، وإمَّا أنْ تكون دخيلةً على كلام الله، لا يستقيم المعنى إلا بحذفها، وتجريد الكلام منها.

---

(١) تفسير الرازي (٢٩/٢٤٧ – ٢٤٨)، وينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٨/١٦٤)، الجديد (٧/١١٤– ١١٥).

(٢) من هدي القرآن (١٥/١٢٢– ١٢٤)، وينظر من وحي القرآن (٢٢/ ٥٩)

وهذا الغرض الثاني غير وارد أبدًا في هذا المقام، مقام الحديث عن كتاب الله، وآياته، وكلماته، فقد تولى الله، سبحانه وتعالى، حفظ كتابه الكريم، من أيِّ تحريفٍ، أو تبديلٍ في كلمةٍ من كلماته أو حرفٍ من حروفه كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

وإذن فنحن على يقينٍ، لا شكَّ معه، ولا ريب فيه، بأنَّ (لا) هذه من بِنْيَةِ الكلمة، شأنها في هذا شأن بقية الحروف، (لئلا) ذات المقاطع الثلاثة: اللام (لام التعليل) و(أنْ) المصدرية و(لا) النافية ...

وإنَّه لكي يقوم لنا فهمٌ صحيحٌ للآية الكريمة، ينبغي أنْ نصلها بما قبلها من آيات الله وأنْ يكون نظرنا إليها قائمًا على مراعاة هذا الجِوار المرعيِّ بين آيات الله وكلماته، وإلا كان هذا قطعًا منَّا لما أمر الله به أن يوصل. والآية التي تسبق هذه الآية وتُجاورها هي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] وهذه الآية... هي دعوةٌ إلى المؤمنين من أهل الكتاب أنْ يؤمنوا برسول الله، وأنَّ إيمانهم هذا هو الذي سيُلْحِقهم بالمؤمنين ويُنْزِلهم منازلهم، ويجعل لهم النور الذي جعله الله للمؤمنين يوم القيامة، وقد فتح الله سبحانه هذا المدخل الذي يدخل منه أهل الكتاب إلى هذا المنزل الكريم، لئلا يعلموا أنَّهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل الله، ولئلا يقع في تصوُّرهم أنَّهم مَحْجُوْبُون عن هذا الفضل، لا يستطيعون بلوغه بحال أبدًا، إذْ كان، كما خُيِّل إليهم، أنَّه فضل خاص بالعرب وحدهم، كلا، إنَّه فضل الله يناله كل مستجيب لله، مؤمن برسول الله.. وألا فليعلم أهل الكتاب أنَّهم قادرون على أنْ ينالوا هذا الفضل، إذا هم دخلوا فيما دخل فيه العرب، فإنَّ الفضل بيد الله وحده لا بيد العرب، ولا بيد بني العرب، بل هو بيد الله وحده يؤتيه الله من يشاء والله ذو الفضل العظيم الذي يسع فضله الناس جميعا، دون أنْ ينقص منه شيء.

فالقدرة في الآية الكريمة ليس معناها القدرة المتحكِّمة، المتمكِّنة، وإنَّما معناها الاسْتِطاعة التي تُمكِّن صاحبها من بلوغ ما بلغه غيره من الناس في السبق إلى منازل الفضل والإحسان. ومعنى القدرة على فضل الله، إمكان التعرض له، والنيل منه، على حساب ما يعمل الإنسان في سبيل مرضاة ربه وابْتِغاء رضوانه... والآية الكريمة إنَّما تُخاطب بهذا أهل الكتاب، الذين غلب على تفكيرهم وخاصَّة اليهود منهم أنَّهم شعب الله المختار، وأنَّ الله سبحانه، إذا اختار شعبا، كما يزعمون، فإنَّ فضله كلَّه يَتَّجِه إلى هذا

---

(١) الحجر: ٩

(٢) الحديد: ٢٨

الشعب، فلا تكون منه بعد هذا بقية ينالها أحد، وهذا من سوء ظنِّهم بالله، وتصوُّرِهم القاصر المحدود، لجلاله وعظمته وكماله، ولهذا كان الحديث إليهم عن شيءٍ من فضل الله، وأنَّ هذا الشيء من فضل الله، يسع الوجود كلَّه. وإذن فلا يحجبهم عن الإيمان برسول الله، هذا الشعور الخاطئ الذي يعيشون به، والذي يخيَّل إليهم منه أنَّ العرب إذ سبقوا إلى فضل الله، فلن يكون لأحدٍ من بعدهم نصيبٌ من هذا الفضل))[1] .

وأجدني منجذبةً إلى قولي الأستاذ الخطيب والشيخ المدرسيّ، لله درُّهما على هذه الإشراقات في النظر إلى آيات القرآن الكريم، وقَدْحِ الفكر وصولا إلى حقيقة المعاني ووضوحها، تنزيهًا لكلام الحقِّ، عزَّ وجلَّ، عن الزيادة واللغو.

٢ــ قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[2]

قيل بزيادة (لا) في هذه الآية الكريمة ما قيل بزيادتها في قوله تعالى: ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[3]. وسأكتفي هنا بإيراد الأقوال التي لا تراها زائدةً، بل ترى بقاءها على ما وضعت له من النفي، فذهب الطبري إلى أنَّ معنى الآية ((أي شيءٍ منعك (ألا تسجد) أنْ تدع السجود

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٢٧ / ٨٠٢ – ٨٠٦)

(٢) الاعراف: ١٢

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء (٣٧٤/١)، معاني القرآن للأخفش (٢٩٤/٢– ٢٩٥)، إعراب القرآن المنسوب للزجاج (١٣١/١– ١٣٢)، معاني القرآن للنحاس (١٤/٣–١٥)، مشكل إعراب القرآن (٢٨٤/١)، الكشاف (٦٨/٢)، الإيضاح في شرح المفصل (٣٦٥/٢)، البرهان في علوم القرآن (٧٩/٣) (٣٥٧/٤)، إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن (٥٠١/١)، مجمع البحرين (٩٥/٤) وغيرها.

لآدم (إذْ أمرتك) أنْ تسجد... فالملامة لم تلحق إبليس إلا على معصيته ربَّه بترك السجود لآدم إذْ أمره بالسجود له))[1].

وقد عرض الطبريُّ ثلاثة آراء للعلماء في تأويل هذه الآية الكريمة:

الأوَّل: (لا) زائدة، والمعنى: (ما منعك أن تسجد) ((فقال بعض نحويي البصرة معنى ذلك (ما منعك أن تسجد) و(لا) ههنا زائدة... وقال بعض نحويي الكوفة نحو القول الذي ذكرناه عن البصريين في معناه وتأويله، غير أنَّه زعم أنَّ العلَّة في دخول (لا) في قوله (أنْ لا تسجد) أنَّ في أوَّل الكلام جحدًا يعني بذلك قوله: (لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِين) فإنَّ العرب ربَّما أعادوا في الكلام الذي فيه جحد الجحد للاستيثاق والتوكيد له))[2].

الثاني: ليست (لا) بحشو في هذا الموضع ولا صلة، ولكنَّ المنع بمعنى القول، أي أنَّ ((تأويل الكلام (من قال لك لا تسجد إذْ أمرتك بالسجود) ولكن دخل في الكلام (أنْ) إذا كان المَنْع بمعنى القول لا في لفظه كما يفعل ذلك في سائر الكلام الذي يضارع (القول) وهو له في اللفظ مخالف، كقولهم (ناديت أنْ لا تقم) و(حلفت أنْ لا تجلس) وما أشبه ذلك في الكلام))[3].

الثالث: أنَّ معنى المنع الحول بين المريد وما يريده ((والممنوع مضطّر به إلى خلاف ما منع منه كالممنوع من القيام وهو يريده، فهو مضطّر من الفعل إلى ما كان خلافا للقيام إذ كان المختار للفعل هو الذي له السبيل إليه وإلى خلافه فيؤثر أحدهما على الآخر فيفعله، قال فلمَّا كانت صفة المنع ذلك فخُوطب إبليس بالمنع فقيل له: (ما منعك ألا تسجد) كان معناه كأنَّه قيل له: (أيّ شيءٍ اضْطَرك إلى أنْ لا تسجد)))[4].

ثم خلص إلى القول: ((والصواب عندي من القول في ذلك أنْ يُقال: إنَّ في الكلام محذوفًا قد كفى دليل الظاهر منه وهو أنَّ معناه (ما منعك من السجود فأحوجك أنْ لا تسجد) فترك ذكر أحوجك استْغناء بمعرفة السامعين... وإنَّما قلنا إنَّ هذا القول أَوْلَى بالصواب لما قَدْ مضى من دلالتنا قبل على أنَّه غير جائز أنْ يكون في كتاب الله شيءٌ لا معنى له وأنَّ لكلِّ كلمةٍ معنًى صحيحًا، فتبيَّن بذلك فساد قول من قال (لا) في الكلام حشو لا معنى لها))[5].

---

(١) تفسير الطبري (٨/١٢٩)

(٢) تفسير الطبري (٨/ ١٢٩)

(٣) تفسير الطبري (٨/١٣٠)

(٤) تفسير الطبري (٨/١٣٠)

(٥) تفسير الطبري (٨/ ١٣٠)

ووافق الطبرسي الطبري في ما ذهب إليه وكان تقديره لمعنى الآية ((﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي ما دعاك إلى أنْ لا تسجد وما اضْطَرَّك إليه))[١].

ورأى الرازي أنَّ سبب الإشكال الحاصل في هذه الآية الكريمة أنَّ ((ظاهر الآية يقتضي أنَّه تعالى، طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود، وليس الأمر كذلك، فإنَّ المقصود طلب ما منعه من السجود، ولهذا الإشكال حصل في الآية قولان:

القول الأوَّل: وهو المشهور أنَّ كلمة (لا) صلة زائدة، والتقدير (ما منعك أنْ تسجد؟)...

القول الثاني: إنَّ كلمة (لا) ههنا مفيدة وليست لغوًا وهذا هو الصحيح، لأنَّ الحكم بأنَّ كلمة في كتاب الله لغو لا فائدة فيها مُشْكِل صعب، وعلى هذا القول ففي تأويل الآية وجهان: الأوَّل: أنْ يكون التقدير: أيُّ شيءٍ منعك عن ترك السجود؟ ويكون هذا الاسْتفهام على سبيل الإنكار، ومعناه: إنَّه ما منعك عن ترك السجود؟. كقول القائل لمن ضربه ظلما: ما الذي منعك من ضربي، أدينك أم عقلك أم حياؤك؟ والمعنى: أنَّه لم يوجد أحد هذه الأمور، وما امْتنعت من ضربي. الثاني: قال القاضي: ذكر الله المنع وأراد الداعي فكأنَّه قال: ما دعاك إلى أنْ لا تسجد؟ لأنَّ مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يُتعجَّب منها ويُسأل عن الداعي إليها))[٢].

وعلَّل الزركشيّ كونها ليست بزائدة من وجهين: ((أحدهما: انَّ التقدير ما دعاك إلى أنَّ لا تسجد، لأنَّ الصارف عن الشيء داعٍ إلى تركه فيشتركان في كونهما من أسباب عدم الفعل.

الثاني: انَّ التقدير ما منعك من أنْ لا تسجد وهذا أقرب من قبله لأنَّ فيه إبقاء المنع على أصله وعدم زيادتها أَوْلَى، لأنَّ حذف حرف الجر مع (أنْ) كثيرٌ كثرةً لا تصل إلى المجاز والزيادة في درجته))[٣].

وبعد: فقد اسْتدلَّ القائلون بزيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ بورود الآية الكريمة في موضعٍ آخر من غير (لا) في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٤] وهذا ليس بالدليل القوي لأنَّ الآيتين يسبقهما ويلحق بهما آيات أُخَر تُؤَثِّر في

---

(١) مجمع البيان (٢/٤٠١ – ٤٠٢)

(٢) تفسير الرازي (١٤/٣١– ٣٢)

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/٧٩ – ٨٠)، وينظر التحرير والتنوير (٨/٣٩ – ٤٠)، أساليب التوكيد في القرآن الكريم (٣٧٨)

(٤) سورة ص:٧٥

معناهما ولا يمكن اجْتزاؤهما من السياق العام، ولذلك أجد من المناسب أنْ أورد الآيتين الكريمتين مُتَّصلة كلّ منهما بسياقها العام:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ*قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ*فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ*فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ*إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ*قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ*قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[2].

في الآية الأُولى حين قال، جلَّ جلاله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾، كان الكلام بصيغة الماضي، والفاء في قوله (فسجدوا) واقعةٌ في جواب الطلب والمعنى بعد أنْ خلقناكم وصورناكم، قلنا للملائكة اسجدوا، أي أنَّ الله، عزَّ وجلَّ، أصدر الأمر للملائكة بالسجود فَنفَّذوا وأطاعوا وسجدوا، واستثنى، عزَّ وجلَّ، إبليس لعدم طاعته الأمر بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ﴾ في حين كان استثناء إبليس في الآية الثانية لأسباب أخرى موضَّحة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ ممَّا يوضِّح لنا بجلاء أنَّ التركيز في الآية الأولى من بدايتها كان على عدم طاعة إبليس أمر الله بالسجود ولذلك كان من المهم أنْ تسبق كلمة (تسجد) بـ(لا) اسْتِنْكارًا للدّافع (المانع) واستنكارًا لعدم السجود (الفعل).

فكانت صيغة الآية الأولى مقترنةً بـ(إذ) وهو ظرف زمان ماض[3]، والعامل فيه (تسجد)[4]. وذكر (إذْ) وما تدلُّ عليه يتماشى مع سياق الآيات من البداية، لأنَّ الكلام كان بصيغة الماضي، واقتران (إذْ أَمَرْتُك) بقوله (أَلا تَسْجُد) دليل على إنكار الفعل مع إنكار الدافع، وقوله (أنْ لا) في موضع الحال[5].

وعلى هذا يكون تقدير المعنى (ما الحال أو الدافع الذي منعك أو صدَّك عن طاعة الأمر بالسجود فدعاك إلى أنْ لا تسجد حين أمرتك) .

---

(١) الأعراف:١١-١٢

(٢) سورة ص: ٧١ – ٧٦

(٣) ينظر رصف المباني في شرح حروف المعاني (٥٩)، همع الهوامع (١٧١/٢)، معاني النحو (٢٠٥/٢)

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن (٢٨٤/١)

(٥) ينظر التبيان في إعراب القرآن (٥٥٨/١)

والاسْتفهام في الآية إنكاري، إنكار لعصيان إبليس، فبئس الدافع الذي منعه من السجود وهو دافع سيِّئ، وبئس الفعل ألا يسجد حين أمره الله أمرًا مباشرًا بلا رسول، وهو عصيان للأمر حين إصداره من الله، ذي الجلال، وهو أمر عظيم واقْتَضى ذِكْر (لا) ليكون:

استنكارًا للدَّافع الخاطئ (ما منعك)

واستنكارًا لفعل العصيان (لا تَسْجُدَ)

وكأنَّ التقدير (لم تسجد) حين أمرتك، وذلك معصية توجب عقابك، ودافعك الخاطئ لذلك دافعٌ خطيرٌ مُنْكَرٌ يُوجِب الزيادة في عِقابك وطردك.

وممَّا يدلُّ ويؤكِّد أنَّ السؤال في الآية الكريمة عن الحال الذي اعتقده إبليس في نفسه فصدَّه عن تنفيذ أمر الله بالسجود، هو جواب إبليس ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، هذا هو الحال الذي يعتقد إبليس به أنَّه أفضل من آدم.

وجواب إبليس هذا حيَّر القائلين بزيادة (لا) في الآية الكريمة، لأنَّ الجواب لا يتماشى مع السؤال، إذ السؤال في تقديرهم (ما منعك أنْ تسجد) فيجب أنْ يكون الجواب (منعني كذا وكذا) ولكن الجواب كما هو واضح يشرح فيه إبليس حاله التي يحسبها أفضل من حال آدم.

أمَّا الآية الثانية؛ فبداية السياق تدلُّ على المستقبل، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان[1]، ثم يدلُّ السياق على تمام الأمر ويسجد الملائكة ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾.

إذا أنعمنا النظر في صيغة السؤال في الآيتين الكريمتين نجدها في الآية الأولى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ثم يأتي جواب إبليس، كما قدَّمت القول فيه، يتوافق مع السؤال.

في حين نجد السؤال في الآية الثانية أطول، وذُكِر به خياران ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ والاسْتفهام في الآية حصر على إنكار الدافع والمانع من السجود، بدليل الخيارين اللذين أكمل بهما الله، جلَّ جلاله، استفهامه.

أمَّا جواب إبليس، وإنْ كان هُوَ هُو في الآيتين، ولكنَّ معناه مختلفٌ بما يتوافق مع السياق، فجواب إبليس في هذه الآية كأنَّه يقول اسْتكبرت.. لأنِّي مخلوقٌ مِنْ نَار وآدم مخلوقٌ من طين وهذه الحقيقة تجعل إبليس يعتقد أنَّه أفضل من آدم، ولذلك اسْتكبَر عن السجود لآدم.

---

(١) ينظر همع الهوامع (١٧٨/٢)، معاني النحو (٢٠٦/٢)

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]

اسْتدلَّ عددٌ من النحويين والمفسِّرين على زيادة (لا) في (لا أُقْسِمُ) بهذه الآية، وتمامها ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. قال الزمخشريُّ: (((فلا وربِّكَ) معناه فَوَرَبِّكَ، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾[2] فـ(لا) مزيدة لتأكيد معنى القسم كما زيدت في ﴿لِئَلا يَعْلَمَ﴾[3] لتأكيد وجوب العلم و(لا يُؤْمِنُون) جواب القسم))[4]. وقال العكبريُّ: ((قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنَّ (لا) الأولى زائدة، والتقدير، (فوربك لا يُؤْمِنُون)، وقيل الثانية زائدة، والقسم معترضٌ بين النفي والنفي))[5] .

ومع أنَّ معنى (لا) عند قراءة الآية الكريمة واضحٌ لا يحتاج إلى تفسير، ولا يُمْكِن إحالة (لا) على الزيادة وتحييدها عن المعنى الذي يفرضه سياق الآية الكريمة، وهو كون (لا) نفيًا لشيءٍ مُتَوَهَّمٍ، أو مُتَقَدِّم الذكر، إلا أنَّني أُورِد عددًا من الأقوال التي تُؤَيِّد هذا المعنى وتُؤَكِّده:

قال الطبريُّ: ((يعني جلَّ ثناؤه، بقوله (فلا): فليس الأمر كما يزعمون أنَّهم يؤمنون بما أُنْزِل إليك وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ويَصُدُّون عنك إذا دُعُوا إليك يا محمَّد. واسْتَأْنَف القسم جلَّ ذكره، فقال: وربِّك يا محمَّد لا يُؤْمِنون أي لا يُصَدِّقُون بي وبك وبما أُنْزِل إليك حتَّى يُحَكِّمُوك فيما شَجَرَ بينهم. يقول: حتَّى يجعلوك حكمًا بينهم فيما اخْتَلط بينهم من أمورهم فالْتَبَس عليهم حُكْمه))[6].

وقريب من هذا، ما رآه أبو عليٍّ الفارسيِّ من أنَّ (((لا) الأولى نافيةٌ لشيءٍ يُتَوَهَّم، أو مُتَقَدِّم الذكْرِ في إيمانهم، فنفى ذلك بـ(لا) فقيل: فلا، ثم قيل: (وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُون)، فـ(لا) الثانية مُتَعَلِّقَة بالقسم، مُتَلَقِّيَة له وهي تدلُّ على المحذوف المُتَقَدِّم الذكْرِ أو المُتَوَهَّم، ويَحْسُنُ الحذف لدلالة هذا المَذْكُور المَنْفِيّ بالقسم عليه))[7].

---

(١) النساء: ٦٥

(٢) الحجر: ٩٢

(٣) الحديد: ٢٩

(٤) الكشاف (٥٣٨/١)، وينظر روح المعاني (١٣٥/٢٩-١٣٦)

(٥) التبيان في إعراب القرآن (٣٣٩/١)، وينظر التأويل النحوي في القرآن (١٣٧٩/٢)

(٦) تفسير الطبري (١٥٧/٥ – ١٥٨)، وينظر تفسير الرازي (١٦٣/١٠)، تفسير القرطبي (١٨٣٦/٢)، تفسير المنار (٢٣٩/٥)

(٧) المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات (٥٧١)

والكلام على حكم بعض النحويين والمفسِّرين بزيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. يُؤدي بنا إلى الحديث عن الأمثلة والشواهد النحويَّة التي يضربها كثيرٌ مــن المفسِّرين والنَّحويين للاستِدْلال على زيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) في القرآن الكريم، وذلك لمُشَابَهَة هذه الأمثلةِ لصيغة الآية الكريمة، فيقولون: إنَّ (لا) في صيغة (لا أُقْسِـمُ) زائــدةٌ كقولنا: (لا والله مَا فَعَلْتُ كَذَا) (لا وَرَبِّيْ إنَّه لَحَقٌّ) وكقول امْرِئ القيس[2].

لا وَأَبِيْكِ ابْنَةَ العَامِرِيِّ   لا يَدَّعِيْ القَوْمُ أَنِّيْ أَفِر

فالأسلوب في الأمثلة والشاهد الشعريِّ هو الأسلوب نفسه في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (لا) حرف نفيٍ، وبعده قسمٌ مؤلفٌ من (حرف قسمٍ ومُقْسَم به)، والواضح للعيان أنَّ الأسلوب في الآية الكريمة والأمثلة مُخْتَلِف عن الأسلوب في قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِــ﴾ إذْ هذه الآية مؤلفةٌ من (لا) حرف نفي وبعده (فعل القسم) وبعده (المراد القَسَمُ به).

وقد بينَّا أنَّ (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يمكن أنْ تكــون زائــدةً، والمعنى المختار في الآية الكريمة، وفي قول امْرِئ القيس: أنْ تكون (لا) نافيةٌ لما في ذهن السَّامع من احْتِمالاتٍ واردةٍ أو شكوكٍ مفترضةٍ.

و(لا) في البيت الشعري يمكن أنْ تكون نفيًا لما شاع بين الناس حول أمرٍ من الأمور، أو لما يمكن أنْ يلمسه الإنسان من ظنونٍ وانطباعاتٍ في عيون الناس ووجوههم، مثال ذلك (ابتسامات ٌ دالةٌ، نظراتٌ ذات معنى، تجهماتٌ مقصودة... إلى آخره)، وهي بذلك تُمَهِّد لنفــي الجواب وتوكيده.

ولتوضيح اخْتِلاف الأسلوب في (لا أُقْسِمُ) عن (لا وَرَبِّــكَ)، (لا وَأَبِيْــكِ) أذكــر قــول الرازي: ((إنَّ قوله (لا وَأَبِيْكِ) قسمٌ على النفي، وقوله (لا أُقْسِمُ) نفيٌ للقسم، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائزٍ، وإنَّما قُلْنَا إنَّ قوله (لا أُقْسِمُ) نفيٌ للقسم، لأنَّه على وزن قولنا (لا أَقْتُلُ، لا أَضْرِبُ، لا أَنْصُرُ)، ومعلومٌ أنَّ ذلك يفيد النفي، والدليل عليه أنَّه لو حَلَفَ (لا يُقْسِمُ) كان البَرُّ بترك القسم، والحنث بفعل القسم، فظهر أنَّ البيت المذكور، ليس من هذا الباب))[3].

وعلى هذا، يكون الفَرْقُ بين (لا وَأَبِيْكِ) و(لا أُقْسِمُ) أنَّ قوله (لا وَأَبِيْكِ) قسمٌ على النفي لأنَّ قوله (وَأَبِيْكِ) قسمٌ، وليس فعل قسم كــ(أُقْسِمُ، أَحْلِفُ) فــ(لا) هنــا لا يُمْكــن أنْ تنفــي المُقْسَمَ به، أمَّا (لا أُقْسِمُ) فنفيٌ للقسم، لأنَّ ما بعد (لا) فعل القسم ثُمَّ المراد القَسَم به.

---

(١) النساء: ٦٥

(٢) الديوان (١٠٩)

(٣) تفسير الرازي (٢١٤/٣٠)

هذا فضلا عن أنَّ أسلوب النفي في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] وقول امْرئ القيس:

لا وَأَبِيْكِ ابْنَةَ العَامِرِيِّ لا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّيْ أَفِر

يختلف عن أسلوب النفي الذي يضرب في أمثلة القائلين بزيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) كقولهم: (لا والله مَا فعَلْتُ كَذَا) فمعنى الأوَّل، كما وضحته، الإيذان بنفي المَقْسَمِ عليه، أمَّا الأسلوب في الأمثلة فيستعمل (لا) ردًا لكلامٍ سابقٍ، ولزيادة التوضيح أذكر قول د.فاضل السامرائيِّ في الفرق بين الأسلوبين، والفرق بينهما وبين صيغة (لا أُقْسِمُ) الواردة في القرآن الكريم: ((إنَّ الاستِعْمال يدلُّ على أنَّهما مختلفان: أمَّا (لا والله) فتُستْعمل على ضربين:

الأوَّل: أنْ تكون ردًا لكلامٍ سابقٍ، مُثْبتًا أو مَنْفِيًّا، أو طَلَبًا، وذلك نحو قولك لمن قال لك: (أَرَاكَ قد مِلْتَ إليه، لا والله مَا مِلْتُ إليه). ونحو قولك لمن قال لك: (أَكْرِمْ فُلانًا، لا والله لا أُكْرِمُهُ). وكقولك لمن قال لك: (ألا تَذْهَبُ إليه؟ لا والله لا أَذْهَبُ إليه).

وقد يكون جوابها مثبتًا، فتقول لمن قال لك: (أرى فلانًا كاذبًا. لا والله إنَّه لصادقٌ).

والضرب الآخر، وهو المقصود: أنْ تقع ابْتِدَاءً من غير كلامٍ سابقٍ، والغرض من هذا النفي الإيذان بنفي المُقْسَمِ عليه، وتوكيد النفي الذي يجيء فيما بعد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وكقول امْرِئ القيس:

لا وَأَبِيْكِ ابْنَةَ العَامِرِيّ لا يَدَّعِيْ القَوْمُ أَنِّيْ أَفِر

فلا يكون جوابها إلا منفيًا، والأمر فيها كما قال، من قال إنَّها إيذانٌ بالنفي وتوكيدٌ له، وأمَّا (لا أُقْسِمُ)، فالأمر فيها مختلف، فإنَّ جوابها يكون مثبتًا ومنفيًا، ولم يَرِدْ في القرآن الكريم إلا مثبتًا.

وهذا التعبير أي القسم، لونٌ من ألوان الأساليب في العربية، تُخْبِرُ صَاحِبَك عن أمرٍ يَجْهَله أو يُنْكِره، وقد يحتاج إلى قسمٍ لتوكيده، لكنَّك تقول له: لا داعي لأنْ أحلف لك على هذا، أو لا أُرِيْد أنْ أحلف لك أنَّ الأمر على هذا الحال، ونحوه مُسْتَعْمَل في الدارجة عندنا: نقول: ما أَحْلِفُ لك أنَّ الأمر كيت وكيت، أو ما أَحْلِفُ لك بالله، لأنَّ الحلفَ بالله عظيمٌ إنَّ الأمر على غير ما تظنُّ، أو ما أكول والله إنَّ الأمر كذا وكذا (أي لا أقول والله)، فأنت تخبره بالأمر، وتقول له لا داعي للحلف بالمعظَّمات، على هذا الأمر، فأنت أخبرته ما أردت أنْ تُخْبِره به، وعظَّمت له ما أردت أنْ تُعَظِّمه ممَّا يستحق أنْ تُقْسِمَ به، ثم تقول له: إنَّني لا أُرِيد أنْ أُقْسِمِ لك بما هو عظيمٌ على هذا الأمر))[٢].

---

(١) النساء: ٦٥

(٢) معاني النحو (٤/١٧٣- ١٧٥)

٤ــ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ...﴾[١]

لَمْ يكنِ الحال في هذه الآية الكريمة كغيرها من الآيات التي استدلَّ بها النَّحويُّون والمفسِّرون على زيادة (لا)، فقد تعدَّدت الآراء في إعراب (لا) من (ألا تُشْركُوا)، وفي معناها.

وفي إيْضَاح معنى الآية وأوجه إعرابها، قال الطبريُّ: ((تعالوا أيُّها القوم أقرأ عليكم ما حَرَّمَ ربُّكم حقًا يقينًا لا الباطل تخرصًا كخِرْصِكُم على الله الكذب والفِرية ظنًّا، ولكنْ وحيًا من الله أوحاه إليَّ وتنزيلا أنزله عليَّ (ألا تُشْرِكُوا بالله شيئًا من خلقه، ولا تَعْدِلوا به الأوثان والأصنام ولا تعبدوا شيئًا سواه، وبالوالدين أحسانًا...) وأمَّا (أنْ) في قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فرفعٌ لأنَّ معنى الكلام (قُلْ تَعَالوا أَتْلُ ما حرَّمَ رَبُّكُم عليكم هو أنْ لا تُشْرِكُوا به شيئًا) وإذا كان ذلك معناه كان في قوله (تُشْرِكُوا) وجهان: الجزم، وتوجيهه (لا) إلى معنى النهي. والنصب على توجيه الكلام إلى الخبر ونصب تُشْرِكُوا بـ(أنْ لا) كما يُقَال أَمَرْتُك أنْ لا تَقُوم. وإنْ شِئْتَ جعلت (أنْ) في موضع نصبٍ ردًا على (ما) وبيانًا عنها ويكون قوله (تُشْرِكُوا) أيضًا من وجهي الإعراب نحو ما كان فيه و(أنْ) في موضع رفع، ويكون تأويل الكلام حينئذٍ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾))[٢].

وقال ابْن الشجريّ: ((قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فيحتمل العامل فيه وجوها:
أحدها: في قول بعض مُعْرِبِي القرآن أنْ يكون في موضع نصبٍ بدلا من (ما)، والثاني: أجازه هذا المعرب[٣] أنْ يكون في موضع رفعٍ على تقدير مبتدأ محذوف أي هو (ألا تُشْرِكُوا به شيئًا) ولا يَصِحُّ عندي هذان التقديران إلا أنْ يُحْكَم بزيادة (لا) لأنَّ الذي حرَّمه الله عليهم هو أنْ يُشْرِكُوا به فإنْ حَكَمْت بأنَّ (لا) للنفي صار المُحَرَّم تَرْك الإشراك...
وأجاز الزجَّاج فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنْ يكون منصوبًا بتقدير طرح اللام وإضمار (أُبَيِّن) أي أُبَيِّن لكم الحرام، لأنَّ لا تُشْرِكُوا به شيئًا، لأنَّهم إذا حَرَّمُوا ما أحلَّ الله لهم فقد جعلوا غير الله بمنزلة الله ولمَّا جعلوه في قبولهم منه بمنزلة الله صاروا بذلك مشركين.

الثاني: أنْ يكون محمولا على المعنى فتُضْمِر له فعلا من لفظ الأوَّل ومعناه، وتقديره: أَتْلُ عليكم ألا تُشْرِكُوا به شيئًا، أي أَتْلُ عليكم تَحْرِيْم الإشراك.

---

(١) الأنعام: ١٥١

(٢) تفسير الطبري (٨/٨١- ٨٢)

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن (٢٧٧/١)

الثالث: أنْ يكون منصوبًا بتقدير أوصيكم بألا تُشْرِكُوا به شيئًا، لأنَّ قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ محمولٌ على معنى (وأوصِيْكُم بالوالدين إحسانًا). انْتَهى كلام الزجَّاج.

ويدلُّ على تقدير إضْمَار الإيْصَاء قوله في آخر الآية ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِـهِ﴾... ويحتمـل عندي قوله ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ وجهين آخرين:

أحدهما: أنْ تكون (أنْ) مُفَسِّرَة بمعنى أيْ كالتي في قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾[1] معناه أَيْ امْشُوا وتكون(لا) نهيًا و(أنْ) المُفَسِّرة تُؤَدِّي معنى القول، فكأنَّه قِيْل: (أَقُول لا تُشْرِكُوا به شيئًا)...

والوجه الثاني: أنْ تجعل (عليكم) مُنْفَصِلَةً ممَّا قبلها فتكون إغراءً بمعنى الْزَمُوا، كأنَّه اجتزى بقوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، ثُمَّ قِيْل على وجه الاسْتِئْنَاف (عليكم ألا تُشْرِكُوا به شيئًا) أي عليكم تَرْكُ الإشراك وعليكم إحسانًا بالوالدين...))[2].

وذهب السيِّد محمَّد رشيد رضا إلى أنَّ ((قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ شروعٌ في بيان ما حرَّم الرَّبُّ، وما أوصى به من البرِّ، وقد أورد بعضه بصيغة النَّهي عن الشيءِ وبعضـه بصيغة الأمر بِضِدِّه حسب ما تقتضيه البلاغة كما سيأتي. و(أنْ) تفسيريَّة ونَدَع النُّحاة فـي اضْطِرابهم وخِلافهم في تصنيف ما في حَيِّزها من النهي والأمر على قواعـدهم، فـنحن لا يعنينا إلا فهم المعاني من الكلام بغير تكلُّفٍ، وما وافق القرآن من قواعدهم كـان صـحيحًا مُطردًا وما لم يُوَافِقْه فهو غيرُ صحيحٍ وغيرُ مُطَّرد...

بدأ تعالى هذه الوصايا بأكبر المحرَّمات وأفظعها وأشدِّها إفسادًا للعقل والفطرة وهـو الشرك بالله تعالى... وتقدير الكلام: أوَّل ما أتلوه عليكم في بيان هذه المحرَّمات وما يقابلها من الواجبات، أو ما أوصاكم به تعالى من ذلك، كما يدلُّ عليه لاحق الكلام، هو أنْ لا تُشْرِكُوا بالله شيئًا من الأشياء...))[3].

وعلى هذا فـ(لا) في الآية الكريمة ليست زائدةً، والقول بزيادتهـا لـيس لـه صـلة بالمعنى الذي يزداد وضوحًا إذا قرأنا الآية كاملة. قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُـمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَـاقٍ نَحْـنُ نَـرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4] .

---

(١) سورة ص: ٦

(٢) الأمالي الشجرية (٤٨/١- ٤٩)، وينظر التبيـان فـي إعـراب القـرآن (٥٤٨/١)، مغنـي اللبيـب (٤٨٤٤٨٥/١)

(٣) تفسير المنار (١٨٤/٨)

(٤) الأنعام: ١٥١

وأجدني مع ما ذهب إليه صاحب المنار من أنَّ الكلام بعد (أنْ) شروعٌ في البيان، فضلا عن أنَّ في قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ دلالةً واضحةً على أنَّ (أنْ) الواردة بعدها تفسيرية ليتمَّ بعدها تعداد الأمور التي حرَّمها الله، وتُدْرَج متتاليةً بصيغة النهي عن القيام بها و(لا) الواردة قبل الأفعال تكون على ذلك ناهية، والمعنى: قل تعالوا أَتْلُ عليكم الأمور التي حرَّمها الله، وهي: لا تُشْرِكُوا به شيئًا، بالوالدين إحسانًا، لا تَقْتُلُوا أولادكم من إملاقٍ، لا تقربُوا الفواحش، لا تَقْتُلُوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ.

والدليل على أنَّ (لا) في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ ناهيةٌ ورود الأفعال التي عطفت عليها وكانت كلُّها مسبوقةً بلا الناهية. ناهيك بأنَّ من اسْتَدَلَّ بالآية المذكورة ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ على زيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) قد وازن بين ما ادَّعَاه من زيادة (لا) النافية وما ادَّعَاه في (لا) النَّاهية.

ثانيًا: من الجوانب التي اعْتَمَدَ القائلون بزيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) عليها، قولهم: إنَّ القرآن كلَّه كالسورة الواحدة، ولذلك جَوَّزُوا زيادة (لا) في بداية الكلام:

قال مكي القيسي: ((قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ (لا) زائدة لأنَّها في حكم المتوسطة، لأنَّ القرآن كلَّه نزل مرَّةً واحدةً إلى سماء الدنيا، ثُمَّ نزل على النَّبي، عليه السلام، بعد ذلك في نيف وعشرين سنة على ما شاء الله ممَّا يريد أنْ يُنَزِّل شيئًا بعد شيء))[1].

وقال ابْن عطيَّة: ((قال أبو عليٍّ الفارسيّ: (لا) صلة زائدة كما زيدت في قوله: ﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[2]. ويعترض هذا بأنَّ هذه في ابْتِدَاء كلامٍ. ولا تُزاد (لا) وما نحوها من الحروف إلا في تضاعيف الكلام، فينفصل عن هذا بأنَّ القرآن كلَّه كالسورة الواحدة، وهو في معنى الاتِّصَال فجاز فيه هذا))[3].

ولا يخفى ما في هذا القول من مغالطات:

أوَّلها: ادِّعاء الزيادة في القرآن الكريم على نحو ما ذكرت آنفًا

ثانيها: الاسْتِدْلال بالآية الكريمة﴿لِئلا يَعْلَمَ﴾، وقد ناقشت ذلك في موضعه.

ثالثها: ادِّعَاء جواز الابْتِدَاء في الكلام بالزائد والاسْتِدْلال عليه بأنَّ القرآن الكريم كالسورة الواحدة.

لقد رفض كثيرٌ من النَّحويين والمفسِّرين ابْتِداء الكلام بالزائد، وعلى رأسهم الفرَّاء، إذْ جاء في معانيه: ((وقوله: (لا أُقْسِمُ) كان كثيرٌ من النحويين يقولون: (لا) صلة، قال الفرَّاء: ولا يُبْتَدَأ بجحدٍ، ثُمَّ يُجْعَل صلةً يُرَادُ به الطرح، لأنَّ هذا لو جاز لَمْ يُعْرف خبرٌ فيه جحدٌ من خبرٍ لا جحد فيه))[4].

وقال الزمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[5] ((إدخال (لا) النافية على فِعْل القَسَمِ مُسْتفيضٌ في كلامهم وأشعارِهم قال امْرؤ القيس:

لا وأَبِيْكِ ابْنَةَ العَامِرِيّ   لا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّيْ أَفِر   ...

---

(1) مشكل إعراب القرآن (٧٧٦/٢)

(2) الحديد: ٢٩

(3) المحرر الوجيز (٤٠١/٥)، وينظر مجمع البيان (٣٩٣/٥)، تفسير القرطبي (٩١/١٩)، شرح المفصل (٨/ ١٠٩، ١٣٦)

(4) معاني القرآن (٢٠٧/٣)

(5) القيامة: ١

وفائدتها توكيد القسم، وقالوا: إنَّها صلةٌ مثلما في ﴿لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾... واعترضوا عليه بأنَّها إنَّما تُزَاد في وسط الكلام لا في أوَّله. وأجابوا بأنَّ القرآن في حكم سورةٍ واحدةٍ مُتَّصِلٌ بعضه ببعض، والاعْتِراض صحيحٌ لأنَّها لَمْ تقع مزيدةً إلا في وسط الكلام ولكنَّ الجواب غيرُ سديدٍ، ألا ترى إلى امْرِئ القيس كيف زادها في مُسْتَهَلِّ قصيدته، والوجه أنْ يُقَال هي للنفي، والمعنى في ذلك: إنَّه لا يُقسم بالشيء إلا إعْظَامًا له...))[1].

ولي علي كلام الزمخشريّ هذا بعض المآخذ، وإنْ كان رأيه أنَّ (لا) لا تقع مزيدة في بداية الكلام، منها: قوله في بداية كلامه (إدخال لا النافية على فعل القسم مُسْتَفِيْض في كلامهم)، واسْتَشْهَدَ بقول امْرِئ القيس (لا وأَبِيْكِ) ونلحظ هنا أنَّ كلامه لا يتَّفِق مع شاهده لأنَّه قال: (إدْخَال (لا) النافية على فعل القسم). و(لا) النافية في الشاهد لَمْ تَدْخُل على فعل القسم وإنَّما سَبَقَت القَسَمَ نفسه.

وغير هذا، فقد وضَّحْتُ في موضعٍ سابقٍ أنَّ (لا) النافية الواردة في بيت امْرِئ القيس ليست زائدةً وإنَّما هي نفيٌ لما في ذهن السَّامع من احْتِمَالاتٍ أو شكوكٍ مفترضةٍ، وهي مُؤَكِّدَةٌ للنفي الذي أتى بعدها. ولا مسوغ للإعادة هنا.

وإذا عُدْنَا إلى عبارته الأولى التي يقول فيها (إدْخَال (لا) النافية على فعل القسم مُسْتَفِيْضٌ في كلامهم) نجدها غير صحيحة وقد أوضحت في الفصل الأوَّل إنَّ صيغة (لا أُقْسِمُ) لم تُسْتَعْمَل في كلام العرب وأشعارهم، ولَمْ أجِدْهَا إلا في القرآن الكريم[2].

وفي قوله: (الاعْتِراض صحيحٌ لأنَّها لَمْ تقع مزيدةً إلا في وسط الكلام ولكنَّ الجواب غير سديدٍ، ألا ترى إلى امْرِئ القيس كيف زادها في مُسْتَهَلِّ قصيدته) ارْتِبَاطٌ بما قَدَّمْتُ من أنَّ (لا) في بيت امْرِئ القيس ليست زائدةً، ومِنْ ثَمَّ يكون اسْتِشْهَاده في غير موضعه على وفق ما بَيَّنْته.

وللردِّ على من قال: إنَّ حرف النفي (لا) لا يُزَاد في أوَّل الكلام، ولكنْ لأنَّ القرآن الكريم كلَّه كالسورة الواحدة لاتِّصال بعضه ببعض جاز زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[3] لأنَّ أوَّل هذه السورة أصبح جاريًا مجرى وسط الكلام. أذكر قول الرازي: ((إنَّ القرآن كالسورة الواحدة في عدم التناقض، فأمَّا في أنْ يُقْرَن بكلِّ آيةٍ ما قُرِنَ بالآية الأخرى فذلك غير جائزٍ، لأنَّه يُلْزِم جواز أنْ يُقْرَن بكلِّ إثباتٍ حرف النفي في سائر الآيات،

(١) الكشاف (١٨٩/٤)

(٢) ينظر الواقعة: ٧٥ ، الحاقة: ٣٨-٣٩، المعارج: ٤٠، القيامة: ١، ٢ ، التكوير:١٥، الانشقاق:١٦، البلد:١

(٣) القيامة: ١

وذلك يقتضي انْقِلاب كلِّ إثباتٍ نفيًا وانقلاب كلِّ نفيٍ إثباتًــا، وإنَّــه لا يجــوز))[1]. وقــول الزركشي في موضوع الزيادة: ((حقُّها أنْ تكون آخرًا وحشوًا، وأمَّا وقوعها أوَّلا فلا لما فيه من التناقض. إذْ قضية الزيادة إمكان اطِّرَاحِها، وقضية التصْدِير الاهْتِمَام، ومِنْ ثَــمَّ ضُــعِّفَ قول بعضهم بزيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾))[2] .

وما قيل عن رفض زيادة (لا) في مطلع السوَرِ مثل سورتي القيامة والبلد يمكن تطبيقه على باقي المواضع، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[3] فالفاء حرف اسْتِئْنَافٍ و(لا) حرف نفيٍ[4] في مطلع الآية، فالعناية يجب أنْ تكون به لا بحرف الاسْتِئْنَاف، ومِــنْ ثَــمَّ لا تجوز زيادته.

والقول بزيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ وهي واقعةٌ في بداية الكلام ومُسْتَهَلِّه، وجَعْلُ معنى (لا أُقْسِمُ) أُقْسِمُ، مرفوض، لـــ((أنَّ تجويز هذا يُفْضِي إلى الطعن في القرآن، لأنَّ على هذا التقدير يجوز جَعْل النفي إثباتًا والإثبات نفيًا وتجــويزه يُفْضِــي إلــى أنْ لا يبقــى الاعْتِمَاد على إثباته ولا على نفيه))[5].

ولتأكيد كلام الرازي أضرب أمثلةً من القرآن الكريم فيها نفيٌ بـــ(لا) والفعــل الواقــع بعدها على وزن (أَفْعَلُ) لكي تُماثِل قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ في القياس، ولأُبَيِّنَ ما يُمْكِــن أنْ يحصل للمعنى لو عمَّمْنا الزيادة على كلِّ ما يُمَاثِل (لا أُقْسِمُ)، وهذه الأمثلة هي قوله تعــالى:

﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِــعُ إِلَّــا مَــا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]

﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠]

﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨]

﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤]

---

(١) تفسير الرازي (٢١٤/٣٠)، وينظر الخازن (٣٦٩/٤- ٣٧٠)، روح المعاني (١٣٥/٢٩-١٣٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٧٤/٣)

(٣) الواقعة: ٧٥

(٤) ينظر إعراب القرآن للكرباسي (٢٧/٨)

(٥) تفسير الرازي (٢١٤/٣٠)، وينظر غرائب القرآن (١٠٤/٣٠)

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨]

﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٠]

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]

إذا أخذنا أيَّة آيةٍ من هذه الآيات الكريمة وافْتَرَضْنَا زيادة (لا) فيها، فالمُحَصِّلَة ستكون هلاكًا للمعنى وقلبًا له، وهذا ما يَحْصُل إذا وافقنا على زيادة (لا) في الآيات التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ). فلو أخذ مُشْرِكُو قريشٍ مثلا بالآية الكريمة: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهُمْ أَهْلُ بيانٍ وفصاحةٍ وافْتَرَضُوا فيها زيادة (لا) ليصبح معنى الكلام (أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) لوافقهم ذلك وأَسْعَدَهُم أنْ يُدْخِل النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، ما يَعْبُدُون أو بعضه مع ما يَعْبُد، ولكان مدخلا لهم وحُجَّةً، وهُمْ يُكَرِّرُون الطلب مرارًا أنْ يُدْخِل النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، شفاعة أصنامهم، أو ذكرها مُبَجَّلَةً مَزِيدَةً، على آيات الذكر الحكيم.

ثالثًا: جانبٌ آخرٌ اعتَمَد القائلون بزيادة (لا) عليه هو: أنَّ (لا) زائدةٌ في الكلام لغرض التوكيد:

كثيرًا ما أقرأ هذه العبارة في كتب التفسير والنحو[1]عندما يتكلَّم المُفسِّرون والنحويون على زيادة (لا) في الآيات الكريمة، ولكنْ تبقى، دائمًا، العبارة ناقصةً، لعدم بيانها كونها زائدة لتوكيد ماذا؟، ولم أفهم كيف يكون لـ(لا) معنى التوكيد وتثبيت الكلام، ثُمَّ تكون زائدةً، فهي في نظري، إمَّا أنْ تكون زائدةً، أو يكون لها معنًى وأثر، وإلا فالتوكيد نفسه زائدٌ ولا ضرورة له، ووجوده كعدمه.

ثُمَّ كيف تكون (لا) توكيدًا، ونحن نعلم أنَّ المُؤكِّد يكون بعد المُؤكَّد لا قبله؟ وكيف يمكن تطبيق معنى التوكيد بالنفي على صيغة (لا أُقْسِمُ)، أي معنى التوكيد بالنفي على القسم المُثْبَت؟ أقول هذا مع علمي أنَّ التأكيد عن طريق النفي موجودٌ في كلامنا، ولكنّه تأكيدٌ عن طريق النفي، وليس عن طريق زيادة أداة النفي.

تقول د. عائشة عبد الرحمن: ((إنَّ التأكيد عن طريق النفي ليس بغريبٍ عن مألوف استِعْمَالِنَا، فأنت تقول لصاحبك: لا أُوصيك بفلانٍ، تأكيدًا للتوصية ومبالغةً في الاهْتِمَام بها، كما تقول: لَنْ ألحَّ عليك في زيارتنا، فتَبْلُغ بالنفي ما لا تبلغه بالطلب المُباشر الصريح. وليس الأمر هنا مجرَّد تقريرٍ لعدم حاجة الموقف إلى توصيةٍ أو تأكيدٍ أو قسمٍ، وإنَّما يرتهن سرُّ التعبير فيه بما في التأكيد بالنفي، على ما يبدو من تَنَاقُضِهما، من لفتٍ قويٍ، مثيرٍ للانتباه، فَضْلا عمَّا فيه من إقْنَاع نفسي بالغ، قلَّ أنْ يبلغه الأسلوب المعتاد))[2].

أمَّا معنى كون (لا) زائدة في صيغة (لا أُقْسِمُ) فهو أنْ يُلْغَى معنى النفي فيها، فالنحويُّون بعد إلغائهم معنى النفي في (لا) يُحَمِّلُونَهَا فائدةً معنويَّةً هي (التوكيد)، بقولهم: إنَّ الحرف الزائد لابدَّ أنْ يكون له إمَّا فائدة معنويَّة كالتوكيد، أو فائدة لفظيَّة كاسْتِقَامة وزن الشعر أو حسن السجع، ولا يجوز خُلوِّها من الفوائد اللفظيَّة والمعنويَّة معًا وإلا لعُدَّ عبثًا[3]

---

(١) ينظر تفسير الواحدي (١٢٠٣/٢)، الكشاف (٥٨/٤)، المحرر الوجيز (٥/ ٤٨٣)، زاد المسير (١٢٦/٩)، شرح المفصل (١٣٦/٨– ١٣٧)، النهر الماد من البحر المحيط (١٠٥٦/٢)، مغني اللبيب (٤٨٠/١)، البرهان في علوم القرآن (٣٥٧/٤)، تفسير البيضاوي (٢٩٢/٥)، تفسير أبي السعود (١٩٩/٨)، تنوير الأذهان (٥٥٠/٤)، روح البيان (٢٤٣/١٠)، فتح القدير (١٤٦/٥)، روح المعاني (١٥٢/٢٧)، تفسير الصابوني (٣١٤/٣).

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ١٥٦)

(٣) ينظر شرح الكافية (٤٣٣/٤)

وإذا درسنا التوكيد في العربية نجد المُؤكِّدَ يلحق المُؤكَّدَ ولا يَتَقَـدَّم عليـه[1]،وهـذا عكس ما نراه في زيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) إذْ إنَّهم يعدُّون (لا) زائدةً للتوكيـد وهـي تسبق المُؤكَّد، وكون معنى النفي مُلْغًى فيها فهذا يُعِدُّها لأنْ تكون مُؤكِّدَة للقَسَمِ!.

إذن، من الجانب الدلالي لا يستقيم في فَهْمِنا أنْ يتقدَّم (حرف نفي) الفعل ثُـمَّ يُلْغـى معناه الأصليّ (النفي) الذي ((هو شطر الكلام لأنَّ الكلام إمَّا إثباتٌ أو نفي))[2] ليُعْطَى معنـى التوكيد فحرف (لا) جُرِّد من معنى النفي وأصبح مُؤكِّدًا للقسم في نظر القائلين بزيـادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) ولكن كيف تَمَّ التوكيد، وهل تَلَقَّى السامع هذا التوكيد المزعوم بـــ(لا) على القسم، الله وحده يعلم.

ومن الجانب اللغوي، لا يَسْتَقِيْم كذلك، تقديم المُؤكِّد، على ما أسلفنا آنفًا. ولكن لمـاذا يعدُّ النحويُّون (لا) زائدةً مع أنَّها أفادت فائدةً معنويَّةً وهي التوكيد؟ يقول الاسترابادي: ((فإنْ قِيل: فيجب ألا تكون زائدةً إذا أفادت فائدةً معنويَّةً، قيل إنَّما سُمِّيَت زائدةً، لأنَّه لا يتّغّيَّر بهـا أصل المعنى، بل لا يزيد بسببها إلا تأكيد المعنى الثابت وتقويته، فكأنَّها لم تُفِدْ شيئًا، لمّا لَـمْ تُغَاير فائدتُها العارضة: الفائدة الحاصلة قبلها، ويلزمهم أنْ يعـدُّوا علـى هـذا (إنَّ)، ولام الابْتِداء، وألفاظ التأكيد، أسماء كانت، أوْ لا: زوائد، ولم يقولوا به))[3].

ويُفْهَم من هذا النص:

١. أنَّ معنى التوكيد في (لا) الزائدة يختلف عن معنى التوكيد الحقيقيِّ في اللغة العربيَّة الذي يكون إمَّا لفظيًّا أو معنويًّا، ولكلِّ نوعٍ فائدة، وفائدة التوكيد الحقيقيّ بنوعيه في الجملة واضحة، إذ المعنى قبل دخوله يختلف عن المعنى الحاصل بعد دخولـه فـي الجملة، فهو يزيد في المعنى ولا يُبْقِيه على حاله، وليس كـ(لا) الزائدة للتوكيد التي لا تُغَاير فائدتها العارضة الفائدة الحاصلة قبلها، كما قال الاسترابادي، فكأنَّها لم تُفِد شيئًا.
٢. يجب تأكيد قول الاسترابادي: (إنَّما سُمِّيَت زائدةً، لأنَّه لا يَتَغَيَّر بها أصل المعنى) لأنَّ هذه العبارة تُوَضِّح لنا أنَّ معنى الزيادة المُرَاد عند النحويين هو أنْ يكـون دخـول الحرف كخروجه، وأنَّ الفائدة المعنويَّة التي وضعوها لـ(لا) عند زيادتها في صيغة

---

(١) ينظر المقتصد في شرح الإيضاح (٨٩٦/٢ – ٨٩٧)، شرح المفصل (١٣٦/٨)، شرح قطر الندى وبل الصدى (٢٩٢)، شرح ابن عقيل (٢٠٦/٢)، معاني النحو (١٣٤/٤)، النحو الوافي (٥٠٤/٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣٧٥/٢)

(٣) شرح الكافية (٤٣٣/٤)

(لا أُقْسِمُ) ما هي، في رأْيي، إلا محاولة للتأدُّب في الكلام على آيات القرآن الكــريم، فلا يستطيعون القول: إنَّها زائدةٌ لا لفائدةٍ تُذكر وإلا لعدَّ عبثًا.

٣. إنَّ الاسترابادي يستَغْرِب أنْ يكون للحرف معنًى ثُمَّ يُعَدُّ زائدًا، فنجــده يقــول: ((إنَّ العجب أنَّهم لا يرون تأثير الحروف معنويًّا... مانعًا من كون الحروف زائدة، ويرون تأثيره لفظيًّا، ككونها كافةً: مانعًا من زيادتها))[١].

ومن المعاني التي أعطوها لزيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِــمُ) غيــر معنــى التوكيد ما ذكره أحد المفسِّرين من أنَّ (لا) زائدةٌ للزينة[٢]، ولكنَّه لم يوضِّح المقصود بالزينة هل هي زركشة أو زخرفة لتزيين كلمات الله، تبارك وتعالى؟!!.

ومعنى قولهم: إنَّ (لا) زائدةٌ للزينة، أنْ يكون دخولها في الكلام كخروجها منــه، فــلا يوجد لها أيّ مكانٍ في المعنى وإنَّما فائدتها لفظيَّة، وهذا كلامٌ مردودٌ على صاحبه لأســبابٍ كثيرةٍ ذكرتها في هذا المبحث، ولا حاجة لتكرارها.

أو أنَّ المقصود الفائدة اللفظية لــ(لا)، كأنْ تُزَاد في الكلام لإقامــة وزن الشــعر، أو لحسن السجع، وهذا كلامٌ يُنَزَّه القرآن الكريم عنه، لأنَّ كلام الله تعالى ﴿وَمَــا هُــوَ بِقَــوْلِ شَاعِرٍ﴾[٣]، و﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيــدٍ﴾[٤] ثُــمَّ إنَّ كلام الله لا يَخْضَع لعلم العروض ولا يحتاج إلى تقطيعٍ من أجل أنْ يُوزَن على بحور الشــعر المعروفة، ومن ثَمَّ لا نفترض فيه الزيادة لإقامة الأوزان ضرورةً شعريَّةً أو سجعيَّةً.

ومع أنَّنا لا نجد من المفسِّرين والنحويين من تَبَنَّى هذا الرأي ومال إليه إلا أنَّــه أُورد رأيًا بين الآراء التي قيلت في زيادة (لا).

---

(١) شرح الكافية (٤/٤٣٦)

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٩/٩١– ٩٢)

(٣) الحاقة: ٤١

(٤) فصلت: ٤٢

الرأي الثاني
(لا) في (لا أُقْسِمُ) ردٌ لكلامٍ يُخَالِفُ المُقْسَمَ عليه، و(أُقْسِمُ) كلامٌ مُسْتَأْنف

ورد هذا الرأي عند كثيرٍ من المفسِّرين والنحويين، فمنهم من ذكره رأيًا ضمن الآراء التي قيلت في صيغة (لا أُقْسِمُ)، ومنهم من تَبَنَّاه رأيًا ومعنًى مُنْتَخَبًا لـ(لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ).

قال الفرَّاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] ((... ولكنَّ القرآن جاء بالردِّ على الذين أنكروا البعث والجنَّة والنَّار فجاء الإقسام بالردِّ عليهم في كثيرٍ من الكلام المُبْتَدأ منه، وغير المبتدأ: كقولك في الكلام: لا والله لا أَفْعَلُ ذَاكَ، جعلوا (لا) وإنْ رأيتها مُبْتَدأة، ردًا لكلامٍ قد كان مَضَى، فلو أَلْقَيْت (لا) ممَّا يُنْوَى به الجواب لَمْ يكن بين اليمين التي تكون جوابًا، واليمين التي تُسْتَأْنَف فرقٌ. ألا ترى أنَّك تقول مُبْتَدِئًا: (والله إنَّ الرسولَ لحقٌّ) فإذا قلت: (لا والله إنَّ الرسولَ لحقٌّ) فكأنَّك أَكْذَبْتَ قوما أنكروه، فهذه جهة (لا) مع الإقسام، وجميع الأيمان في كلِّ موضعٍ ترى فيه (لا) مُبْتَدأ بها، وهو كثيرٌ في الكلام))[2]. فالفرَّاء في تفسيره لقوله تعالى: (لا أُقْسِمُ) من أوَّل سورة القيامة، جعل (لا) في هذه الآية ومثيلاتها (ردًا على الذين أنكروا البعث والجنَّة والنَّار) فجاء الإقسام بالردِّ عليهم، وضرب مثلا لصيغة (لا أُقْسِمُ) في الكلام وهي قولك: (لا والله لا أفْعَلُ ذَاكَ).

وكنت قد أَوْضَحْتُ آنفًا الفرق بين قولنا (لا أُقْسِمُ) وبين (لا وَأَبِيكَ)، (لا وَرَبِّكَ) ثُمَّ الفرق بينهما وبين (لا والله لا أَفْعَلُ ذَاكَ) في الرأي الأوَّل: القول بزيادة (لا)، وأُلَخِّصُ الفرق هنا بأنَّ قولك: (لا وَأَبِيكِ) قسمٌ على النفي، والواضح أنَّ بعد (لا) النافية أتى المُقْسَمُ به، وتكون (لا) هنا نافية لما يُتَوَهَّم أو لما في أذهان الناس من احْتِمَالاتٍ أو... إلى آخره، ويكون الكلام بعدها منفيًّا مثل قول امْرِئ القيس:

(لا وأَبِيكِ) ابْنَةَ العَامِرِيّ لا يَدَّعِيْ القَوْمُ أَنِّي أَفِر

---

(١) القيامة : ١

(٢) معاني القرآن (٣/٢٠٧)، وينظر تفسير الطبري (٢٧/٣٠٣)، الأزهية (١٦٣)، تفسير البغوي (٤/٢٨٩)، مجمع البيان (٥/٣٩٣-٣٩٤)، زاد المسير (٨/١٥٠)، الخازن (٤/٢٤١)، تفسير الثعالبي (٤/٢٥٦)، تفسير أبي السعود (٨/١٩٩-٢٠٠)، روح المعاني (٢٧/١٥٢ – ١٥٣).

فنلحظ قوله (لا يَدَّعِي) منفيًا والنفي الأوَّل ليس فقط يُمَهِّد له ويُؤَكِّدُه، وإنَّما هو يُوْصِلُ أهمّ ما في بيت الشعر عاجلا، وهو النفي ليطرق الأسماع من فوره ملخِّصًا مُؤَكِّدًا موضوع النفي وأمره.

أمَّا قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾؛ فنفيٌ للقسم، وما يتبع (لا) النافية فعل القسم لا المُقْسَم به، ولذا لا يجوز قياس هذا على ذاك، وصيغة (لا أُقْسِمُ) لم تَرِدْ إلا في القرآن الكريم ممَّا يدلُّ على أنَّها صيغةٌ خاصَّة.

أمَّا قياس قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ على قولنا: (لا والله لا أَفْعَلُ ذاك)، والحكم على وفق هذا القياس إنَّ مثل قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ كثيرٌ في الكلام، فمردودٌ للخطأ في القياس، لأنَّ (لا) في قولنا: (لا والله لا أَفْعَلُ ذاك) ردٌّ لكلامٍ قيل مباشرةً قبل (لا) كأنْ يقول لنا أحدهم (أراك تَفْعَلُ المُنْكَر)، فيقول (لا) لنفي فعله المنكر، ثُمَّ يُقْسِمُ مُؤَكِّدًا جوابه (والله لا أَفْعَلُ ذَاكَ). وقد تكون (لا) ردًا لما يلمسه الإنسان من ظنونٍ أو انطباعاتٍ في عيون الناس ووجوههم، كأنْ يكون أناسٌ مجتمعين في جلسةٍ ويتساءلون عن سبب أمرٍ ما واتَّجهت الأنظار الى أحد الجالسين، فلابدَّ أنْ يكون جوابه مُسْرِعًا (لا والله لست أنا) نافيًا ما دلَّ عليه تَحَوُّل أنظارهم إليه.. أمَّا (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ)؛ فنفيٌ لفعل القسم، وإنْ كان المعنى أنْ تكون (لا) في هذه الصيغة نفيًا لما في أذهان الكفَّار ممَّا يُخَالِفُ المُقْسَم عليه أمرٌ له ما يعزِّزه، ولا سيَّما عندما يكون المنفي واضحًا وحاضرًا في أذهان السامعين للآية. إلا أنَّه أمرٌ مرفوضٌ مدفوعٌ في صيغة (لا أُقْسِمُ) لأمرين:

أحدهما: مشكلة فصل الفعل (أُقْسِمُ) عمَّا سبقه من مُلازِمَةٍ، وهي (لا) النافية، فالمعنى إذا كان على أنَّ (لا) ردٌّ على المكذبين، ومن ثَمَّ اسْتَأْنَفَ القسم، فلابدَّ من وقفٍ بعد (لا)، وهذا ما لا نجده في رسم المصحف، فلا توجد أيَّة إشارةٍ إلى وقفٍ لازمٍ أو واجبٍ أو جائزٍ تفيد الفصل بين (لا) و(أُقْسِمُ)، فضلا عن أنَّني رجعت إلى كتب القراءات، مُتَوَاترها وشَاذِّها[1] فلم أجد إشارةً إلى الفصل بين (لا) و(أُقْسِمُ) وكلُّ ما عثرت عليه في كتب القراءات قراءة شاذَّة تشير إلى زيادة الالْتِحَام والالْتِصَاق بين (لا) و(أُقْسِمُ) حتَّى تُصْبِحا (لأُقْسِمُ) وسأتكلَّم على هذه القراءة بشكلٍ مُنْفَرِدٍ في موضعها، إنْ شاء الله.

ولإظهار أهميَّة الوقف في معرفة دلالة الألفاظ وتجلية المعاني أذكر قول الزركشيِّ في الوقف والابْتِدَاء: ((وهو فنٌّ جليلٌ وبه يُعرف كيف أداء القرآن ويترتَّب على ذلك فوائد كثيرة واسْتِنْبَاطات غزيرة، وبه تُبَيَّن معاني الآيات ويؤمن الاحْتِراز عن الوقوع في المشكلات...

(١) ينظر كتاب السبعة في القراءات (٦٢٤)، النشر في القراءات العشر (٢/٢٨٢)، إتحاف فضلاء البشر في قراءات القراء الأربعة عشر (٥٣١)، وغيرها.

وقد جاء عن ابْن عمر أنَّهم كانوا يتعلَّمون ما ينبغي أنْ يُوقف عنده كما يتعلَّمــون القــرآن. وقد جاء عن ابْن عبَّاس ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾[1] قال فــانْقَطَع الكلام واسْتَأْنس له ابْن النحَّاس بقول الرسول، صلَّى الله وسلَّم، للخطيب (بئس الخطيب أنت) حين قال (من يُطِعِ الله ورسوله فقد رشد ومن يَعْصِهِمَا) ووَقَفَ، قال قد كان ينبغي أنْ يصل كلامه فيقول (ومَنْ يَعْصِهِمَا فقد غوى) أو يَقِف على (ورسوله فَقَدْ رشد) فإذا كان مثل هــذا مكروهًا في الخطب ففي كلام الله أشدّ...))[2].

وممَّا يرتبط بمعنى الوقف على (لا) في صيغة (لا أُقْسِــمُ) أو معنــى الوصــل فيهــا، موضوع التنغيم أو موسيقى الكلام، فموسيقى الكلام تختلف عند النطق بــ(لا) على أنَّها ردٌّ على المكذبين، وما بعدها قسمٌ مُسْتَأْنفٌ، إذ يتطلَّب الأمر منَّا سَكْتَةً لطيفةً بعد النطق بــ(لا) ثُمَّ إظهار قوَّة الصوت عند اسْتِئْنَاف الكلام بالقسم لبيان الجزم لإيراد القسم مثبتًا.

أمَّا عند النطق بــ(لا أُقْسِمُ) على أنَّ (لا) نافية للفعل (أُقْسِمُ) فموسيقى الكلام تتغيَّــر عند وصل (لا) بــ(أُقْسِمُ) وتظهر نغمة نفي الكلام واضحةً. وأضرب مثلا من كلامنا المتداول يُظْهِر أثر التنغيم عندما تكون (لا) ردًا لكلامٍ سابقٍ: كقول طالبٍ لزميلٍ له يشكِّك في نجاحه: لا.. أَنْجَحُ بإذن الله.

وعادة ما يكون المدُّ في (لا) طويلا لإظهار نفي المتكلِّم لما يشكِّك فيه زميلــه، وعنــد التأمُّل في موسيقى قولنا (لا.. أَنْجَح بإذن الله) يظهر لنا أنَّ المتكلِّم يتوقَّف برهة بعد قولــه (لا) قبل أنْ يُكْمل ما يريد تأكيده.

والأمر الآخر:

القول: إنَّ (لا) ردٌ لكلام الكفَّار وتكذيبهم بالبعث، يحتم علينا أنْ نُقدِّر في الكــلام اسْــم (لا) النافية وخبرها، فيكون: (لا صِحَّةَ لما يقولُ الكفَّار.. ثم يَسْتَأْنِف القَسَم). قال أبو حيَّان: ((... وقيل المنفيُ المحذوف أي فلا صحةَ لما يقول الكفَّار ثم ابْتَدأ أُقْسِمُ. قالــه ســعيد بــن جبير، وبعض النحاة، ولا يجوز لأنَّ في ذلك حذف اسْم (لا) وخبرها وليس جوابًا لسائلٍ سأل فيتحمَّل ذلك. نحو قوله (لا) لمن قال: هل من رجلٍ في الدار))[3].

وقد ورد في كتب النحو عدم جواز حذف اسم (لا) النافية للجنس وخبرها، وإنَّ خبــر (لا) إذا دلَّ عليه دليلٌ وجب حذفه عند التميميين والطائيين وكَثُرَ حذفه عند الحجــازيين[4].

---

(١) النساء : ٨٣

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/٣٤٢ – ٣٤٣)

(٣) البحر المحيط (٨/٢١٣)، وينظر فتح القدير (٥/١٥٩–١٦٠)، روح المعاني (٢٧/١٥٢–١٥٣)

(٤) ينظر شرح المفصل (٢/١١٤)، المقرب (٢٠٩)، شرح شذور الــذهب (٢٧٤)، شــرح ابــن عقيــل (١/٤١٣)، همع الهوامع (١/٥٢٩ – ٥٣٠)، المطالع السعيدة في شرح الفريدة (١/٣٢٤ – ٣٢٥)

قال الاسترابادي في حذف اسم (لا) وخبرها: ((قال ابْن الحاجب: (ويُحـذف فـي مثـل (لا عليك): قال الرضي: أي لا بَأْسَ، أي يحذف اسم (لا) في (لا عليك)، ولا يحذف إلا مع وجود الخبر، كما لا يحذف الخبر إلا مع وجود الاسْم لئلا يكون إجحافًا))[1].

وضَّحت في هذا الرأي أنَّ من المفسِّرين من يقول إنَّ (لا) نافيةٌ لكلام المشركين المقدَّر قبلها فهي تنفي صحته وتردُّه عليهم. وأذكر هنا أنَّ من المفسِّرين والنحويين من قال إنَّ (لا) نافيةٌ لكلامٍ تقدَّم[2] وربط بعضهم (لا) في السُوَرِ التي تُفْتَتَحُ (بلا أُقْسِمُ) بآخر السورة التـي قبلها. قال السيوطي في سورة القيامة: ((أقول: لمَّا قال سبحانه في آخر المدَّثر ﴿كَلَّا بَلْ لَـا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾[3] بعد ذكر الجنَّة والنَّار وكان عدم خوفهم إيَّاها لإنكارهم البعث، ذكـر فـي هذه السورة الدليل على البعث، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله))[4].

ومنهم من جعل (لا) نافيةً ردًا على من جحد البعث، ربَّمـا تَجَنُّبـا لإشـكالات القـول بوقوعها زائدةً في بداية الكلام. قال ابْن الشجري: ((إنَّ بعض النحويين أنكر أنْ تكـون (لا) زائدةً في قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[5] قال لأنَّ زيادة الحرف تدلُّ على اطِّراحه وكونه في أوَّل الكلام يدلُّ على قوَّة العناية به، فلا يجوز أنْ يكون مطَّرحًا معْنِيًا به في حالـةٍ واحـدةٍ، وإذا قَبُحَ الجمع بين اطِّراحه والعناية به لَمْ يَجُز أنْ تَجْعَل (لا) في هذه الآية زائدةً وجعلناها نافيةً ردًا على من جحد البعث وأنكر القيامة، وقد حكى الله أقوالهم في مواضع من الكتـاب فكأنَّه قيل (لا) ليس الأمر على ما تَقَوَّلْتُمُوه من إنكاركم ليوم القيامة ثم قال: (أُقْسِـمُ بيـوم القيامة ولا أُقْسِمُ بالنفس اللوَّامة) فـ(لا) جوابٌ لما حُكِيَ من جحدهم للبعث كما كان قولـه: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[6] جوابًا لقولهم: ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْـرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[7] لأن القرآن يجري مجرى السورة الواحدة))[8].

أقول: إنَّ مَنْ تَجَنَّبَ إشكالات زيادة (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ)، لأنَّها واقعةٌ فـي بدايـة الكلام، ولأنَّ تصديرَها يفيد العناية بها واطِّراحها، بزيادتها، يُنَاقض هذا المعنى، أجده قد وقع

---

(١) شرح الكافية (٢/١٨٣)

(٢) ينظر المكتفى في الوقف والابتدا ء (٣٧١)، تفسير القرطبي (١٧/١٩٤)

(٣) المدثر: ٥٣

(٤) أسرار ترتيب القرآن (١٤٤)، وينظر روح المعاني (٢٩/١٣٥)

(٥) القيامة: ١

(٦) القلم: ٢

(٧) الحجر: ٦

(٨) الأمالي الشجرية (٢/٢٢٠)

في إشكالاتٍ أكثر عندما قال: إنَّ (لا) نافيةٌ، ردًا على من جحد البعث، وذلك لأسبابٍ كثيـرةٍ ذكرت عددًا منها في بداية كلامي على هذا الرأي. وأذكر هنا مشكلا آخر، هو محاولة تحديد الكلام السابق أو افْتِراضه، وعندما أُنَاقِش هذا القول أكَرِّر ما ذكرته آنفًا من أنَّ القرآن كلَّـه كالسورة الواحدة في عدم التناقض وفي التكامل. وهذا هو معنى القول: إنَّ القـرآن يُفَسِّـرُ بعضه بعضا، وتبقى لكلِّ سورةٍ خصوصيتها ونسـيجها المتكامـل مـع إيقاعهـا الخـاصِّ وتصويرها الفنيِّ المُمَيَّز.

ولذا نجد الرازي يرفض المعنى الذي اعْتَمد عليه عدد من المفسِّرين والنحويين من أنَّ القرآن كلَّه كالسورة الواحدة لحلِّ إشكال زيادة (لا) في بداية الكـلام بقولـه: ((إنَّ القـرآن كالسورة الواحدة في عدم التناقض فأمَّا في أنْ يُقْرَن بالآية الأخرى فذلك غير جـائز، لأنَّـه يلزم جواز أنْ يقرن بكلِّ إثباتٍ حرف النفي في سائر الآيات وذلك يقتضي انْقِلاب كلِّ إثبـاتٍ نفيًا وانقلابُ كلِّ نفيٍ إثباتًا وإنَّه لا يجوز))[1].

هذا فضلا عن أنَّ الآيات التي ربطوا بعضها ببعض وجعلوا من آيـةٍ ردًا لأخـرى، أو جوابًا لما ذُكِرَ فيها، آيات متباعدة من سُوَرٍ مُنْفَصلة إلا أنْ نأخذ بترتيب السُوَرِ في المصحف الشريف لا بتسلسل نزولها، فقد تكون الآية التي ذكرت قبل (لا) في سورةٍ أخرى قد نزلـت قبل الآية التي فيها صيغة نفيِ القسم بسُوَرٍ كثيرةٍ. هذا إذا اعْتَمَدْنَا في ترتيب السُوَرِ علـى وفق نزولها وليس على وفق الترتيب المعتمد عليه في المصحف، فنجد مـثلا، أنَّ سـورة المدثر كانت من أوائل السُوَرِ التي نزلت في القرآن الكريم وبينها وبين سورة القيامة التـي تليها في ترتيب المصحف خمسٌ وعشرون سورة في ترتيب النزول[2]، ولم يُعَلِّق السيوطي في اسْتِشْهاده بالموضعين على ذلك، واكْتَفَى في اسْتِدْلاله بترتيب السُـوَرِ فـي المصـحف الشريف.

أمَّا الشاهد الذي يتكرَّر كثيرًا في كتب التفسير والنحو، فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَـا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[3] وجوابـه قولـه تعـالى: ﴿مَـا أَنْـتَ بِنِعْمَـةِ رَبِّـكَ بِمَجْنُونٍ﴾[4]، فإنَّ أهمَّ ما يلفت الانْتِبَاه فيه، هو أنَّ الجواب وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ في سورة القلم نزل قبل المُجَاب عنه في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَـا

---

(١) تفسير الرازي (٢١٤/٣٠)

(٢) ينظر تنزيل القرآن (٢٣- ٢٤)، البرهان في علوم القرآن (١٩٣/١- ١٩٤)، الإتقان في علوم القرآن (٢٥/١)، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (٢٢٧-٢٢٨)

(٣) الحجر: ٦

(٤) القلم: ٢

الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، وهذا الكلام مَبْنِيٌّ على ترتيب السُوَرِ على وفق نزولها وليس على وفق ما عليه ترتيب السور في المصحف.

وعلى هذا، يكون الجواب قد نزل قبل الأمر المُجَاب عنه بخمسين سورة[1]، فسورة الحجر نزلت بعد سورة القلم بخمسين سورة، وليس من المعقول أنْ يُجَاب عن أمرٍ وعن كلامٍ لم يُوْرِدْهُ القرآن بعد، وكأنَّ التسلسل المُفْتَرض يعني من يَقْرَأ القرآن بعد ترتيب سُوَرِه في المُصْحف ولا يَعْنِي السامع المُتَلَقِّي حين نزول الآيات الكريمة.

وهذا الموضوع يَدْفَعُنا إلى تأكيد كون ترتيب الآيات في السُوَرِ أمرًا توقيفيًا بلا خلاف[2]، ولذا لا يجوز قراءة آيةٍ في السورة قبل الأخرى. أمَّا ترتيب السُوَرِ في المصحف على ما هي عليه؛ فأمرٌ مُخْتَلَفٌ فيه بين كونه توقيفيًّا أو توفيقيًا[3]، ولكنَّنا نعلم أنَّه يجوز لنا أنْ نقرأ سُوَرَ القرآن من غير مراعاة ترتيب نزولها أو ترتيبها في المصحف.

ومُلَخَّص القول: أنَّ القرآن الكريم نزل مفرَّقا على النَّبي محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، في ثلاثةٍ وعشرين عامًا[4] ((والدليل على تَفَرُّق هذا النزول وتنجيمه، قول الله تعالت حكمته في سورة الإسراء: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[5]))[6].

ولذلك يقول الزركشي في باب (معرفة المناسبات بين الآيات): ((قال الشيخ عزّ الدين بْن عبد السلام: المناسبة علمٌ حسنٌ ولكنْ يُشْتَرط في حُسن ارْتِبَاط الكلام أنْ يقع في أمرٍ مُتَّحد مرتبط أوّله بآخره، فإنْ وقع على أسبابٍ مختلفةٍ لم يُشْتَرَط فيه ارْتِبَاط أحدهما بالآخر. قال ومن ربط ذلك فهو مُتَكَلِّف بما لا يقع عليه إلا برباطٍ ركيك يُصَانُ عنه حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإنَّ القرآن نزل في نيفٍ وعشرين سنة في أحكامٍ مختلفةٍ ولأسبابٍ مختلفةٍ، وما كان كذلك لا يَتَأَتَّى ربط بعضه ببعض، إذْ لا يَحْسُن أنْ يرتبط تصرُّف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اخْتِلاف الفلك والأسباب كتصرُّف الملوك والحكام والمُفْتِيْن، وتصرُّف

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (١/١٩٣- ١٩٤)، الإتقان في علوم القرآن (١/٢٥٦ – ٢٥٧)

(٢) ينظر فضائل القرآن (٦٥)، البرهان في علوم القرآن (١/٢٥٦ – ٢٥٧)، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (٢٣٤)، تاريخ القرآن الكريم (٦٩-٧٣)، بحوث في تاريخ القرآن (٩٧-١٠١)

(٣) ينظر فضائل القرآن (٦٥)، البرهان في علم القرآن (١/٢٥٦-٢٥٧)، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (٢٣٤)، تاريخ القرآن الكريم (٦٩-٧٣)

(٤) ينظر مناهل العرفان (١/٣٨)

(٥) الإسراء: ١٠٦

(٦) مناهل العرفان (١/٣٨-٣٩)

الإنسان نفسه بأمورٍ متوافقةٍ ومتخالفةٍ ومتضادَّةٍ، وليس لأحدٍ أنْ يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها))[1] .

وإذا حاولنا أنْ نطبِّق معنى أنْ تكون (لا) نافيةً ولكنْ لكلام المشركين المقدَّر وردًا له، على قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[2] على سبيل المثال، فستكون المحصلة غريبةً.

قال الطبريُّ في معرض تفسيره لـ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: ((وقال بعض نحويي الكوفة (لا) ردٌّ لكلام قد مضى من كلام المشركين الذين كانوا يُنْكِرون الجنَّة والنَّار ثُمَّ ابْتُدِئ القسم فقيل (أُقْسِمُ بيوم القيامة)))[3]. النتيجة (لا) ردٌّ لإنكار المشركين البعث وتكذيبهم بالجنَّة والنَّار، ثُمَّ القسم بيوم القيامة على أنَّ يوم القيامة حقٌّ، وجواب القسم محذوفٌ يُقَدِّره المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[4] أي لَتُبْعَثُنَّ[5].

إذن، الكلام كلُّه مُتَعَلِّقٌ بيوم القيامة والحساب، ويكون تسلسل الكلام: أنَّه وُجِد مشركون منكرون للبعث والجزاء، فقال لهم الله، جلَّ جلاله، (لا صحةَ لإنكاركم البعث)، وليُؤَكِّدَ لهم أنَّ البعث حقٌّ، أَقْسَمَ جلَّ جلاله، بيوم القيامة المُنْكَر عندهم، والمُقْسَم لأجله وقوع القيامة وأنَّ البعث حقٌّ، وهو أمرٌ ينكرونه، وجواب القسم المُقَدَّر هو (لَتُبْعَثُنَّ) أي البعث الذي هم مُنْكِرُون وقوعه.

فكيف تَتِمُّ الفائدة من القسم، وتُقَام به الحُجَّة على المنكرين للبعث والجزاء إذا كان المُقْسَمُ به والمُقْسَمُ عليه وجواب القسم واحدًا[6]، وغير هذا، أنَّه أمرٌ أنكره المُقْسَم لهم ورفضوه و كذَّبوا به، أليست نتيجةً غريبةً؟!

وإذا أكملنا الكلام على سورة القيامة، سيقف قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ عائقًا أمام إكمال التفسير بالمعنى المذكور لـ(لا) على أنَّها ردٌّ لإنكار المشركين البعث، فإنْ توافق الردُّ مع القسم الأوَّل وهو القسم بيوم القيامة، فإنَّه لا يتوافق مع القسم بالنفس

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣٧/١)

(٢) القيامة: ١-٢

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٧٢)، وينظر تفسير الواحدي (١١٥٣/٢)، تفسير البغوي (٤٢١/٤)، الخازن (٣٦٩/٤-٣٧٠)، تفسير القرطبي (٩١/١٩-٩٢)، تفسير أبي السعود (٦٤/٩)، روح المعاني (١٣٥/٢٩- ١٣٦)

(٤) القيامة: ٣

(٥) ينظر تفسير الواحدي (١١٥٣/٢)، مجمع البيان (٣٩٤/٥)، تفسير النسفي (٢٩٩/٤)، تفسير القرطبي (٩٣/١٩)

(٦) ينظر الخازن (٣٧٠/٤)

اللوَّامة لعدم وجود رابط معنوي بين القسم بالنفس اللوَّامة والمُقْسَم لأجله وهــو أنَّ البعــث حقٌّ ويوم القيامة حقٌّ.

لذا نجد عددًا من المفسِّرين يقولون: إنَّ الله أقسم بيوم القيامة ولــم يُقْسِــم بــالنفس اللوَّامة[1]، فتكون (لا) الأولى نافيةً، ولكنْ لكلامٍ سابقٍ، أمَّا (لا) الثانية، فتكون نافيــةً لفعــل القسم الوارد بعدها، أي إنَّ الله أقسم بيوم القيامة ولم يُقْسِم بالنفس اللوَّامــة؟!!!. أو إنَّهــم يقولون: إنَّ الله أَقْسَم بهما جميعا[2] من غير أنْ يُفَسِّروا (لا) الواردة في ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[3]. وإعادة ذكر (لا) مرَّة أخرى بعد ذكرها في بداية السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَــا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[4] سبَّب لبعض المفسِّرين إشكالا حاولوا التخلُّص منه بقولهم: إنَّ (لا) (لا) في الآية الثانية هي أيضًا ردٌّ آخر وابتداءٌ لقسمٍ جديدٍ[5]. وفي هذا الكلام لا نجد توضيحًا توضيحًا للمُقْسَمِ لأجله الخاصِّ بالآية الثانية وجواب القسم، وربط ذلك كلِّه بالآيــة الأولــى والآيات التالية لها. لأنَّه، في الأصل، أمرٌ لا يمكن تحقيقه، لعدم التوافق مع معاني الآيــات والسياق العام للسورة، ولذلك نجد مثل هذا التفسير يَرِدُ في التفاسير، ربَّما بوصفه تصــورًا للمعنى وليس صيغةً مُتَبَنَّاة لمعنى الآية، ومن ثَمَّ لا يُمْكن الاعْتِماد عليه.

وقد كان لإعادة (لا) قبل فعل القسم في الآية الثانية في سورة القيامة بعــد أنْ كانــت واردةً في الصيغة نفسها في الآية الأولى أثرٌ كبيرٌ في جعل بعض العلماء يعتقد أنَّ (لا) فــي الآية الأولى ليست إلا (لامًا) أُشْبِعت فتحتها فصارت (لا) والأصل (لأُقْسِمُ)[6]، وذلك ليَتَخَلَّص من تكرار صيغة (لا أُقْسِمُ) في الآيتين. وسأتكلَّم على هذا في موضعه إنْ شاء الله تعالى.

وعند قراءتي كتب التفسير وما ورد فيها من معانٍ لقوله تعالى: ﴿لَــا أُقْسِــمُ بِهَــذَا الْبَلَدِ﴾[7] وَجَدْتُني حائرةً من تَنَصُّل عددٍ من المفسِّرين عن الخوض فــي هــذا الموضــوع، واخْتِصَارهم المعنى واخْتِزَالهم إيَّاه بقولهم: (لا) ردٌّ عليهم، أُقْسِمُ بهذا البلــد[8]، فــــ(لا) ردٌّ على مَنْ؟ وكيف يكون الردُّ بالقسم بمكَّة؟ وما علاقتها بالردِّ؟ ثم ماذا قــالوا، فَــرُدَّ علــيهم بــ(لا) ومن ثَمَّ أَقْسَمَ على الردِّ بمكَّة، كلُّ تلك أسئلة تدور في الذهن، ولا نكاد نجد أجوبةً لها

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٧٣/٢٩)، زاد المسير (٤١٥/٨ – ٤١٦)

(٢) ينظر تفسير البغوي (٤٢٠/٤ – ٤٢١)

(٣) القيامة: ٢

(٤) القيامة: ١

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٩٢/١٩)

(٦) ينظر روح المعاني (١٣٥/٢٩–١٣٦)

(٧) البلد: ١

(٨) ينظر المحرر الوجيز(٤٨٣/٥)، تفسير ابن كثير (٥١٢/٤)، الدر المنثور (٥١٧/٨–٥١٨)

عند المفسِّرين، وللقارئ أنْ يختار ما يشاء من آيات سالفةٍ يَفْتَرِض فيها الأمر المردود على المشركين بـ(لا) وليجتهد في ربط الردِّ بالقسم بمكَّة.. إنَّه تَضْيِيْعٌ وتشتيتٌ ما بعده تشتيت.

وقد يكون الردُّ في سورة البلد مقدرًا من فهم الآيات التي تلي صيغة (لا أُقْسِمُ)، مثال ذلك قول القرطبيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[1]: ((قال القشيري: قوله (لا): ردٌّ لما توهَّم الإنسان المذكور في هذه السورة، المغرور بالدنيا، أي ليس الأمر كما يحسبه من أنَّه لن يَقْدِرَ عليه أحدٌ ثم ابْتَدَأَ القسم))[2].

ولا يخفى أنَّ تقدير كون (لا) نافيةً لمعنًى في آياتٍ تاليةٍ لها يضعف معنى النفي: ((لأنَّ المَنْفِيَّ ما ولِيَ حَرْفَ النَّفْي))[3]، لا أنْ يكون مُشْتَقًّا من معنى آياتٍ تليه ويفْصِل بين أداة النفي وما قُدِّر نفيه في السورة آيات. فالنفي ورد في أوَّل سورة البلد ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ثم تلت النفي آياتٌ، ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[4]. ثم تأتي الآية التي قُدِّرَ من معناها المُرَاد من النفي الذي ورد في بداية السورة ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾[5]، وما نفهمه في المُحَصِّلَة أنَّ (لا) ردٌّ لما لَمْ يُذْكَر بعد بالنسبة إلى الإنسان الذي يسمع السورة من أوَّلها. وهذا لا يستقيم، فعندما يَرِدُ النفي، يجب أنْ يكون المنفيُّ واضحًا للسامع، وإلا فَقَدَ النفيُ معناه.

---

(١) البلد: ١

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/٥٩ – ٦٠)

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٧٧)

(٤) البلد: ٢– ٤

(٥) البلد: ٥

الرأي الثالث
معنى (لا) النَّهْيُ عَنِ التَّكْذِيْبِ، رُجُوعًا إلى مَا تَقَدَّم أي (فلا تُكَذِّبُوا ولا تَجْحَدُوا)

يَتَّصِل هذا الرأي، في ربط معنى (لا)، بكلامٍ مقدَّرٍ يسبقها بالرأي الثاني القائل: إنَّ (لا) نافيةٌ لكلامٍ سابقٍ، وعلى هذا فــ(لا) ناهية، ولكنْ لكلامٍ سابقٍ، فهي نهيٌ لما يقوله الكفَّار، ومعنى (لا) في كلا الرأيين يرجع إلى ما تقدَّم، ويُمكن تقديره في الكلام، ولكنَّ أثر هذا الرأي أعظم في ضياع المعاني وتشتيتها.

ومن الصعب تطبيق هذا المعنى على كلِّ المواضع التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)، والدليل على هذه الصعوبة، أنَّ هذا المعنى ورد فيما اطَّلعت عليه من كتب التفسير، وهي كثيرةٌ، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[1].

فقد ذكر الماورديُّ في وجوه المعاني الواردة في (لا) من قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أنَّ ((قوله (فلا) راجعٌ إلى ما تقدَّم ذكره، ومعناه (فلا تُكَذِّبوا ولا تَجْحَدُوا ما ذكرته من نِعمة وأظهرته من حُجَّة ثم استأنف كلامه فقال: (أُقْسِمُ بمواقعِ النُّجُومِ)))[2].

ولكنَّنا نجد أنَّ المعنى الظاهر من الآية الكريمة، الذي يطرق السمع لأَوَّل وهلة أنَّ (لا) فيها نافيةٌ، والفعل بعدها منفيٌ بها، وهو مرفوعٌ وليس مجزومًا.

أمَّا قولهم: إنَّ (لا) ناهيةٌ لكلامٍ تقدَّم عليها ثم يُقَدِّرون هذا الكلام، ويختلف التقدير من مفسِّرٍ إلى آخر، فهذا تكلُّف واضح، وذهاب بالمعنى الظاهر إلى أبعد ممَّا يَرْمِي إليه، وتحميله أكثر مما يَحْتَمِل، فضلا عن كونه تغييرًا للمعنى الظاهر من نفيٍ للكلام إلى نهيٍ، وهذا تحوُّل كبير في المعنى لا ينبغي أنْ يتمَّ من غير أدلَّة معنويَّة ظاهرة.

وإذا حاولنا تطبيق هذا المعنى على سورة البلد مثلا، فنقول في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَد*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[3]: إنَّ (لا) ناهيةٌ والمعنى (لا تُكَذِّبُوا ولا تَجْحَدُوا) ثُمَّ أَقْسَمَ تعالى بالبلد ووالدٍ وما ولد، وجوابُ القسمِ (إنَّ الإنسان خُلِق في كبد). فأين دلالة النهيِ التي أُعْطِيَت لــ(لا)، وما علاقة القسم الوارد بعد (لا) بالنهيِ المقدَّر قبلها؟

---

(١) الواقعة: ٧٥

(٢) تفسير الماوردي (١٧٧/٤)، وينظر زاد الميسر (١٥٠/٨)، الخازن (٢٤١/٤).

(٣) البلد: ١–٤

من الواضح أنْ لا علاقة بينهما، والمعنى غير صحيحٍ، فصعوبة تطبيق معنى النهـــي في (لا) الواردة في صيغة (لا أُقْسِمُ) على المواضع التي وردت فيها هذه الصيغة يدلُّ علـــى التكلُّف في المعنى، والتمحُّل في التقدير.

ومن غير الممكن أنْ تختلف دلالة (لا) في المواضع التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) فتكون في موضعٍ زائدةً، وفي موضع نافيةً لكلامٍ سابق، وفي موضعٍ آخر ناهية، أو نافيـــة للقسم لما في ذلك من الْتِباس في المعاني، والْتِفَاف على النصوص، وإلغاء لأيِّ قيـــاسٍ، أو قاعدةٍ تجمع المواضع بصيغةٍ واحدةٍ ذات لفظٍ واحدٍ وبِنْيَةٍ واحدةٍ (لا أُقْسِمُ).

الرأي الرابع
أَصْلُ (لا أُقْسِمُ): (لأُقْسِمُ)

أي إنَّ (لا) الواردة في صيغة (لا أُقْسِمُ) هي لامٌ أُشْبِعَت فتحتها فصارت (لا) والأصل: (لأُقْسِمُ):

يعتمد هذا الرأي على قراءةٍ وردت في قوله تعالى: (لا أُقْسِمُ)، هي (لأُقْسِمُ) من غير ألف في (لا)، وما يلفت الانْتباه في هذه القراءة أنَّها وردت في آية القيامة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] دون سواها من الآيات التي وردت فيها الصيغة، فضلا عن آية القيامة الأخرى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[2]

قال ابْن مجاهد: ((قوله ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قرأت على قنبل عن ابْن كثير (لأُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ) بغير ألف بين اللام والقاف. (ولا أُقْسِمُ) الثانية بلام وألف. وكلّهم قرأ: (لا أُقْسِمُ) (ولا أُقْسِمُ) جميعًا بالألف))[3].

وقال ابن مهران: ((قرأ ابن كثير في رواية القواس (لأُقْسِمُ بيوم القيامة) بغير ألف، موصولة غير ممدودة على التحقيق))[4]، وقد أورد ابن جنِّي هذه القراءة في مُحْتَسَبِه عادًّا إيَّاها من الشواذِّ[5]، وزاد ابن الباذش: ((ولا خلاف في الثاني، وفي الذي في البلد.))[6].

أمَّا موقف المفسِّرين من هذه القراءة، فقد كان متفاوتًا بين:

١ـ فريق أوردها في الآراء التي قيلت في (لا) الواقعة في صيغة (لا أُقْسِمُ) من غير أنْ يتبنَّاها رأيًا له، ومنهم ابْن عطيَّة، الذي ذكرها في سورة الواقعة والحاقَّة والمعارج

---

(١) القيامة: ١

(٢) القيامة: ٢

(٣) كتاب السبعة في القراءات (٦٢٤)، وينظر الحجة في القراءات السبع (٣٥٦-٣٥٧)، التيسير في القراءات السبع (٢١٦)، حجة القراءات (٧٣٥-٧٣٦).

(٤) المبسوط في القراءات العشر (٤٥٣)، وينظر إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي في القراءات العشر (٦١١)، وفيه: ((قرأ ابن كثير (لأقسم) بغير ألف، يجعلها لاما دخلت على (أقسم) في هذا الموضع حسب.))

(٥) ينظر المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٣٦١/٢)

(٦) الإقناع في القراءات السبع (٧٩٨/٢)، وينظر إتحاف فضلاء البشر في قراءات القراء الأربعة عشر (٥٦٣)

والقيامة والبلد[1]، وابْن الجوزي، إذ أوردها في سورةالواقعة والقيامة والبلد[2].

وكان أثر إيراد هذه القراءة على معنى (لا أُقْسِمُ) محدودًا، لأنَّ عملهم كان محض سردٍ لما يمكن أنْ يكون عليه معنى (لا أُقْسِمُ) بما يُفيد القسم.

٢ــ فريق أوردها في قوله تعالى: (لا أُقْسِمُ) في غير الموضع الوحيد الذي ورد ذِكْر القراءة فيه، أي أوَّل سورة القيامة، فقد أوردوها مثلا في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[3][4]، ولم يُشيروا إلى وجودها في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[5][6]، وهي وهي كما أسلفت الموضع الوحيد الذي ذُكِرَت فيه هذه القراءة في كتب القراءات السبع والعشر على السواء.

٣ــ فريق أوردها في موضعها المذكور في كتب القراءات وحسب، أي في أوَّل سورة القيامة[7].

٤- قلَّة من المفسِّرين تبنَّوا هذه القراءة في تفسير صيغة (لا أُقْسِمُ)، ومنهم أبو حيَّان الأندلسي، الذي تبنَّى معنى هذه القراءة في تفسير صيغة (لا أُقْسِمُ) وأسهب في تفصيلها، فقال في تفسير آية الواقعة ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بعد أنْ عرض ما قيل في (لا) الواردة في الآية: ((والأَوْلى عندي أنَّها لامٌ أُشْبِعَت فتحتها فتولَّدت منها ألف كقوله: *أَعُوْذُ بالله مِنَ العِقْرَابِ* وهذا، وإنْ كان قليلا، فقد جاء نظيره في قوله: (فاجْعَلْ أَفْئيْدَةً مِنَ النَّاسِ)[8] بياءٍ بعد الهمزة، وذلك في قراءة هشام، فالمعنى (فلا أُقْسِمُ) كقراءة الحسن وعيسى))[9].

وسنناقش ما قيل في تسويغ هذه القراءة عند أبي حيَّان وغيره وما اعتمدوا عليه من أدلَّة نحويَّة تؤيِّد هذه القراءة أو تخالفها.

٥ــ أكثر المفسِّرين لم يُجيْزوا هذه القراءة لكونها شاذَّة، ورفضوا توجيه المعنى على وُفْقِها، ومنهم الطبري، إذ قال في تفسير آية القيامة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بعد أنْ عرض

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٥/٢٥٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ، ٤٠١ ، ٤٨٣)

(٢) ينظر زاد المسير (٨/١٥٠-١٥١ ، ٤١٥ ، ١٢٦-١٢٧)

(٣) الوقعة: ٧٥

(٤) ينظر تفسير أبي السعود (٨/١٩٩)

(٥) القيامة:١

(٦) ينظر تفسير أبي السعود (٩/٦٤)

(٧) ينظر تفسير الطبري (٢٩/١٧٢)، مجمع البيان (٥/٣٩٣)، تفسير البيضاوي (٥/٤١٩)

(٨) ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ ابراهيم: ٣٧

(٩) البحر المحيط (٨/٢١٣). وتنظر قراءة (أفئيدة) بياء بعد الهمزة، في الاتحاف (٢/١٧٠).

اخْتِلاف القُرَّاء فيها: ((والقراءة التي لا أستجيز غيرها في هــذا الموضــع (لا) مفصــولة، (أُقْسِمُ) مُبْتدأة على ما عليه قُرَّاء الأمصار لإجماع الحُجَّة من القُرَّاء عليه))[1].

وكان إيراد هذا الفريق قراءة (لأُقْسِم) لتقرير رفضهم أو تضعيفهم هذه القــراءة ومــا يتكوَّن عنها من خلافٍ نحوي أو دلالي.

٦ــ فريق من المفسِّرين لم يتعرض لذكر هذه القراءة البتَّة ضمن عرضه الآراء التي قيلت في صيغة (لا أُقْسِمُ)[2] .

التَّخْرِيْجَات النَّحْوِيَّة والدَّلاليَّة لقِرَاءَةِ (لأُقْسِمُ)

حين أُلْغِيَت الألف من (لا) الواقعة في صيغة (لا أُقْسِمُ) على وفق القراءة المذكورة في الآية الكريمة، أُلْغِيَ مع الألف معنى (النفي) في قوله تعالى: (لا أُقْسِمُ) وأصبحت (لا) لامًــا أُلْحِقَتْ بالفعل (أُقْسِمُ) لتصير (لأُقْسِمُ).

وقد كان للمفسِّرين والنحويين في لام (لأُقْسِمُ) على هذه القراءة توجيهان:

أحدهما: أنَّ هذه اللام هي لام الابتداء للتوكيد، دخلت على الفعل بتقدير مبتدأ محذوف بعدها والمعنى (لأَنَا أُقْسِم).

والآخر: أنَّ هذه اللام هي لام القسم دخلت على فعل الحال والمعنى فلأُقْسِمُ بــ....

فالتوجيه الأوَّل قائم على كون اللام لام ابتداء دخلت على الفعل (أُقْسِــمُ) بتقــدير مبتدأ محذوف، والمعنى (لأَنَا أُقْسِمُ)، وقد ورد هذا الرأي عنــد ابْــن عطيَّــة، والقرطبــي، والمرادي، فقال ابْن عطيَّة: ((وقرأ الحسن والثقفي (فلأُقْسِمُ) بغير ألف، قــال أبــو الفــتح التقدير: (فلأَنَا أُقْسِمُ)))[3]، وقال القرطبي: ((وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر (فلأُقْسِمُ) (فلأُقْسِمُ) بغير ألف بعد اللام على التحقيق، وهو فعل حال ويقدَّر مبتــدأ محــذوف التقدير: (فلأَنَا أُقْسِمُ)))[4]، وقال المرادي: ((... كما ذكرنا في (لأُقْسِمُ) يعني (لأُقْسِمُ بِيَــوْمِ القِيَامَةِ) على قراءة ابْن كثير، وذلك أنَّه لا يخلو من أنْ يكون لام قسم، أو لام ابتداء. فــلام

---

(١) تفسير الطبري (١٧٢/٢٩)، وينظر زاد المسير (٤١٥/٨)، تفسير الرازي (٢١٥/٣٠)، فتح القدير (٣٣٥/٥)، فتح البيان (١٤٨/١٠-١٤٩)، أضواء البيان (٦٣١/٨).

(٢) ينظر تفسير الواحدي، الخازن، الدر المنثور، في ظلال القرآن، من وحي القرآن، التفسير لكتاب الله المنير.

(٣) المحرر الوجيز (٢٥٠/٥-٢٥١)، وينظر تفسير النسفي (٢١٢/٤)، تفسير أبي السعود (١٩٩/٨)، فتح القدير (١٦٠/٥)

(٤) تفسير القرطبي (١٩٤/١٧)

القسم لا تدخل على المضارع، إلا مع نون التوكيد فبقي أنْ تكون لام الابتداء. ولام الابتــداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر، فلابدَّ من تقدير مبتدأ وخبر))[1] .

ومن هنا يظهر لنا الإشكال الأوَّل، وهو تقدير المبتدأ في قــراءة (لأُقْسِــمُ)، إذ إنَّ لام الابتداء تدخل على المبتدأ للتوكيد، وإذا كانت اللام للتوكيد فالمعنى أنَّها تــدخل علــى أمــر وجوده في الجملة ضروري، وهذا عكس ما آلت إليه الأمورعند القــول إنَّ الــلام للابتــداء والتوكيد، لأنَّ المُؤَكَّدَ وهو المبتدأ في الجملة محذوف فلا يستقيم معنــى التوكيــد لإظهــار العناية، وتقدير حذف المبتدأ ضعيف، لكونه (أي حذف المبتدأ) مُنَافيًا للتوكيد الــذي جِــيء باللام لأجله[2]. قال الآلوسي: ((... خرَّجُوا قراءة الحسن وعيسى على أنَّ اللام لام الابتداء والمبتدأ محذوف لأنَّها لا تدخل على الفعل، والتقدير (فلأَنَا أُقْسِمُ)... وتعقّب بأنَّ المبتــدأ إذا دخل عليه لام الابتداء يمتنع أو يقبح حذفه لأنَّ دخولها لتأكيده وهو يقتضي الاعتنــاء بــه، وحذفه يدلُّ على خلافه))[3] .

وقد تكلَّفوا تقدير مبتدأ محذوف، لأنَّ لام الابتداء لا تدخل على الفعل المضارع إلا إذا وقع خبرًا لإِنَّ[4] فاضْطَّروا إلى هذا التقدير، ويكون المعنى بعده كأنَّ الله، جلَّ جلاله، يقــول: (لأَنَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيَامَةِ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللوَّامَةِ) أي أَقْسَمَ ســبحانه بــالأُولى ولــم يُقْســم بالثانية[5].

ثم إنَّ الغرض من القسم التوكيد[6] وهذا الغرض واضح في الآية الكريمة لورود فعــل القسم (أُقْسِمُ)، والمُقْسَمُ به (يوم القيامة)، ودخول لام الابْتِداء على (أُقْسِمُ) لغرض التوكيد لا تزيد المعنى توكيدًا.

التوجيه الثاني لــ(اللام) في قراءة (لأُقْسِمُ) قائم على جعل اللام للقسم دخلــت علــى فعل الحال (أُقْسِمُ)، ولذا لا تحتاج إلى إلحاق نون التوكيد بها. وقد تبنَّى هذا الرأي أبو حيَّان، بعد أنْ عرض الآراء التي قيلت في القراءة المشهورة (فلا أُقْسِمُ)، على نحو ما ذكرت آنفًا، وذكر أنَّ ابْن جِنِّي خَرَّج هذه القراءة على((تقدير مبتدأ محذوف أي (فلأَنَا أُقْسِمُ)[7] وتَبِعــه على ذلك الزمخشري، وإنَّما ذهبا إلى ذلك لأنّــه فعل حــال وفــي القَسَم عليــــه خــلاف.

---

(١) الجنى الداني (١٢٦)

(٢) ينظر الجنى الداني (١٢٨)

(٣) روح المعاني (١٥٣/١٧)

(٤) ينظر رصف المباني (٢٣٣)

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٩٢/١٩-٩٣)، تفسير ابن كثير (٤٤٨/٤-٤٤٩)

(٦) ينظر اللمع في العربية (٢٨٦)، شرح المفصل (٩٠/٩)

(٧) ينظر المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٣٤١/٢)

فالذي اخْتَاره ابْن عصفور وغيره أنَّ فعل الحال لا يجوز أنْ يُقْسَمَ عليه فاحْتَـاجوا إلـى أنْ يُصَوِّروا المضارع خبرًا لمبتدأ محذوف، فتصير الجملة اسميَّة فَيُقْسَم عليها، وذهب بعـض النحويين إلى جواز القسم على فعل الحال وهذا الذي أختاره فتقول: واللهِ لَيَخْرُج زَيْدٌ))[1].

والذي يبدو لي في هذه القراءة، على الرغم من ورودها في بعض كتب التفسير رأيًا مرجوحًا ضمن آراء قيلت في صيغة (لا أُقْسِمُ)، أنَّ من قال: إنَّ التقدير في القـراءة (لأَنَـا أُقْسِمُ) قدَّر دخول لام الابتداء على مبتدأ محذوف هربًا من الإشكال الظاهر في الفعل (أُقْسِـمُ) إذ يراه فعل حال، وهذا لا يُؤَهِّله لدخول لام القسم عليه إلا مع نون التوكيد، ونون التوكيـد غير موجودة في الآية الكريمة فاختار هذا التوجيه الذي تقدَّم الكلام على الخلل في الاعتماد عليه.

غير أنَّ أبا حيَّان حين وجد عند بعض النحويين تجويز دخول لام القسم على فعل المسـتقبل من غير لحاق نون التوكيد به، فضلا عن جواز دخولها على فعل الحال دون لزوم النـون، رجَّح أنْ تكون لام القسم قد دخلت على فعل الحال.

وهذا في رأيي يمكن أنْ يُفَسَّر على أنَّه حالة هرب من إشكالات قراءة الجمهور على (لا) منفصلة عن الفعل (أُقْسِمُ) لأنَّها قد تكون نافيةً للقسم، أو ردًا لكلامٍ سابقٍ، أو زائدةً، أو استفتاح كلامٍ، إلى آخر ما قيل في (لا) المفصولة. فقرَّر ترجيح قراءة (لأُقْسِمُ) على أنَّ اللام للقسم.

وبعد: فحين نطَّلِع على التوجيهات النحويَّة والدلاليَّة لهذه القراءة نشعر كأنَّنا ندور في حلقةٍ مفرغةٍ، لأنَّ القواعد النحويَّة تُؤَثِّر بشكلٍ كبيرٍ، في توجيه المعنى، ولذا نجد المفسِّرين، كلَّما وجدوا ثغرةً جوَّزوا اسْتِثْناءً، أو افْترضوا افْتِراضات على القياس لسدِّ هذه الثغرة فتظهر من جراء ذلك ثغرات وهكذا... ونجد من المفسِّرين من رفض هذه القراءة ولم يُجَوِّز غيـر قراءة الجمهور على فصل (لا) عن الفعل (أُقْسِمُ) وقد أشرت إليهم في بداية الرأي.

ونجد فريقًا آخر من المفسِّرين اعْتَرضوا على جعل اللام في قراءة (لأُقْسِمُ) لام القسم، منهم:

الزمخشري بقوله: ((لا يصحّ أنْ تكون اللام لام القسم لأمرين: أحدهما: أنَّ حقهـا أنْ يُقْرَن بها النون المُؤَكِّدَة، والإخلال بها ضعيفٌ قبيح. والثاني: أنَّ لَأَفْعَلَنَّ في جـواب القسـم للاسْتِقبال، وفعل القسم يجب أنْ يكون للحال))[2].

وابْن الجوزي بقوله: ((قال الزجَّاج من قرأ (لأُقْسِمُ) فاللام لام القسم والتوكيد، وهذه

---

(١) البحر المحيط (٨/٢١٣)

(٢) الكشاف (٤/٥٨)، وينظر تفسير القرطبي (١٧/٢٢٣)

القراءة بعيدة في العربية لأنَّ لام القسم لا تدخل على الفعل المستقبل إلا مع النـــون تقـــول: (لأَضْرِبَنَّ زَيْدًا) ولا يجوز (لأَضْرِبُ زَيْدًا)))[1].

والرازي بقوله: ((وطعن أبو عبيدة في هذه القراءة، وقال: لوكان المراد هــذا لقـــال (لأُقْسِمَنَّ) لأنَّ العرب لا تقول (لأَفْعَلُ كَذَا)، وإنَّمَا يقولون: (لأَفْعَلَنَّ كَذَا)، إلا أنَّ الواحدي حكى جواز ذلك عن سيبويه والفرَّاء، واعلم أنَّ هذا الوجه أيضًا ضعيفٌ، لأنَّ هذه القراءة شـــاذة فهب أنَّ هذا الشاذ استمرَّ، فما الوجه في القراءة المشهورة المتواترة؟ ولا يمكن دفعها وإلا لكان ذلك قدحا فيما ثبت بالتواتر، وأيضا فلابدَّ من إضمار قسمٍ آخر لتكون هذه اللام جوابًـــا عنه، فيصير التقدير: والله لأُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ، فيكون ذلك قسمًا على قسم، وإنَّـــه ركيـــكٌ، ولأنَّه يفضي إلى التسلسل))[2].

ومن هنا نخلص إلى أنَّ لام القسم إذا دخلت على الفعل المضارع فإنَّها تخلِّصه للاستقبال، ويجب حينئذٍ أنْ تلحقها النون، ويكون القسم على أمرٍ لم يَتِم بعد كقولـــك (والله لأَذْهَـــبَنَّ). ونحن نفهم من اجتماع اللام والنون في الفعل المستقبل وجود قسم في الكلام، وإنْ لم يـــرد لفظ القسم، أو المُقْسَم به كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[3] والعرب لا تقـــول (لأَفْعَلُ كَذَا) ليُفهم من كلامهم القسم وإنَّما تقول (لأَفْعَلَنَّ)، قال الزجَّاجي: ((اعلـــم أنَّ الفعـــل المستقبل إذا وقع في القسم موجبًا لزمته اللام في أوَّله، والنون في آخره ثقيلة أو خفيفـــة، ولم يكن بدٌّ منهما جميعًا، وذلك قولك: (والله لأَخْرُجَنَّ)، (وتالله لأَرْكَبَنَّ)، قال الله، عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[4]))[5]. وقال ابن جنِّي في قراءة (لأُقْسِمُ): ((إنَّ حذف النون هنـــا ضعيفٌ خبيث))[6]. وقال ابْن يعيش عن لام جواب القسم: ((إذا دخلت على الفعل المضـــارع لزم آخر الفعل النون الخفيفة أو الثقيلة، كقولك (والله لتَضْرِبَنَّ عَمْرًا)... وإنَّما لزمته النون لتخلصه للاستقبال لأنَّه يصلح لزمنين، فلو لم تخلصه للاستقبال لوقع القسم على شيءٍ غير معلوم، وقد بينَّا أنَّ القسم توكيدٌ ولا يجوز أنْ نُؤَكِّد مَجْهُولا))[7].

---

(١) زاد المسير (٤١٥/٨)، وينظر تفسير النسفي (٢٩٩/٤)، روح المعاني (١٥٢/٢٧)

(٢) تفسير الرازي (٢١٥/٣٠)، وينظر فتح القدير (٣٣٥/٥)، فتح البيان (١٤٩/١٠)

(٣) آل عمران: ١٨٦

(٤) الأنبياء: ٥٧

(٥) كتاب اللامات (١١٣)، وينظر المقرب (٤٢٩)

(٦) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٣٤١/٢)

(٧) شرح المفصل (٩٧/٩)، وينظر المطالع السعيدة (١٤٢/٢)، همع الهوامع (٦١٣/٢)، المغني في النحو (١٦٧/١)

ولكنَّنا نجد أبا حيَّان يمضي في ترجيحه كون اللام في (لَأُقْسِمُ) لام قسم، ويُنَاقِش الزمخشري[١] في رفضه لهذا المعنى، مُعْتَمِدًا في ترجيحه على مذهب الكوفيين في جواز التوكيد بغير نون[٢]، وعلى كون اللام في (لا أُقْسِمُ) لامًا أُشْبعت فتحتها فتولَّدت منها ألف على نظائر قليلة في العربية، على وفق ما صرَّح به في نصِّه حين قال: ((وهذا وإنْ كان قليلا فقد جاء نظيره في العربية))[٣]. فكلامه حُجَّة عليه لأنَّنا لا يجوز أنْ نترك القراءة المتواترة بفصل (لا) عن (أُقْسِمُ) إلى قراءة (لَأُقْسِمُ) ونبرهن على صحتها بما هو قليلٌ شاذٌّ في كلام العرب، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر، يعدُّ ترجيحه كون اللام لام قسم قائما على وجود خلاف في إلحاق نون التوكيد بفعل المستقبل وعلى أنَّ فعل الحال يُقْسَمُ عليه.

أمَّا الخلاف في لحاق نون التوكيد بفعل المستقبل؛ فموجود، قال ابن يعيش: ((وذهب أبو علي إلى أنَّ النون هنا غير لازمة وحكاه سيبويه، قال: ولحاقها أكثر، والسيرافي وجماعة من النحويين يرون أنَّ لحاق النون يقع لازمًا للفصل الذي ذكرناه، وهو الظاهر من كلام سيبويه وذلك قوله: إنَّ اللام إنَّما لزمت اليمين كما لزمت النون اللام، وهذا نص منه))[٤]، وقال الاستراباذي: ((ولا يجوز عند البصريين الاكتفاء باللام عن النون إلا في الضرورة، والكوفيون أجازوه بلا ضرورة))[٥].

ونجد في المقابل، من النحويين من يؤكِّد أهميَّة ملازمة النون للفعل المضارع إذا كان جوابًا للقسم دخلت عليه اللام. قال المالقي: ((وإنَّما دخلت اللام في جواب القسم ليتلقَّى بها مبالغة في التوكيد، إذ القسم توكيد المُقْسَمِ عليه، وكذلك إذا كان المضارع باللام والنون لزم أنْ يكوم جوابًا للقسم كما تقدَّم لأنَّ النون مخلصة لذلك، وهي لازمة لجواب القسم عند بعضهم، وبعضهم لا يعتقد ذلك لقول الشاعر[٦]:

تَأَلَّى ابْنُ أَوْسٍ حَلْفَةً لَيَرُدُّنِيْ ... إِلَى نِسْوَةٍ كَأَنَّهُنَّ مَفَائِدُ

وهذا عندي لضرورة الشعر، ولم يأت في الكلام نحو (والله لَيَقُوم زَيْدٌ) وذلك بخلاف اللام، فإنَّها غير لازمةٍ، لأنَّها في الحقيقة لام الابتداء، لأنَّها لا تدخل في موضع لا تصلح فيه (إنَّ) المكسورة، ولام الابتداء لا تلزم في الابتداء، فلا تلزم في الجواب، فهذا وجه، ووجه آخر أنَّه

---

(١) ينظر الكشاف (٥٨/٤)

(٢) ينظر البحر المحيط (٢١٣/٨)

(٣) البحر المحيط (٢١٣/٨)

(٤) شرح المفصل (٣٩/٩)

(٥) شرح الكافية (٣١١/٤)

(٦) البيت في الحماسة (٢١٦/١) لزيد الفوارس الضبي

قد حصل التوكيد لجملة القسم فلا ضرورة إلى توكيد غيره إلا مبالغة خاصة، بخلاف النون فإنَّها لازمة لأجل التخليص للقسميَّة والاستقبال))[1].

وإذا أنعمنا النظر في السبب الأوَّل عند الزمخشري لرفض توجيه اللام في قراءة (لأُقْسِمُ) على أنَّها لام القسم، لعدم اقتران الفعل الداخلة عليه (أُقْسِمُ) بنون التوكيد، يظهر لنا أنَّ أبا حيَّان قد فهم الأمر بصورة مختلفة وهو: إلحاق اللام بالفعل إذا دخلت علية نون التوكيد، لأنَّه يقول في ردِّه على الزمخشري ((أمَّا الأمر الأوَّل ففيه خلاف، فالذي قاله قول البصريين، وأمَّا الكوفيون فيختارون ذلك ولكن يجيزون تعاقبهما فيجيزون (لأَضْرِبَنَّ زَيْدًا) و(أَضْرِبَنَّ عَمْرًا)))[2] ففي مثاله ألحق اللام بالفعل أضربنَّ في المثال الأوَّل ولم يلحقها في الثاني، مع أنَّ النون قد اتَّصلت بالفعل في المثالين. وكأنَّ الكلام على إلحاق اللام في الفعل إذا دخلت عليه نون التوكيد وليس إلحاق النون بالفعل إذا دخلت عليه لام القسم.

وسبب ترجيح أبي حيَّان كون اللام في (لأُقْسِمُ) لام القسم، هو أنَّ (أُقْسِمُ) فعل حال[3]، وأنَّ القسم قد يكون جوابًا للقسم كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾[4] فاللام في (وليحلفنَّ) جواب قسم وهو قسم، لكنَّه لم يكن حلفهم حالا، بل مستقبلا لزمت النون وهي مخلصة المضارع للاستقبال[5].

إنَّ قياس أبي حيَّان قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ على قوله تعالى: (لأُقْسِمُ) غير صحيح لأنَّ اللام والنون في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ تدلُّ على وجود قسم، أمَّا اللام في (لأُقْسِمُ) فلا تدلُّ على القسم وحدها إذ لابدَّ من تقدير قسم قبلها، كأنْ نقول: (والله لأُقْسِمُ) ثُمَّ إنَّ قوله تعالى: (ليحلفنَّ) حكاية ما ستكون عليه حال فئةٍ من الناس في المستقبل، وصيغة المضارع في (ليحلفنَّ) تدلُّ على الغائبين أي (هم) أمَّا في قوله تعالى: (لأُقْسِمُ) في قراءة الحسن في صيغة المضارع للمتكلِّم وقوله (لأُقْسِمُ) ليس قسمًا، أمَّا (ليحلفنَّ) فهي قسم. فالقسم الواقع في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ ليس من كلمة (يَحْلِفُ) وإنَّما من اللام والنون فيها، أمَّا في قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ فالواضح: أنَّ كلمة (أُقْسِمُ) قسم في ذاتها، وهذا فرقٌ كبيرٌ بين الآيتين ولذلك لا يجوز القياس بينهما.

---

(١) رصف المباني (٢٣٩-٢٤٠)

(٢) البحر المحيط (٢١٣/٨)

(٣) ينظر الجنى الداني (١٢٧)، حاشية الصبان على شرح الأشموني (٢١٥/٣)، ضياء السالك إلى أوضح المسالك (٣٣٤/٣)

(3) التوبة: ١٠٧

(٥) ينظر البحر المحيط (٢١٣/٨)

إنَّ دخول اللام على الفعل المضارع المستقبل يلزم أنْ تلحقه النون لأنَّه يدلُّ على أنَّــه قسم لم يتحقَّق كقولك: (لأضربنَّ) والفعل في (لأُقْسِمُ) فعل الحال ويجوز دخــول لام القســم عليه. قال الزجَّاجي في دخول لام القسم على فعل الحال ((فإنْ لم تُرِد الاســتقبال جــاز أنْ تقول: والله لَيَقُوْمُ ويُصلِّي، لمن هو في تلك الحال))[1]، وقال المرادي: ((وفعــل الحــال إذا أُقْسِمَ عليه دخلت عليه اللام وحدها))[2].

الملاحظ ممَّا تقدَّم، أنَّ لفظ القسم يسبق لام جواب القسم الداخلة على فعل الحال ليــدلَّ على وجود قسم، لأنَّنا إذا قلنا (ليقوم ويصلي) لم نفهم منها وجود قسمٍ إنْ لم يسبقها قولنا: (والله) وهذا عكس الفعل المستقبل، إذ دخول اللام والنون يُؤْذِنُ بوجود قسمٍ حتَّــى وإنْ لــم يرد لفظ القسم.

وهذا يتطلب منَّا أنْ نُقَدِّر في قراءة (لأُقْسِمُ) في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾، يمينًا قبل لام القسم الداخلة على فعل الحال (أُقْسِمُ) فيكون تقدير الكلام (والله لأُقْسِمُ بِيَــوْمِ القِيَامَــةِ)، ولا يخفى ما في هذا المعنى من ركاكةٍ، لأنَّه قسمٌ على قسمٍ، وقد أشار إلى ذلك الرازي[3]. وفي امْتِنَاع دخول القسم على القسم يقول أبو عليٍّ الفارسي: ((الدليل عندي أنَّ لام الابْتِداء كونها للابتداء أعمُّ من كونها للقسم، دخولها في (لَعَمْرِكَ لأَفْعَلَنَّ) ألا تراها في هذا الموضع للابتداء مجرَّدًا من معنى القسم، لأنَّ القسم لا يجوز تقديره هاهنا، لامتناع دخول القسم على القسم، لأنَّ القسم لا يُقْسَمُ عليه))[4] وقال ابن جنِّي في لام (لَعَمْرِكَ) من قولنا (لَعَمْــرُكَ لأَقُــوْمَنَّ): ((فهذه اللام لام الابتداء معرَّاة من معنى الجواب، وذلك أنَّ قولك (لَعَمْرُكَ) قسمٌ ومحــالٌ أنْ يُجاب القسم بالقسم، فلا يجوز إذن أنْ يكون التقدير (والله لَعَمْرُكَ لأَقُوْمَنَّ)))[5].

---

(١) كتاب اللامات (١١٤)

(٢) الجنى الداني (١٢٧)

(٣) ينظر تفسير الرازي (٣٠ / ٢١٥)

(٤) المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات (٢٣٧)

(٥) سر صناعة الإعراب (٣٨٣/١)

الــــرأي الخــــامــــس

يتمثَّل بآراء متفرِّقة في كتب التفسير قيلت في (لا) الواردة في صيغه (لا أُقْسِمُ)، وقد جمعت هذه الآراء في موضعٍ واحدٍ، لأنَّها شديدة الغرابة، وهي آراء سطحيَّة لم تُنْسَب إلى أحد، فضلا عن أنَّ أحدًا لم يتبنَّها، ولم يكن ذِكْرها في كتب التفسير إلا لغرض الرفض والتضعيف والإنكار، أو لإيرادها ضمن آراءٍ قيلت في (لا)، أي للعرض فحسب، وهذه الآراء هي:

أ] (لا) في (لا أُقْسِمُ) بمعنى (ألا) للتنبيه، أو اسْتِفْتاح الكلام.

ب] (لا أُقْسِمُ) هي كلمة قسم.

ت] (لا) من (لا أُقْسِمُ) معناها الاستفهام الإنكاري.

ث] (لا) في (لا أُقْسِمُ) بمعنى الاستثناء.

أ) (لا) في (لا أُقْسِمُ)، بمعنى (ألا) للتنبيه أو استفتاح الكلام:

ورد معنى (لا) في (لا أُقْسِمُ) بمعنى (ألا) للتبيه عند القرطبي في تفسير قوله تعــالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[1]، ((وقيل: (لا) بمعنى (ألا) للتنبيه كما قال: *ألا عِمْ صَبَاحًا أيُّها الطَّلَلُ البَالِي* ونبَّه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبَّروه وإنَّه ليس بشعرٍ، ولا سحرٍ، ولا كهانةٍ كما زعموا))[2]، وذكره ابْن عطيَّة فقال: ((قال بعض المتأولين: هي مُؤَكِّدَة تعطي في القسم مبالغة ما، وهي كاسْتِفْتاح كلامٍ شُبِّه في القسم (ألا) في شائع الكلام، القســم وغيــره))[3]. وأورد الشوكاني هذا المعنى واستبعده بقوله: ((وقيل: إنَّ (لا) هنا بمعنى (ألا) التي للتنبيه، وهو بعيد))[4]. وقال الآلوسي: ((قال بعضهم: إنَّ (لا) كثيرا ما يُؤْتَى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح كما في قوله:

لا وأَبِيْكِ ابْنَةَ العَامِرِيّ   لا يَدَّعِيْ القَوْمُ أنِّيْ أَفِر))[5].

---

(١) الواقعة: ٧٥

(٢) تفسير القرطبي (٢٢٣/١٧)

(٣) المحرر الوجيز (٢٥٠/٥)، وينظر البحر المحيط (٢١٣/٨)

(٤) فتح القدير (١٦٠/٥)

(٥) روح المعاني (١٥٣/٢٧)، ينظر التفسير الوسيط (٢٣٢/١٤)

وقد ضعَّف ابْن كثيرٍ[1] كون (لا) اسْتِفتاحًا للكلام في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

هذا عند المفسِّرين، أمَّا عند النحويين؛ فلم يَرِد في كتب النحو كون (لا) في (لا أُقْسِمُ) بمعنى التنبيه، أو لاسْتِفتاح الكلام، الذي هو معنى (ألا)[2]، وهي تختلف كل الاختلاف عن (لا) في معناها وتركيبها، والشواهد الي ذُكرت على معنى الاسْتِفتاح في (لا) هي نفسها التي استشهد بها على معنى زيادة (لا)، والظاهر من الأمر أنَّ من اسْتَقبح أنْ يقول إنَّ (لا) زائدة في كلام الله تعالى، ولم يَسْتَقِم عنده معنى النفي فيها، حاول أنْ يبحث لها عن معنًى مفيدٍ في رأيه، يتوافق مع موقعها في بداية الكلام، فقال: إنَّها اسْتِفْتاحٌ وتنبيه.

هذا فضلا عمَّا في هذا الرأي من قسرٍ وإجحافٍ في حقِّ (لا) النافية لسلبها معناها وتوجيهها إلى حيث لا يستقيم معها المعنى في الآيات، وفتح الباب واسعًا أمام كلِّ من يريد أنْ يتأوَّل فيحقُّ له قلب معنى الحروف وتغييرها.

ب) (لا أُقْسِمُ) كلمة قسم:

ورد هذا المعنى عند القاسمي في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[3] حين قال: ((... وأمَّا (لا أُقْسِمُ) بتمامها صيغة من صيغ القسم، على ما ارْتَضاه بعض المحقِّقين))[4]، هذا الرأي لا يمكن وصفه إلا بالرأي الغريب، لأنَّه تجاهل وجود (لا) بشكل كامل، بل ألغى حتَّى معنى النفي فيها، وأدمج رسمها بـ(أُقْسِمُ) إدماجًا تعسفيًّا حتَّى ظهر له أنَّ (لا أُقْسِمُ) كلمة واحدة بمعنى (أُقْسِمُ)، ولم يذكر مع الرأي الهدف من وضع (لا) قبل (أُقْسِمُ) ولم يذكر لها نظائر من العربية في غير القرآن الكريم.

ثم إنِّي لم أجد عند من تكلَّم من النحويين على أسلوب القسم أنَّ كلمة (لا) وكلمة (أُقْسِمُ) عندما نجمعهما فنقول: (لا أُقْسِمُ) تتكوَّن لدينا صيغة قسم. ويبدو لي أنَّها صيغةٌ مقترحةٌ على علماء النحو من جهةٍ مجهولةٍ، لأنَّه لم يُذكر في المواضع التي ورد فيها هذا الرأي قائله أو مُتبَنِّيه، مع العلم أنَّ مواضع ذكره يُمكن أنْ تُعَدَّ على أصابع اليد الواحدة.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٢٩٨/٤)

(٢) ينظر شرح الكافية (٤٢١/٤)، رصف المباني (٧٨)، مغني اللبيب (١٤٣/١ – ١٤٤)

(٣) الواقعة: ٧٥

(٤) تفسير القاسمي (٥٦٥٩/١٦)، وينظر مفاهيم القرآن (٤٠٠/٩)، الميزان (١٥٥/١٩)

أمَّا قول الشيخ محمَّد عبده في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَـدِ﴾[1] ((إنَّ (لا أُقْسِمُ) عبارة من عبارات العرب في القسم، يُراد بها تأكيد الخبر، كأنَّه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم))[2]، فليس له صلة بهذا الرأي، لأنَّ الواضح من النص أنَّ الشيخ محمَّد عبده يتكلَّم على نفي القسم بدليل قوله: (كأنَّه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم).

ت) (لا) في (لا أُقْسِمُ) معناها الاسْتِفهام الإنكاري:

قال الرازي، وهو يعرض معنى نفي القسم في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَـدِ﴾ ((... أنْ يكون الغرض منه الاسْتِفهام على سبيل الإنكار، والتقدير: (ألا أُقْسِمُ بيَوْمِ القِيَامَـةِ. ألا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللوَّامَة على أنَّ الحشر والنشر حقٌّ)))[3].

وهذا القول يدعونا إلى زيادة همزة الاسْتفهام إنْ لم يكن برسمها فبحضور معناها، وليست زيادتها في المعنى بالأمر الهين، لأنَّ مجرى الكلام سيتحوَّل من أسلوب النفي إلى أسلوب الاستفهام، ونحن نعلم أنَّه لا يجوز لنا الزيادة في كلام الله تعالى، فالله، جلَّ جلاله، لا يعوزه الكلم، فإنْ كان المراد هو الاسْتِفهام فما المانع من ذكر همزة الاسْتِفهام قبل (لا)، وعدم ذِكْرِها سيُحدث إشكالا وتشابكًا في المعاني، ويفتح الباب للتأويل، وفي موضوع زيادة اللفظ أو المعنى، قال ابْن مضاء القرطبي: ((... وادِّعاء الزيادة في كلام المتكلِّمين من غير دليل يدلُّ عليه خطأٌ بين، لكنَّه لا يتعلَّق بذلك عقاب، وأمَّا طرد ذلك في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وادِّعاء زيادة معانٍ فيه من غير حُجَّةٍ ولا دليلٍ... فالقول بذلك حرام على من تبيَّن له ذلك... وممَّا يدلُّ على أنَّه حرامٌ الإجماع على أنَّه لا يُزاد في القرآن لفظٌ غير المُجْمَع على إثباته، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ، بل هي أحرى، لأنَّ المعاني هي المقصودة. والألفاظ دلالات عليها ومن أجلها))[4].

ث) (لا) في صيغه (لا أُقْسِمُ) بمعنى الاسْتِثناء:

ذكر هذا الرأي الزركشي بقوله: ((وأجاز الخارجي في ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[5]

---

(1) البلد: 1

(2) تفسير جزء عم (76)

(3) تفسير الرازي (30 / 215)، وينظر غرائب القرآن (29/104)

(4) كتاب الرد على النحاة (81-82)

(5) القيامة : 1

كون (لا) منه بمعنى الاسْتِثْناء فحُذِفَت الهمزة وبقيت (لا)))[1].

يتَّصل هذا الرأي بالرأي السابق له، اتِّصالا كبيرًا من حيث كونه واهيًا غريبًا، ولا اخْتِلاف بينهما إلا في المعنى الحاصل، فعندما قال الخازرجي على نحو ما نَقَل عنه الزركشي: إنَّ همزة الاسْتثناء قد حُذِفت وبقيت (لا) فإنَّ هذا الحذف لم يدلّ عليه، وعلماء النحو يشيرون إلى أنَّ المواضع التي يحتاج في معرفة المحذوف منها إلى تأمُّلٍ كثير، وفكرٍ طويلٍ، فلا يجوز الحذف فيها لما في الحذف من اللبس على السامعين[2].

هذا فضلا عن أنَّ المعنى في الآية الكريمة يحتاج إلى توضيح سبب الاستثناء وأهميَّته في الآية الكريمة، وهل يمكننا تطبيقه على باقي المواضع التي وردت فيها صيغه (لا أُقْسِمُ) أو هو خاصٌّ بموضع ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؟ وإنْ كان كذلك فما وجه الخصوصيَّة فيه، وما المعنى الذي يمكن تطبيقه في باقي المواضع. وأخيرًا كيف يختلف، إنْ اخْتَلَف، معنى صيغه (لا أُقْسِمُ) من موضعٍ لآخر. ولماذا؟؟.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٤/٣٦٠)

(٢) ينظر كتاب الرد على النحاة (٨٥)

الرأي السادس
(لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) نفي للقسم

يدلُّ هذا الرأي على أنَّ صيغه (لا أُقْسِمُ) في مواضعها الثمانية[1] المذكورة في القــرآن الكريم هي رفضٌ من الله تبارك وتعالى وامْتِنَاعٌ صريحٌ واضحٌ عن القســم. وتــؤدِّي هــذه الصيغه معنى (لا أُقْسِمُ)، وقد تؤدِّي معنى (لن أُقْسِمَ).

وقد ورد هذا الرأي، كما ذكرت آنفًا، عند عددٍ مــن المفسِّــرين والنحــويين، وعبَّــر أصحابه عنه بصيغٍ مختلفة أهمّها:

ــ قيل: إنَّ صيغة (لا أُقْسِمُ) نفيٌ للقسم[2] من الله تعالى تنزيهًا لله سبحانه أنْ يُقسم على أمرٍ لا يحتاج إلى قسم

ــ وقيل: إنَّ (لا أُقْسِمُ) تلويحٌ بالقسم[3]، ثم عدول عنه لما لهذا الأسلوب من تأثير فــي تقرير الحقيقة.

ــ (لا أُقْسِمُ) تهمُّم بالقسم[4] لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المُقْسَمِ به، بحيث يــوهم السامع أنَّ المتكلِّم يهمّ أنْ يُقْسم، ثم يترك القسم مخافة الحنث.

ــ (لا أُقْسِمُ) إيحاءٌ بالقسم[5] على أساس أنَّه في مستوى القسم به، ولكنْ لا ضــرورة لذلك لوضوح الأمر وجلائه.

ــ (لا أُقْسِمُ) نفي للقسم، لأنَّ المُقْسَمَ لأجله أعظمُ وأهمُّ وأجلُّ[6] من أنْ يُقسَمَ عليه بهذه الأمور الهيِّنة الشأن، وفي ذلك تعظيم للمُقْسَمِ عليه، وتفخيم لشأنه.

ــ (لا أُقْسِمُ) صيغة وردت للدلالة على أنَّ الأمر أوضح من أنْ يحتاج إلى قسم[7]، ولــو

---

(١) ينظر الواقعه: ٧٥، الحاقة: ٣٨-٣٩ ، المعارج:٤٠، القيامة: ١-٢، التكوير: ١٥، الانشقاق: ١٦، البلد: ١

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (١١٩٠/٨)

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٢٧ /١٤٤)

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٢٥١/٥)، التحرير والتنوير (٢٣٨/٢٩)

(٥) ينظر من وحي القرآن (٢٦١/٢٣)

(٦) ينظر التفسير الوسيط (٥٦٢/١٥)

(٧) ينظر روح المعاني (١٥٣/٢٧)، التفسير الوسيط (٢٣٢/١٤)

احتَاج الأمر إلى قسم لما أقسم الله تعالى إلا بهـذه الحقـائق الجليلـة المناسـبة لعظمتـه وجلاله[1].

ــ (لا أُقْسِمُ) صيغة امْتِناع من القسم، امْتِناع تحرُّج من أنْ يحلف بالمُقْسَم بـه خشـية الحنث[2]، واحْتِرامًا للمُقْسَم به وتعظيمًا وتشريفًا له[3].

وأودُّ أنْ أوضِّح، زيادة على ما ذكرته، أنَّ ما دفعني إلى جعل هذا الـرأي (معنـى (لا أُقْسِمُ) نفي للقسم)، آخر الآراء التي أوردتها في صيغة (لا أُقْسِمُ) هو: الاهتمام به، وربطـه بموضوع الفصل الثالث الذي يتكلَّم على أغراض نفي القسم، ولو قدَّمته قبل أنْ أُوَضِّح كـلّ الأوجه، والآراء التي قيلت في (لا) وأناقشها، لما اتَّضحت عند القارئ أهميَّة هـذا الـرأي وصحَّته. فضلا عن تأييدي الكامل له، للأسباب الآتية:

١] بناء على كلِّ ما تقدَّم في هذا الفصل من بحث للآراء التي قيلت في (لا) الواردة في صيغة (لا أُقْسِمُ)، وما تكوَّن من مناقشتها وتحليلها، وجدت أنَّ ما ورد في هـذه الآراء من معانٍ ودلالات لا ينسجم مع الآيات السابقة واللاحقة لصيغة نفي القسم، ولا يجلِّـي وحدة السياق، ولا يكشف المعنى العام بما فيه من الدلالة المرجوَّة من القسم والغـرض منه على ما قرَّروه.

٢] لم يكن ما أورده النحويون من أدلَّة لزيادة (لا) مُقْنِعًا، وقد ذكرت، عندما ناقشـت الرأي القائل بزيادة (لا) وهو أكثر الآراء ورودًا في نفي (نفي القسم)، ما يُغْنِينـي عـن الإعادة والتكرار هنا، وما استقَرَّ عندي أنَّ المعاني التي بُنِيَت على آراء النحويين فـي هذا الأمر كانت ضعيفةً ركيكةً.

٣] إنَّ الآراء الواردة في صيغة نفي القسم (لا أُقْسِمُ)، عدا رأي النفي، لا تنسجم مـع ما يتبادر إلى الذهن حين تطرق العبارة السمع أوَّل وهلة، فإنَّ السليقة العربيَّة السماعيَّة لتلقي معاني الألفاظ ترفضها، أمَّا معنى النفي؛ فيؤيّده السماع الفطـري، ومـا يعطيـه الانْطِباع الأوَّل للسامع عند طرق الكلمة أوَّل وهلة.

٤] إنَّ الأصل في (لا) أنْ تكون نافية، والنفي شطر الكلام، لأنَّ الكلام إمَّـا إثبـات أو نفي[4]، ومعنى النفي في (لا) يتماشى مع ترابط الآيات ومعانيها ضمن السورة الواحدة. الواحدة.

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٧٣٥/٧)

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٤١/٢٩)

(٣) ينظر تقريب القرآن (١٢٥/٢٧)، التفسير لكتاب الله المنير (١١٠/٨)

(٤)ينظر البرهان في علوم القرآن (٣٧٥/٢)

٥] إنَّ دلالات نفي القسم واضحة في الآيات التي ذكرت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ)، ويمكننا فهمها وفهم إشراقاتها، وفهم المعاني المرادة منها بشكلٍ راسخ محكم، ويمكننا أنْ نستخلص بعد ذلك الكثير من الاسْتنتاجات والتصحيحات والأحكام، ولاسيَّما أنَّ آيات نفي القسم ليست من المتشابه أو المنسوخ[1] في القرآن الكريم، بل هي من المحكم.

٦] إن كُلَّ القسم في القرآن الكريم، كان مباشرًا باستخدام أحرف القسم والمُقْسَم به، ولم يقسم، جلَّ جلاله، باستخدام فعل (أُقْسِمُ) أو (أحلف)، فلا نجد في القرآن الكريم (أُقسم بالشمس) (أُقسم بالتين)، وفي ذلك قوَّة وتوجيه مباشر للفت الانتباه إلى المُقْسَم به. وحين ورد فعل القسم في القرآن الكريم لم يرد إلا مسبوقًا بـ(لا) النافية. وقد وضَّحت هذا الأمر، في فصل سابق.

٧] أريد أنْ أُبَيِّن أنَّ هذا الرأي لم يُبْحث مستقلا بشكل مستفيض واف، ولم تدرس صيغة (نفي القسم) بشكل واضح مقارن، ولم تحدَّد لهذه الصيغة أغراض خاصة، أو دلالات تميزه من أسلوب القسم، وذلك في رأيي يُعَدُّ نقصا كبيرا في فهم معنى القسم، لخلط معناه بمعنى نفي القسم، كما يشكِّل، في الوقت نفسه، تهميشًا لموضوع مهم وهو نفي القسم بما يتَّصل به من مباحث وكشف عن حقائق بُنِيَت على أساسها مفاهيم ودلالات وعقائد وقواعد نحويَّة، تحتاج كلّها إلى إعادة نظر وبناء.

٨] سأثبت، بعون الله تعالى، أنَّ تأييدي الرأي القائل بكون (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) نافية، هو الرأي الأقوى الذي يربط الآيات الكريمة التي وردت فيها هذه الصيغة بما بعدها، ويجعل المعاني نسيجًا واحدًا متماسكًا معجزًا للسورة الواحدة بأكملها.

وسأدرج أغراضًا لنفي القسم، كما دلَّتني عليها الآيات الكريمة ومعانيها العظيمة المعجزة، وقد اجْتَهدت مُسَمَّيَات لهذه الأغراض بما يُنَاسبها ويدلّ عليها. وسأعطي المعاني الدلالية الواضحة لكلِّ موضع من المواضع التي وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) بما يوضِّح غرض نفي القسم فيها.

(١) ينظر الناسخ والمنسوخ للمقري (١٧٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،١٩٨)، الناسخ والنسوخ لابن حزم الظاهري (٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥)

الفَصْلُ الثَّالِث

أَغْرَاضُ صِيْغَةِ نَفْيِ فِعْلِ القَسَمِ (لا أُقْسِمُ) فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْم

الغرض الأوَّل
رَفْعُ التَّعْظِيْمِ عَنْ المُشَارِ إِلَيْهِ بـ(لا أُقْسِمُ)

لكي نسلِّط الضوء على هذا الغرض، لابدَّ لنا من دراسة سورة البلد، لأنَّ غرض رفع التعظيم عن المُشَار إليه بـ(لا أُقْسِمُ)، والتقليل من الشأن بعد تعظيمه يتجلَّى في هذه السورة العظيمة.

فحين ندرس سورة البلد، ونفهم آياتها على أساس أنَّ مستهلَّها قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[1] هو نفي حقيقي للقسم، نجد أنَّ اتِّجاه السورة كلّه قد استَقام، وأنَّ ما ورد فيها من معانٍ أصبح نسيجًا متماسكًا يوصل أوّله إلى تاليه، فلا تَشَتُّت للأفكار ولا انقطاع للمعاني في أوَّل السورة عن وسطها وآخرها، فضلا عن أنَّ الترابط المطلوب بين آياتها قد اتَّضح.

وأوَّل ترابطٍ في الفهم أو تقويمٍ له بعد الانْحِياز الكامل لمعنى النفي في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يكون في تثبيت معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[2] وترجيح الرأي في (حِلّ) ترجيحًا تامًّا ومُقْنِعًا.

إنَّ افْتِتَاح السورة بصيغة نفي القسم يقرع الأسماع والأذهان ويدقُّ إنذار إغارةٍ وشيكةٍ على أهل بلدٍ استَبَاحُوا كلَّ حرمةٍ لمحمَّدٍ، صلَّى الله عليه وسلَّم، وأصحابه بدليل كلمة (حِلّ) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ التي اخْتَلف المفسِّرون في معناها على النحو الآتي:

١ــ منهم من قال: إنَّ (حِلّ) بمعنى (حلال) وذلك على وجهين:

أحدهما: أنَّ الله تعالى جعل مكَّة حلالا لرسول الله[3] ساعةً من نهار يصنع فيها ما يشاء، والواضح أنَّ القائلين بهذا الرأي يرون أنَّ تحقيقه في المستقبل، لأنَّ الله أحلَّ مكَّة لرسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، يوم فتح مكَّة بحسب الرواية التي اعْتَمدوا عليها، والسورة مكِّيَّة[4] وبينها وبين فتح مكَّة سنوات طويلة، وتفسير الآية على هذا النحو بِالحَالِ

---

(١) البلد : ١

(٢) البلد : ٢

(٣) ينظر تفسير الصنعاني (٣ / ٢٧٣)، تفسير الطبري (٣٠ / ١٩٣)، تفسير الماوردي (٤/ ٤٥٦)، تفسير الواحدي (٢ / ١٢٠٣)، تفسير البغوي (٤ / ٤٨٨)، المحرر الوجيز(٥ / ٤٣٨)، زاد المسير (١٢٧/٩)، تفسير الثعالبي (٤ /٤١٤-٤١٥)، أسرار التكرار في القرآن الكريم (٢١٩)، تفسير الشربيني (٤ / ٥٣٧)

(٤) ينظر الناسخ والمنسوخ للمقري (١٩٨)، الناسخ والمنسوخ لابن حزم (٦٥)، تفسير القرطبي (٢٠/٦٠-٦١)، البحر المحيط (٨ / ٤٧٤)، البرهان في علوم القرآن (١ / ١٩٣ – ١٩٤)،

مُحَال. وكلٌّ من أورد هذا التأويل لكلمة (حِلّ) أورد الأحاديث التي تروي أنَّ مكَّة أُحِلَّت لرسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، ساعةً من نهارٍ. قال القرطبي: ((قال ابْن عبَّاس: أحلَّ له يوم دخل مكَّة أنْ يقتل من شاء، فقتل ابْن خطل، وميس بن صبابة، وغيرهما، ولم يحلّ لأحدٍ من الناس أنْ يقتل بها أحدًا بعد رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، وروى السدِّي قال: أُحِلَّتْ له ساعة من النهار ثم أُطْبِقَت وحُرِّمَت إلى يوم القيامة، وذلك يوم فتح مكَّة وثَبَت عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال[1]: إنَّ الله حرَّم مكَّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرامٌ إلى أنْ تقوم الساعة، فلم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي ولا تُحَلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تُحَلّ لي إلا ساعةً من نهار... الحديث))[2].

ولا شكَّ أنَّ هذا التفسير والاعْتِماد على هذه الراويات جاء على هذه الصورة بنظرةٍ مُتَأَخِّرَةٍ على ما فات، فالتفاسير كُتِبَت بعد انْتِهاء الأحداث بسنين طويلة، وكانت الأحداث أمام المفسِّرين مُكْتَمِلةً، والروايات موجودة ومتعدِّدة، فربط بعضهم هذا بذاك وتوصَّل إلى هذا المعنى، ولكنَّنا إذا عُدْنا إلى وقت نزول هذه السورة فسنتساءل: كيف فهم الصحابة الكرام الآية الكريمة وقت نزولها، وهم لا يعرفون الأحداث التي ستجري مستقبلا؟، وربَّما في وقتهم ذاك لم يكونوا يتوقَّعون أصلا أنْ تُفتح مكَّة لرسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو يتعرَّض فيها للأذى والتنكيل من المشركين. بل كان النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، نفسه يخشى في بدر وهو في وضعٍ أفضل من أيام مكَّة أنْ تَهْلِكَ العصابة المؤمنة مِنْ حوله، فلا يُعْبَد الله في الأرض، وكان يدعو الله قائلا: ((اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكَ هَذِه العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَد فِي الأَرْضِ))[3].

فما الحكمة من أنْ يُكَرِّر الله تبارك وتعالى القسم بمكَّة وهي مُبَاحة لرسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد أقسم جلَّ جلاله بها مُعظِّما إيَّاها من قبل في سورة التين المكِّيَّة أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[4]، وكيف يمكن ربط القسم في سورة البلد بالآيات التالية له، إذ القسم المفترض بمكَّة هنا مُقْتَرِنٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ممَّا يعني أنَّ القسم بها مُقَيَّدٌ بهذه الساعة التي أُحِلَّ للنَّبي، عليه الصلاة والسلام، أنْ يصنع فيها ما يشاء

الدارالمنثور (٨ / ٥١٦)، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (٢٢٧ – ٢٢٨)، فتح القدير (٥/ ٤٤٢)، تفسير الشربيني (٤ / ٥٣٧).

(١) ينظر صحيح مسلم (٢ / ٩٨٧)، سنن الترمذي (٤ / ٢١)، المنتقى لابن الجارود (١ / ١٣٤)، صحيح ابن حبان (٩ / ٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/٦٠-٦١)

(٣) صحيح مسلم (٥/١٥٦)

(٤) الآية: ٣

بأهل مكَّة، فالشيء الأكيد أنَّ مكَّة لن تكون مُعَظَّمةً في هذه الساعة ولا أمينةً ومُحَرَّمةً، لذلك لا يستقيم أنْ يختار المفسِّر معنى القسم المُعظِّم في موضع اسْتِبَاحة الحُرْمَة، وكان الأَوْلى أنْ يختار معنى نفي القسم لينسجم مع الرواية التي اعْتَمد عليها.

ولمن قال إنَّ المعنى في مُسْتَهَلِّ سورة البلد هو قسم بالبلد تعظيمًا للمُقْسَم به، تقول د.عائشة عبد الرحمن: ((لا نجد في القسم هنا إيحاء التعظيم للمُقْسَمِ به، بل إيحاء بخطره، ووقعه أقرب إلى الزجر والترهيب))[1].

الوجه الآخر: أنَّ المشركين اسْتَحَلُّوا أذى النَّبي محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، في مكَّة البلد الحرام، فأصبح، عليه الصلاة والسلام، مُسْتَحَلَّ الحرمة في مكَّة مُسْتَبَاح الأذى، وقد ورد هذا المعنى عند كثيرٍ من المفسِّرين[2]، وسأفصِّل القول فيه بعد عرض الآراء الأخرى في (حِلّ) ومناقشتها.

٢ـ (حِلّ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ من الحلول بمعنى الإقامة[3]، ويكون المعنى، على وفق من قال إنَّ قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ بمعنى (أُقْسِمُ): إنَّ الله تعالى أَقْسَم بمكَّة، وقَيَّد قسمه، جلَّ جلاله، بإقامة النَّبي محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، فيها[4] (أي ما دام فيها مقيمًا)، والمراد من القسم، بحسب رأيهم، تعظيم البلد الحرام وتشريفه بإقامة النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم فيه، وعلى هذا المعنى يمكن أنْ نقول: إنَّ مكَّة البلد الحرام قد فقدت تعظيمها وقُدْسِيَّتها بعد خروج الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، منها لأنَّ مفعول القسم بها قد انْتَهى بعد خروجه، عليه الصلاة والسلام، منها.

ثُمَّ ما الحكمة من تعظيم مكَّة في أثناء وجود الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، فيها مُضْطَهَدًا مُحَارَبًا، فضلا عن التناقض الظاهر لهذا القسم مع معاني الآيات التالية له كما سأوضِّح.

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم (١٦٢/١)

(٢) ينظر تفسير الماوردي (٤٥٦/٤)، مجمع البيان (٤٩٢/٥)، الكشاف (٢٥٥/٤)، المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، زاد المسير (١٢٧/٩)، تفسير الرازي (١٧٩/٣١)، تفسير النسفي (٣٣٩/٤)، الخازن (٤٢٩/٤)، تفسير أبي السعود (١٦٠/٩)، فتح القدير (٢٤٦/٥)، روح المعاني (١٣٣/٣٠-١٣٤)، الجديد (٣٧٢/٧)، تفسير فرات الكوفي (٥٧٧)، تفسير القمي (٤٢٢/٢)، الأمثل في تفسير الكتاب المنزل (١٩٢/٢٠)، من هدي القرآن (١١٨/١٨)، التفسير القرآني للقرآن (١٥٦٧/٧).

(٣) ينظر تفسير الماوردي (٤٥٦/٤)، المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، تفسير الرازي (٣١ / ١٧٩)، الخازن (٤٢٩/٤)، البحر المحيط (٤٧٤/٨)، تفسير الثعالبي (٤١٤/٤)، تفسير أبي السعود (١٦٠/٩)، فتح القدير (٤٦٦/٥)، روح المعاني (١٣٣/٣٠ – ١٣٤).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٥٩/٢٠)، تفسير البيضاوي (٤٩٢/٥)

٣ــ إنَّ (حِلّ) من الإحلال ضدَّ الإحرام[١] أي إنَّ النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، مُحِلٌّ ساكنٌ البلد، بخلاف المُحْرِم الذي يحجُّ ويعْتَمِر. وهذا المعنى بعيدٌ لا صله له بالآيات التاليــة، ولا يُمْكن ترجيحه والاعتماد عليه في ترتيب معنى الآيات في الســورة إلا بعــد التكلُّــف فــي التقديرات، والتعسُّف في التأويلات، وتمزيق السياق، وتشتيت النسيج الواحد المتماسك، ولذا قيل: ((نستبعد معنى الإحلال ضدَّ الإحرام لظهور ضعفه، إذ ليس له سياقٌ ولا مناســبة، ولا الأذهان متَّجهة إليه في هذا المقام))[٢].

وأعود إلى المعنى الأوَّل الذي يُفْهم منه أنَّ الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، مُسْــتَبَاحُ الحرمة في مكَّة، وممَّا يُؤَكِّد هذا المعنى ويدلُّ عليه، النفيُ الصريح للقسم بمكَّة الــذي ورد في مُسْتَهَلِّ السورة ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وقد سبق في الاستدلال على حقيقة النفي في الآية الكريمة، هذا فضلا عمَّا ورد في المعجمات اللغويَّة من معنى (حِلّ)، فالرجوع إلى كتب اللغة، غالبًا ما يكون الحكَم الفَصْل في قضايا اخْتِلاف الدلالة، فقد ورد فيها التفريق بين الحــلال، ومعنى النزول أو الإقامة الواردين في مادة (حَلَلَ):

جاء في كتاب العين: ((الحِلُّ: الحَلالُ نَفْسُه ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ﴾[٣]... والحِلُّ: الرَّجُلُ الحَــلالُ الذي خَرَجَ مِنْ إحْرَامِهِ، والفِعْلُ أَحَلَّ إِحْلالا... وفي الحديث (أَحِلَّ بِمَنْ أَحَلَّ بِكَ)[٤]، يَقُول: مَنْ تَرَكَ الإِحْرَامَ وأَحَلَّ بِكَ فَقَاتَلَكَ فَاحْلل أَنْتَ بِهِ فَقَاتِلْهُ))[٥].

وفي معنى (حَلَلَ)، يقال: حَلَلْتُ العُقْدَةَ أي فَتَحْتُها وهذا يقارب معنى فَكِّ الحُرْمَه بالاسْتِباحة. قال الجوهري: ((حَلَلْتُ العُقْدَةَ أُحِلُّهَا حَلا: فَتَحْتُهَا فانْحَلَّت... وحَــلَّ بالمَكَــانِ حَــلا وَحُلُــولا ومَحَلا، والمَحَلُّ أيضًا المكان الذي تَحِلُّه... والحِلُّ بالكسر: الحَلالُ وهُوَ ضِدُّ الحَرَام))[٦].

أمَّا ابْن منظور فقد أماط اللثام عن الفرق بين الحِلّ بكسر الحاء، والحَلّ بفتحها بما لا يدع مجالا للمداخلة بينهما بقوله: ((حَلَّ بالمكان يَحِلُّ حُلُوْلا ومَحَلا وحَلا وحَلَلا بفكِّ التصفيف نادر، وذلك نزول القوم بِمَحِلَّة وهو نقيض الارْتِحال... والحِلُّ والحــلال والحَلِيْــل: نقــيض الحرام حَلَّ يَحِلُّ حِلا وأَحَلَّه الله وحَلَّلَه... وهذا لك حِلٌّ أي حَلالٌ. يُقَال هو حِلٌّ وبِلٌّ أي طَلْــق

(١) ينظر تفسير الماوردي (٤٥٦/٤)، زاد المسير (١٢٧/٩)، التبيان في أقسام القرآن (٢٣)

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم (١٦٤/١) .

(٣) الممتحنه : ١٠

(٤) ينظر النهاية في غريب الحديث (١ / ٤١٢)

(٥) حلل، (٢٨/٣-٢٩)

(٦) الصحاح، حلل، (٤ / ١٦٧٢ -١٦٧٣)، وينظر مختار الصــحاح (١٥٠ – ١٥١)، مجمــع البحــرين (٥٦٢/١-٥٦٤) .

وكذلك الأنثى. ومن كلام عبد المطلب: لا أُحِلُّها لِمُغْتَسِلٍ وهـي لشَـارِبٍ حِـلٌ وبـلٌّ[1] أي حَلال...))[2].

هذه النصوص التي أوردتها من أمَّات المعجمات اللغويَّة دليل صريح وبـيِّن علـى أنَّ الفرق واضح بين معنى النزول والإقامة (الحَلّ)، بفتح الحاء ومعنى الحلال (الحِـلّ) بكسـر الحاء، وبذا يمكن أنْ نُلْغي الخلط بين المعنيين ونستبعد، تمامًا، معنى النزول أو الإقامة.

وممَّا يزيد في تأصيل معنى الحلال في كلمة (حِلّ) بكسر الحاء ويزيد فـي تأكيـده أنَّ هذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم، بهذا الوزن واللفظ، إلا بمعنى الحلال، وقد وردت فـي القرآن الكريم في خمسة مواضع ممثَّلة بأربع آيات هي: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾[3]، ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُـمْ وَطَعَـامُكُمْ حِـلٌّ لَهُمْ﴾[4]، ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[5]، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْـتَ حِـلٌّ بِهَـذَا الْبَلَدِ﴾[6].

أمَّا معنى الإقامة، فقد ورد في القرآن الكريم بأوزان وألفاظ غير (حِلّ)[7].

وقد أخذ القول بمعنى (حِلّ) على أنَّها استْباحة الحرمة، عبد الكريم الخطيب وأفـاض في شرح قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وأجاد في ربط معنى الاستْباحة في (حِلّ) مـع نفي القسم في مُسْتَهَلِّ السورة وسائر آياتها الكريمة، فبعد أنْ وضَّح الأذى الذي تعرَّض لـه النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، في مكَّة، واستْباحة المشركين لحُرمته فيها قال: ((هنا نُـدْرك بعض السرِّ في نفي القسم بالبلد الحرام. لقد جعله المشركون بلدًا غير حرام، وغيَّروا صفته التي له، حتَّى لقد صار هذا البلد غير أهل لأنْ يُقْسَمَ به من الله سبحانه، لأنَّ القسم مـن الله هو تشريف وتكريم لما يُقْسِمُ به سبحانه، وأنَّ الله سبحانه لن يُقْسِمَ بهذا البلد ما دام النَّبي، صلوات الله وسلامه عليه، لا تُرعى له حرمة في البلد الحرام. فإنَّ حرمة هـذا البلـد مـن حرمة النَّبي))[8].

---

(1) ينظر النهاية في غريب الحديث (١/٤١٢)

(2) لسان العرب، حلل، (١١/١٦٣ ، ١٦٦-١٦٧)، ينظر القاموس المحيط، حلل، (٣/٣٥٩-٣٦٠)

(3) آل عمران: ٩٣

(4) المائدة: ٥

(5) الممتحنة: ١٠

(6) البلد: ١-٢

(7) ينظر الرعد: ٣١ ، ابراهيم: ٢٨ ، فاطر: ٣٥

(8) التفسير القرآني للقرآن (٨/١٥٦٦ – ١٥٦٨)

ثُمَّ يوضِّح في تفسيره سبب رفع الحرمة عن البلد (مكَّة) بربط استِباحة حرمة النَّبـي، صلَّى الله عليه وسلَّم به، فيقول: ((وفي نفي القسم بالبلد الحرام، تجريم للمشركين، وتشنيع على جنايتهم الغليظة التي اقْتَرفوها في حقِّ رسول الله، وفي حقِّ البلد الأمـين، وأنَّ تلـك الجناية الشنعاء قد امْتَدَّت آثارها إلى البلد الحرام فسلبته حرمته، وأنَّ الله سبحانه وتعـالى رافع عنه هذه الحرمة، حتَّى ينتقم لنبيه الكريم من هؤلاء المجرمين، ويردَّ إليه اعتباره من التوقير والتكريم في رحاب البلد الحرام. وعندئذٍ تعود للبلد حرمته. وإنَّا لنذهب إلى أبعد من هذا، فنقول إنَّ رفع الحرمة عن البلد الحرام قد ظلَّ مُعَلَّقًا هكذا إلى أنْ خـرج منـه النَّبـي، صلوات الله وسلامه عليه، مهاجرًا ثم عاد إليه فاتحًا في السنة الثامنة من الهجرة))[1].

ولكي تتَّجه الأذهان باتِّجاه هذا المعنى، لابدَّ أنْ نُنْعش الذاكرة ببعض ما ورد في كتـب الصحاح[2]، والسيرة النبوية[3]، من الروايات التي تدلُّ على إيذاء المشركين للنَّبي، صـلَّى الله عليه وسلَّم، وعدم تفويت أيَّة فرصةٍ للنيل منه، عليه الصلاة والسلام.

وقد وصل إيذاء المشركين النبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، إلى حدٍّ دفعه، عليه الصلاة والسلام، إلى الدعاء يوما على قريش، ولم يكن من عادته، أن يفعل ذلـك. فقـد ورد فـي صحيح مسلم ((حدَّثنا عبد الله بن عمر بن محمَّد... عن ابْن مسعود قال: ثم بينمـا رسـول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، يُصلِّي بالبيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرَت جزورٌ بالأمس فقال أبو جهل: أيّكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه بين كتفي محمَّـد إذا سجد، فانْبَعث أشقى القوم فأخذه فلمَّا سجد النَّبي، صلَّى الله عليه وسـلَّم، وضـعه بـين كتفيه، قال فاسْتَضْحَكُوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائمٌ أنظر لو كانت لـي منعـةٌ طرحته عن ظهر رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، والنَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، ساجدٌ ما يرفع رأسه حتى انْطَلَق إنسانٌ فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه ثـم أقبلـت عليهم فشتمتهم فلمَّا قضى النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات... إلـى آخر الحديث))[4].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٥٦٦/٨ – ١٥٦٨)

(٢) ينظر صحيح البخاري (٣ / ١٤٠٠)، صحيح مسلم (١٤٢٠/٣)، فتح الباري (١٦٩/٧)

(٣) ينظر السيرة النبوية لابن هشام(٢٨٧/٢ – ٢٨٨)، السـيرة النبويـة لابـن كثيـر(٤٦٢/١، ٤٧٠-٤٧١)، (٤٣/٢-٤٢)، سـبل الهـدى والرشـاد (٣٧٧/٢ ، ٤٣٥)، الرسـول (ص) (٨٨/١)، مـع المصطفى (٧٢).

(٤) صحيح مسلم (١٤١٨/٣)، ينظر السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٦٨)

وفي صحيح البخاري صورة لأشدِّ يوم على النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، تُظْهِر معاناته الطويلة في اسْتِبَاحة قريش له، عليه الصلاة والسلام، ولأصحابه الكرام رضي الله عنهم، ونستدلُّ منها على أهميَّة حرمة النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، أمام حرمة مكَّة عند الله عزَّ وجلَّ، فقد رُوِيَ أنَّ عائشة، رضي الله عنها، قالت للنَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم: ((هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد، قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابْن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يُجِبْنِي إلى ما أردت، فانْطَلَقْت وأنا مهمومٌ على وجهي فلم أسْتَفِق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إنَّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال وسلَّم علي ثم قال يا محمَّد ــ فقال ذلك ــ فما شئت إنْ شئت أنْ أُطْبِق عليهم الأخشبين، فقال النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، بل أرجو أنْ يُخْرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشْرِك به شيئًا))(١).

وهكذا فلن يُقْسِمَ الله تبارك وتعالى بهذا البلد ليعظِّم شأنه وليهب له الحصانة، وأهل هذا البلد والمتنفذون فيه والمهيمنون على أموره يحاربون الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، بل سيرفع الحصانة عنه ما دام الحال على ذلك، ولو لم تُرْفَع الحصانة عن مكَّة لما وضع الله تحت تصرف النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، واخْتِيَاره أنْ يُعَاقِب قومه بما يشاء حتَّى ولو بإطباق الأخشبين عليهم وعلى بلدهم.

فـ(لا) في (لا أُقْسِمُ) هنا تتضمَّن معنى (لن) وتتجاوزه إلى (لا يكون) و(لا ينبغي) كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾(٢) أي لن يستووا ولا ينبغي لهم ذلك.

وعلى هذا؛ فلن يُقْسِمَ الرحمن الحكيم بمكَّة ليعظِّم شأنها، وأهلها يستبيحون حرمات النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، وأصحابه الكرام.

وفي نفي القسم بمكَّة في هذه السورة الكريمة رفعٌ وإلغاءٌ لتعظيمٍ سابقٍ كان لمكَّة جاء في سورة التين حين أَقْسَم الله، تبارك وتعالى، بها وقرنها بمكانين عظيمين، فيهما نشأت دعوة عيسى ودعوة موسى، عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ

---

(١) صحيح البخاري (٣/١١٨٠)، ينظر صحيح مسلم (٣/١٤٢٠)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/١٥٢-١٥٣)، سبل الهدى والرشاد (٢ /٤٤٠)

(٢) النساء: ٩٥

سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[١]. ففي أرض التين والزيتون نشأت دعوة عيسى، عليه السلام، وفي طور سينين نشأت دعوة موسى، عليه السلام، وفي البلد الأمين نشأت دعوة محمَّـد، صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

ولمن يربط القسم بالبلد الأمين في سورة التين بقوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ في سورة البلد مستدِلا على زيادة (لا) في (لا أُقْسِمُ)، والقول: إنَّ المعنى أُقْسِمُ بهذا البلد لأنَّ الله تعالى قد أقسم به في سورة التين[٣]، أقول: إنَّ الأمر الوحيد الذي تشترك فيه الآيتان هو ورود (هذا البلد) والقصد مكَّة المكرمة، فـ ((حيثما جاء (هذا البلد) في القرآن الكريم، مفردًا معرفًا بالـ مشارًا إليه بـ(هذا)، فهي مكَّة))[٤].

ولكن الآيتين تختلفان في جانبٍ مهمٍّ، وهو أنَّ (البلد) في سورة التين وصف بالأمين، أمَّا في سورة البلد فلم يردْ هذا الوصف، بل ورد البلد مجرَّدًا من صفة الأمين. وإذا أحصينا ما ورد في القرآن الكريم من ذكر البلد مفردا معرَّفا بـ(الـ) مشارًا إليه بـ(هذا) نجده قد ورد في أربعة مواضع، موضعان في سورة البلد ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[٥]، والموضعان الآخران، هما قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[٦]، وقوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[٧] ففي هذين الموضعين قُرِن ذكر البلد بالأمن ولم يرد قوله: (هذا البلد) مجردا من الوصف بالأمن إلا في سورة البلد، وهذا يجعلنا نجزم بحصول أمرٍ عظيم قد أغضب الله، جلَّ جلاله، فرفع عن مكَّة صفة الأمن التي تلازمها.

وإذا تتبَّعنا ذكر (البلد) في القرآن الكريم مفردًا غير معرفة، فسنجده في أربعة مواضع، واحد منها فقط أريد به (مكَّة)، وهو قوله تعالى على لسان سيِّدنا ابراهيم، عليه السلام، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾[٨]، وقد قُرِنَ ذكر البلد فيها أيضًا بصفة الأمن، أمَّا المواضع الثلاثة الأخرى[٩] فليس المراد بها مكة.

---

(١) التين: ١-٣

(٢) ينظر التعبير القرآني (٣٠٠)

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/٥٩)

(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم (١٥٩)

(٥) البلد: ١-٢

(٦) إبراهيم: ٣٥

(٧) التين: ٣

(٨) البقرة: ١٢٦

(٩) ينظر النحل: ٧، فاطر: ٩، الأعراف: ٥٧.

وبتتبع ترتيب السور وتسلسل نزولها، يتَّضح لنا أنَّ التعظيم بالقسم، تَمَّ أوَّلا في سورة التين ثُمَّ رُفِعَ في سورة البلد، بنفي القسم ونزع صفة الأمين، وبين السورتين ست سور كريمة[1].

والجو العام في سورة التين ليس فيه غضب ملحوظ، بدلالة جواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]، وفي ذلك مدح ورفع شأنٍ عامَّان للإنسان، أمَّا في سورة البلد، فنجد جواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[3] يُوحي مع ما قبله بغضبٍ شديدٍ يتزايد إيقاعه باستمرار ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾[4] إلى أنْ تنتهي السورة بوعيد من من استَبَاحوا حرمة البلد الأمين، وحرمة النَّبي الأمين، وتهديدهم ووصفهم بالكفر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ*عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[5]، ولا نجد في سورة التين، التي أَقْسَم الله فيها بالبلد الحرام، إشارة إلى الحرب على الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، واستِعارها وإنَّما ذكرت السورة التكذيب فقط ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾[6]، فجاء القسم ليلفت الانْتِباه إلى صدق الخبر وهو (الدين). أمَّا في سورة البلد فالإشارة إلى حرب الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، وما يلقاه من أذى كان من بداية السورة، بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[7] وقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾[8] في إشارة إلى الإنفاق على الحرب ضدَّ الرسول، الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد ورد هذا المعنى عند كثيرٍ من المفسِّرين[9].

فالقسم بالبلد الأمين في سورة التين كان، بادئ ذي بدء، تكريمًا وتشريفًا عظيمين لأهل مكَّة (قريش)، وكان عليهم أنْ يلتفتوا إلى ذلك وإلى أنَّ بلدهم قد رُفِعَ شأنه وعَظُم قدره، وكان عليهم أنْ يُسَارعوا إلى الشكر والاستِجابة ليتشرَّفُوا ويَعْظُم ذكرهم، فقد اختار الله بلدهم لبعثةٍ ورسالةٍ ودينٍ ليجعلهم أفضل شأنًا وحالا من اليهود الذين كانوا يتفاخرون

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (١/١٩٣ – ١٩٤)، الإتقان في علوم القرآن (١/٢٥)، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (٢٢٧ – ٢٢٨)

(٢) التين : ٤

(٣) البلد : ٤

(٤) البلد : ٥

(٥) البلد : ١٩–٢٠

(٦) التين: ٧

(٧) البلد: ٢

(٨) البلد: ٦

(٩) ينظر تفسير الطبري (٣٠/١٩٨)، تفسير الواحدي (٢/١٢٠٣–١٢٠٤)، تفسير البغوي (٤/٤٨٩)، تفسير الرازي (٣١/١٨٢)، تفسير القرطبي (٢٠/٦٤)، تفسير البيضاوي (٥/٤٩٢–٤٩٣)، فتح القدير (٥/٤٤٣)، روح المعاني (٣٠/١٣٦)

ويتعالون على العرب بدينهم وكتابهم، ومن النصارى الروم الذين اسْتَعبدوا العرب واسْتَرْهبوهم.

لقد أراد الله تبارك وتعالى للإنسان العربي في مكّة أنْ يكون في أرفع مكان وأشرف منزلة بعد أنْ عانى تكبُّرهم وتعاليهم وظلمهم، فجعل خاتم النبيين وناسخة الرسالات في بلدهم، فما يكذبه بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين وأعدلهم.

وإذا وُجِدَ من يسأل عن سبب تعظيم مكّة بالقسم في سورة التين، وقد كان هناك تكذيب من كبرائها منذ البداية، ولِمَ لَمْ يُرْفَع التعظيم ويبطل لأوّل تكذيب تلا السورة؟ فالجواب عن ذلك يتمثّل في أنَّ طور التبليغ الأوّل لا بدَّ أنْ يبلغ مداه، وأنْ يأخذ وقعه مع أهله وأنْ تُكَرَّر اللافِتات وذِكْر النعم والتشريفات لهم إلى حدٍّ يُقَدِّره الله، تبارك وتعالى، ويحكم به على اسْتِجَابة المُتَلَقِّين وقدرها ليشتدَّ في لومهم ووعيدهم بعد ذلك.

ولاشكَّ في أنَّ التكذيب حين أُتْبِعَ بالإيذاء ثم بالاسْتِبَاحة المطلقة للرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، وأصحابه من المُتَنَفِّذين في مكّة وأهل الحلِّ والعقد فيها، وصل الحدَّ النهائي لإمهال الله تبارك وتعالى قريشًا خاصَّة، وقد وصل الأمر بهم إلى حدِّ التخطيط لقتل الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، بل تجاوز الأمر حدَّ التخطيط إلى محاولة التنفيذ[1] فرفع الله، تبارك وتعالى حصانة مكّة في سورة البلد وألغى تعظيمها الذي كان بنفي القسم بها ما دام أهلها مُسْتَمِرِّين في حربهم واسْتِبَاحتهم للرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، وأصحابه، ونزع عنها صفة الأمن التي وُصِفَت بها في سورة التين، ولو كان في سورة البلد غير إلغاء التعظيم والتشريف لأبقى للبلد صفة الأمين كما كانت. ولكنَّه نزعها، تبارك وتعالى، وذكر البلد مجرَّدًا فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

نعم لقد جرَّد الله مكّة من هذه الصفة لأنَّ محمَّدًا، صلَّى الله عليه وسلَّم، وأصحابه المؤمنين السابقين أكرم عند الله من مكّة كلِّها، واسْتِبَاحة حرمتهم أدعى لإلغاء التعظيم وإلغاء الأمان عن أهلها ورفع الحصانة كلّها عن بلدهم.

فالبلد لم يعد أمينًا لهم بعد الآن إلا أنْ يوقفوا اسْتِبَاحتهم. وقد يَحلّ عليهم غضب الله وعذابه وهم فيها، ردًّا على ما يفعلون بالنَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، والذين آمنوا معه. ومكّة ليست بأعظم حُرمة من حرمة رسول الله، ولذلك جاء في الحديث الشريف عن ((عبد الله بن عمرو قال: رأيت رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك. ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمَّد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند

---

(١) ينظر السيرة النبوية لابن كثير (٢ / ٢٢٩)، سبل الهدى والرشاد (٣/٢٣٢-٢٣٣).

الله حرمةً منك، ماله ودمه وأنْ نَظنّ به إلا خيرًا))[1]. وفي حديث آخر: ((قَتْلُ المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا))[2]. قال المدرِّسي: ((وشرف مكَّة واضح ولكن مكَّة ليست بأشرف من رسول الله، بل شرف كلِّ أرض بمن يسكنها من عباد الله الصالحين، ولذلك جاء في الحديث (المؤمن أعظم حُرْمة من الكعبة)... فالهدف إذًا هو الإنسان الذي سُخِّرت له الأرض وما فيها، وأيُّ إنسان أشرف من محمَّد بن عبد الله، صلَّى الله عليه وسلَّم))[3].

ويمكننا أنْ نقرن بين هذه المعاني والوقائع التاريخية في السيرة النبويَّة، فقد نزل الأمين جبريل (عليه السلام) ومعه ملك الجبال ليُخَيِّر النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، في أنْ ينزل العذاب بالمكذِّبين في مكَّة والطائف ومن حولهما حين قال له: (لو شِئْتَ لأطبقت عليهم الأخشبين)[4]. ولو كانت حُرْمة مكَّة وأمانها مُسْتَمِرَّين، لما وضع جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال خيار العذاب أمام الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، ليُقِرَّه أو يلغيه بأمرٍ من الله، تبارك وتعالى، وإذنه.

ولن يتَّضح هذا الغرض (رفع التعظيم والتشريف)، وهذا المعنى في إلغاء الحصانة إلا عندما نكمل الآيات الكريمة كلَّها لنجدها شارحةً دالةً حاسمةً في تثبيت نفي القسم نفيًا تامًّا، وفي إجلاء غرضه ودلالته.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[5] إنَّه قسم[6] بلا شك وقسمٌ غاضبٌ شديدٌ من الله، تبارك وتعالى، يزداد على ما في نفي القسم من غضبٍ وقرارٍ في رفع التعظيم عن مكَّة.

ويلحظ في الآية الكريمة أنَّ كلمتي (والد) و(ولد) اللتين أَقْسَم الله، جلَّ جلاله، بهما جاءتا نكرتين لإفادة العموم، هذا فضلا عمَّا في معنى الآية ووصلها بما قبلها من فائدة التنكير المتمثِّل بالإبهام الذي يوحي بتقليل الشأن والقيمة، والذي يدلُّ على هذا المعنى ويؤكده أنَّ القسم الوارد في القرآن الكريم من الله جلَّ جلاله بالمخلوقات كان معرفةً في المواضع التي ورد فيها، كقوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[7]، ﴿وَالطُّورِ *وَكِتَابٍ

(١) سنن ابن ماجه (١٢٩٧/٢)، ينظر مجمع الزوائد (٢٩٢/٣)

(٢) سنن النسائي (٨٢/٧)، ينظر السنن الكبرى (٢٢/٨)، فتح الباري (١٢ / ١٦٦)

(٣) من هدي القرآن (١١٧/١٨-١١٨)

(٤) ذكرت الرواية في بداية هذا الغرض فلا حاجة للإعادة هنا .

(٥) البلد: ٣

(٦) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٤/٥)، من هدي القرآن (١١٨/١٨)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (٢٠/ ١٩٢)

(٧) سورة ص: ١-٢

مَسْطُورٍ﴾[1]، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[2]، ﴿وَالْفَجْرِ *وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[3]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[4]، وقد وقد أحصيت مواضع القسم الصريح وأوردتها في الفصل الأوَّل من الرسالة لمن أراد الرجوع إليها.

أمَّا في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ فقد كان الموضع الوحيد الذي ورد القسم فيه غير معرَّف، وهذا يتوافق مع الغضب في بداية السورة التي نفى رب العـزَّة فيها القسم بالبلد.

ووضع (ما) التي تستعمل لغير العاقل مكان (من) التي هي للعاقل في قوله (وما ولد) يدلُّ على أمرين، أحدهما: الإغراق في التنكير، الذي دلَّ عليه ذكر (والد، وولد) غير معرَّفين. والآخر: إلغاء الوجوه الكثيرة التي ذهب إليها المفسِّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ من أنَّ الوالد آدم، وما ولد ذرِّيَّته، أو الوالد محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وما ولد أُمَّته، أو الوالد إبراهيم وما ولد جميع ولده ...إلى آخر الأقوال، لأنَّ ((تخصيص والد، بمحمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، أو نوح، أو إبراهيم يُبعده، إنْ لم ينفه، العموم المُسْتفاد من التنكير ... ووضع (ما) في مكان (من) التي هي للعاقل في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ لفت إلى أنَّ المقصود هنا ليس أشخاصًا بذواتهم، وإنَّما الحديث عن تتابع الحياة وأجيالها على نمطٍ واحدٍ، وعن توارثها ولدًا عن والدٍ وخلفًا عن سلف))[5].

إنَّ القسم الغاضب ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أتى كغضبٍ فوق غضب. وسأتناول الغضب بوصفه غرضًا من أغراض نفي القسم في موضعه، إنْ شاء الله، واكتفي هنا بالقول: في هذه الآيات غضب من الله شديد، والسامع العارف يستقبل طرقات الغضب الشديدة هذه ويتدبَّر ويهتزُّ ويرتجف تهيبًا من الرحمن الجليل.

وقبل الانْتِقال إلى آية جواب القسم، أريد أنْ أُنَبِّه على أنَّ قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هو قسمٌ مُنْفصل عن نفي القسم السابق له، وأنَّ الواو واو القسم والمُقْسَم به هو كلُّ والدٍ وكلُّ ولد[6]، وهذا ترجيح له ما يسوِّغه، إذ اقترن نفي القسم بسببه ومُسَوِّغه وهو حال حال النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، في مكَّة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فتمَّ معناه واكْتَمل عمله.

---

(١) الطور: ١-٢

(٢) النجم: ١

(٣) الفجر: ١-٢

(٤) الليل: ١

(٥) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ١٦٦ – ١٦٧)

(٦) ينظر المحرر الوجيز (٥/٤٨٤)، من هدي القرآن (١٨/١١٨)، الأمثل في كتاب الله المنزل (٢٠/١٩٢)

ثم أتى بعده السياق بقسم جديد بواو القسم، بعيدة عن مؤدى العطف ومعناه، كقولك (لا أَكْتُبُ وأَقْرَأُ ما تُرِيْدُون) فيؤدِّي معنى نفي الكتابة والقراءة معًا، أمَّا إذا قلت (لا أَكْتُبُ لجرحٍ في يَدِي وأَقْرَأُ ما تُرِيْدُون) فقد ذكرت سبب نفي الكتابة ثم عطفت القراءة بعدها فلم تتأثَّر بالنفي وفُهِمَت على الإثبات والموافقة.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1] هذه الآية جواب القسم واللام واقعة فيه. وكلمة (كَبَد) في الآيه الكريمة لم ترد في القرآن الكريم، صيغة ولا مادة، غير هذه المرَّة، وأصل الكَبَد في اللغة من وجع الكَبِد. قال الجوهري: ((الكَبَدُ الشدَّة... وكَابَدْتُ الأمْرَ: إذا قَاسَيْتَ شِدَّتَهُ، والكُبَادُ: وَجَعُ الكَبِد.))[2]، وقال ابن منظور: ((الكَبَدُ: الشدَّة والمَشَقَّة، وفي التنزيل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾...قال أبو منصور: ومُكَابَدَةُ الأَمْرِ مُعَانَاة ومَشَقَّة، وكَابَدْت الأَمْر إذا قَاسَيْت شِدَّتَه، وفي حديث بلال: أَذَّنْت في لَيْلَةٍ بَارِدَة فلم يأت أحد، فقال رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم: أَكْبَدَهُم البَرْد[3]، أَيْ شَقَّ عليهم وضَيَّق، من الكَبَد بالفتح وهي الشدَّة والضِّيْق، أو أَصَاب أَكْبَادَهُم، وذلك أَشَدُّ ما يَكُون من البَرْد، لأنَّ الكَبِد مَعْدِن الحَرَارة والدَّم ولا يَخْلُص إليها إلا أَشَدّ البَرْد))[4].

وعلى هذا، فالفرق بين (الكَبَد) و(الكَدْح) في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[5] يتمثَّل في أنَّ (الكَبَد) شَقَاءٌ مع تعب، أمَّا (الكَدْح) فتعبٌ بلا شقاء، بل قد يكون مع التعب شعورٌ بالسعادة، ولا سيَّما عندما يكون التعب من كدح في خير وإلى صلاح.

وكأنَّ الكلام: أُقْسِم بكلِّ الخلق من الناس من كان والدًا أو ما يتباهى به الوالد من كلِّ ولد، إنَّ الإنسان الكافر المجرم لفي مكابدةٍ وشقاءٍ ومعاناةٍ ومكابرةٍ وعنادٍ، لأنَّه تعب ولكنْ في محادَّة الله وحرب رسوله، صلَّى الله عليه وسلَّم، وأتباعه.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾[6] إنَّه إنسانٌ صاحب قوَّة ونفوذ وقرار يُمَارس الظلم الظلم والقهر ويُسلِّط الأذى مُسْتَضْعِفًا النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، وأصحابه ومستبيحًا حرماتهم ودماءهم، وقد أنسته قوَّته وقدرته قدرة الله عليه. والاسْتِفْهام في الآية، إنكاري وفيه وعيد.

---

(١) البلد: ٤

(٢) الصحاح، كبد، (٢/٥٣٠)

(٣) ورد هذا الحديث برواية أخرى في المعجم الكبير (١/٣٥١)

(٤) لسان العرب، كبد، (٣/٣٧٦)، ينظر مجمع البحرين (٤/٧)، تاج العروس (٢/٤٨١)

(٥) الانشقاق: ٦

(٦) البلد: ٥

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾[1] لقد قال (أهلكت) ولم يقل أنفقت، لأَنَّ (أهلكت) مع (لبدا) تدلان على إنفاق الكثير الذي تلبَّد بعضه فوق بعض. إنَّه يُعْلِن مُتَفَاخرًا مُتَكَبِّرًا على الملأ إنَّه أنفق أكداسًا من المال في حرب محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم،[2] وأصحابه. ويقول (أهلكت) كلمة اسْتِهْتار وتكبر في جوٍّ مُبَاهاة وغرور، وكأنَّها حرب إعلاميَّة أو إعلام حرب يُرافق الإيذاء ليقهر النفوس ويبخعها.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾[3] ((أتى هنا بلم، الدالَّة على المضي في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾))[4]. هل يظنُّ أنَّ الله لم يره ولم يعلم بما صنع وأنفق من قبل أنْ يصخب يصخب ويُعْلِن في دعايته الموتورة.

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ *وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[5] بدأ الله، جلَّ جلاله، ((بوسائط الإدراك الحسي، ووسائل الإبانة، فالعين أداة البصر، واللسان والشفتان أدوات النطق والإبانة والتعبير. وليس الاسْتِفهام هنا على وجه تعديد النعم والامْتِنان على الإنسان بما جعل الله له من عينين ولسان وشفتين، وإنَّما هو الحضُّ والزجر، يلفت بهما، سبحانه، هذا المغترّ، إلى ما أتيح للإنسان من أدوات الإدراك والبيان، جعل له عينين يُبْصر بهما الخير والشر، وجعل له لسانًا وشفتين، وسائل إبانة وتعبير، فلا يسكت على مُنْكر ثم أتبع هذا بما هداه تعالى إليه من إدراك مميَّز لمعالم الطريقين))[6]، وهما طريق الخير والشر، وهذا قول جمهور المفسِّرين على حدٍّ قول أبي حيَّان[7].

ولكنَّ هذا الصنف من الناس الذي هيَّأ الله له كلَّ هذه الوسائل ضلَّ واغْتَرَّ واسْتَخدم ما خلق الله له من (عينين ولسانٍ وشفتين) وسائل وأدوات دعاية لأبشع غاية ضدَّ النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، والمؤمنين معه فهيهات أنْ يقتحم العقبة.

---

(١) البلد: ٦

(٢) ينظر تفسير الطبري (٣٠ / ١٩٨)، تفسير الواحدي (٤/٤٨٩)، تفسير البغوي (٤ /٤٨٩)، تفسير الرازي (٣١/١٨٢)، تفسير القرطبي (٢٠/٦٤)، تفسير البيضاوي (٥/٤٩٢ – ٤٩٣)، فتح القدير (٥/٤٤٣)، روح المعاني (٣٠/١٣٦)

(٣) البلد: ٧

(٤) التبيان في أقسام القرآن (٢٥)

(٥) البلد: ٨ – ١٠

(٦) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/١٧١–١٧٢)

(٧) ينظر البحر المحيط (٨ / ٤٧٦)

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾[1] وهي ما يحول بين أيّ إنسان والفوز الحقيقي في نهاية عمل الدنيا، وهو نيل الاستقرار النهائيّ في الآخرة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾[2] إنَّها عظيمةٌ وعظيمٌ تجاوزها وعظيمٌ ما وراءها، ولكنْ رغم ذلك، فهذا التجاوز والعبور ليس عند الله أكثر من إعتاق، ولو رقبة واحدة. ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[3] ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾[4] أو إطعام ولو مرَّة في يوم مجاعة وفاقة.

هذا هو بيان العقبة ((وهو كذلك بيانٌ لأوضاعٍ ظالمةٍ نشأت عن غرور القادرين وطغيان أصحاب المال في (هذا البلد) فليس ما كان المجتمع المكّي يعانيه من مآسي الرقِّ، ومن التصدُّع الطبقيّ، ومن البغي والاستبداد إلى حدِّ انْتِهاك حرمة الرسول في البلد الحرام، ليس هذا كلّه إلا أثرًا لطغيان هذا الإنسان الذي غرَّته قوَّته فاستَعبد مخلوقين مثله، وملك رقابهم بأغلال الاسْتِرقاق المُهين، كما زيَّن له جاه الثراء أنْ يُبَاهي بأنَّه أهلك مالا لبدا، وعلى مَقْرُبةٍ منه يتيمٌ محتاجٌ ومسكينٌ لاصقٌ بالتراب.

أوضاعٌ مريضةٌ استَقَرَّت على مرِّ الأجيال، وتوارثها (هذا البلد) ولدًا عن والد، وطبقة في إثر طبقة، وكان الإنسان جديرًا بأنْ يُقَاوِم طغيان المال وغرور القوَّة، وأنْ يَحْتَمِل أعباء البذل والإيثار من أجل خير الجماعة على ما في ذلك من مشقَّة وعناء))[5].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[6] ومن يفعل ذلك، ليتجاوز العقبة، لابدَّ أنْ يكون أصلا من جمع المؤمنين المتواصين بالصبر والمرحمة.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[7] الذين في طريق اليمين يجتازون مُفْترق الطرق ويعبرون حاجز المفترق وهو (العقبة) باتِّجاه الجنَّة آملين مُسْتَبْشِرِيْن.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ*عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤصَدَةٌ﴾[8] إنَّهم أصحاب الشمال والشُؤم والنحس الذين كذَّبوا وحاربوا وبقوا وراء العقبة عند مُفْترق الطرق باتِّجاه الشمال،

---

(١) البلد : ١١

(٢) البلد : ١٢

(٣) البلد : ١٣

(٤) البلد : ١٤

(٥) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ١٧٦)

(٦) البلد : ١٧

(٧) البلد : ١٨

(٨) البلد : ١٩-٢٠

باتِّجاه النار سجن موصد دائم لهم (حكمًا عدلا مؤبدًا). وهذا جزاء صنف مـــن حـــارب الله بحرب رسوله وأتباع رسوله، وأنفق المال لُبَدًا في حربه تلك، لقد بذل كلَّ الجهد وتكبَّد كـــلَّ المعاناة من أجل ذلك، ثم تباهى بأعلى صوته وتفاخر وهو ينظر فصول إجرامـــه ويُتَابعهـــا مُسْتَهْزِئًا مُتَكَبِّرا، فاسْتَحقَّ هذا الجزاء العادل من الله الحكم العدل.

الغرض الثاني
عَدَمُ الحَظِّ مِنْ مَقَامِ المُقْسِمِ

من أغراض عدم قسم الله جلَّ جلاله بعبارة (لا أُقْسِمُ)، بعد أنْ أَقْسَمَ سبحانه للمُخَاطَبِيْن لفتًا وحضًّا وتوكيدًا في واحدٍ وثلاثين موضعًا بأقسامٍ صريحةٍ، أنْ لا يحطَّ من قدر المُقْسِمِ تبارك وتعالى في أذهان السامعين، مكذِّبين كانوا أو مصدِّقين.

ويرتبط هذا الغرض بتوضيح أثر الإكثار من الحلف وترديده في أمورٍ كثيرةٍ بُغْيَة تصديق السامع لها، وما يتعلَّق بهذا الإكثار من مهانة وذلَّة.

نحن نعلم أنَّ العرب ينبذون من يُكْثِرُ من الحلف ويستهينون به وينظرون إلى هذا الأسلوب على أنَّه أسلوبٌ مُبْتَذَلٌ مُهِيْنٌ يقوم به أو يلجأ إليه من ليس له مصداقيَّة عند الناس ممَّا يضطَّره إلى كثرة الحلف والإقسام لجذب الانْتِبَاه إليه وتصديقه غير عابئٍ بما يجلبه هذا الأسلوب من حطٍّ لقدره في عيون الناس. وفي الوقت نفسه نجد ((العرب تتمادح بقلَّة الأَيْمَان حتَّى قال قائلهم[1]:

قَلِيْلُ الأَلايَا حَافِظٌ لِيَمِيْنِهِ وإِنْ نَدَرَتْ مِنْهُ الأَلِيَّةُ بَرَّتِ))[2]

وجاء الإسلام ليُؤَكِّد هذا الأمر ويُشِير إلى جوانب الذلَّة في الإكثار من الحلف بطرائق متعدِّدة، منها:

ذمُّ الإكثار من الحلف والنهي عن جعل الله تعالى عُرْضَة للأيمان يُبتذل فيها اسْمُه، جلَّ جلاله، وجاء النهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾[3]. قال الجصَّاص في معنى هذه الآية الكريمة: ((أنْ يكون قوله: ﴿عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ يريد به كثرة الحَلِف، وهو ضربٌ من الجرأة على الله تعالى وابْتِذال لاسْمِه في كلِّ حقٍّ وباطل، لأنْ تبرُّوا في الحلف وتتَّقوا المآثم فيها، وروي عن عائشة: (من أَكْثَرَ ذِكْر شيء فقد جعله عرضة) يقول القائل قد جعلتني عرضةً للَّوم))[4].

فالإكثارمن الحَلِف يُذْهِب الهيبة، وقد ورد في الحديث الشريف: (((لا تُكْثِروا من الحَلِف بالله وإنْ كنتم بررة) وفائدة ذلك إثبات الهيبة في القلوب.))[5] ولهذا أمر الله المؤمنين بحفظ أيمانهم فقال جلَّ شأنه: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[6].

---

(١) ورد هذا البيت في تفسير القرطبي (٩٧/٣)، فتح القدير (٢٣٠/١)

(٢) تفسير القرطبي (٩٧/٣)، وينظر فتح القدير (٢٣٠/١)

(٣) البقرة: ٢٢٤

(٤) أحكام القرآن (٤٢/٢)، وينظر تفسير القرطبي (٩٧/٣)، تفسير البيضاوي (٥١١/١)، تفسير أبي السعود (١ / ٢٢٣)، فتح القدير (٢٣٠/١)

(٥) فتح الباري (٥ / ٤٨٤)

(٦) المائدة : ٨٩

في هذه الآيات الكريمة وغيرها توجيهٌ واضحٌ للإقلال من القسم وجعله مَهِيبًا محفوظًا مقصورًا على جلائل الأمور بعيدًا عن الإكثار من (اللَّغْو)[1] الذي يُهِيْن المُقْسِمَ ويضيع أثـر القسم﴿لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾[2] فلا أثر ولا أهميَّة لهذه الأيمان التي وردت في لغو الكلام وكثرته ولن يحاسب الله المؤمنين عليها.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[3]وهذا موضع ذمٍّ وتحقير للمنافقين الذين (اتَّخذوا) أي جعلوا من الحَلِف والقسم نهجًا دائمًا ووسيلةً معهودةً لحماية أنفسهم و((الجُنَّة الترس وما أشبهه ممَّا يستر))[4] فجعلوا أيمانهم ((وقايـةً وسترةً دون دمائهم وأموالهم))[5] فيُكْثِرون من الحَلِف والقسم ليدفعوا عن أنفسـهم الـتهم والعقاب، وفي ذلك ضعفٌ واضحٌ ومهانةٌ، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وفي نهاية الآية لفتةٌ دالَّة، فالمنافقون اتَّخذوا أيمانهم طريقةً دفاعيَّةً مُهِيْنـةً، فقبلـوا بالمهانة لينجوا من العقاب في الدنيا فأتاهم عذاب الآخرة، وأبقى الله لهم المهانـة ﴿فَلَهُـمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

ومن المهانة أنْ يحلف المرء ويُكْثِر ليَسْلَم من أذى أو ليحظى برضا، كما في قولـه تعالى في وصف المنافقين: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُـمْ إِذَا انقَلَبْـتُمْ إِلَـيْهِمْ لِتُعْرِضُـوا عَـنْهُمْ﴾ و﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾[6] وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأبرز دليل على أنَّ المُكْثِر من الحلف مهان، ما ورد في الآية الكريمة ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾[7] فالآية ذمٌّ صريحٌ للإكثار من الحلف، ووصفٌ بيِّنٌ لفاعلـه (بـالمَهِيْن) أيْ الضعيف[8]، وقد وجَّه بعض المفسِّرين قوله تعالى: (مَهِيْن) إلى معنى الكذَّاب[9]، فعلَّل هـذا التوجيه الطبري بقوله: ((غير أنَّ بعضهم وجَّه معنى (المَهِيْن) إلى الكذَّاب، وأحسـبه فعـل لأنَّه رأى أنَّه إذا وُصِفَ بالمَهَانة فإنَّما وُصِف بها لمهانة نفسه عليه، كذلك صـفة الكـذوب

---

(١) ((اللغو الساقط الذي لا يعتد به من كلام.)) تفسير البيضاوي (٥٢١/١)، و ينظـر تفسـير الثعـالبي (١٧٣/١)، تفسير أبي السعود (٢٢٤/١)

(٢) البقرة : ٢٢٥

(٣) المجادلة : ١٦

(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن (٤١١)

(٥) تفسير أبي السعود (٨/ ٢٢٢)

(٦) التوبة : ٩٥-٩٦

(٧) القلم : ١٠

(٨) ينظر تفسير الصنعاني (٣٠٧/٣)، تفسير الواحدي (١١٢٠/٢)، الدر المنثور (٢٤٠/٨)

(٩) ينظر تفسير القرطبي (٢٢٣/١٨)، تفسير ابن كثير (٤٠١/٤)

إنَّما يكذب لمهانة نفسه عليه))[١]. وقالوا في معنى (مَهِيْن) ضعيف الرأي والعقل[٢]، وقالوا: وقالوا: (مهين) حقير من المهانة، وهي قلَّة الرأي والتمييز، فالحلاف حقير الرأي[٣]

وقد قرن الله تعالى (الحلاف) بصفة المهين ((لأنَّ الحلاف هو كثير الحلف... وإنَّما يُكْثر الرجل ذلك في خبره إذا احْتَاج أن يُصدَّق ويُوثَق بخبره، ومن كان كثير الحلف كان كثير الكذب في العهد محتاجًا إلى الناس فهو من أذلِّ الناس (حلاف مَهِيْن) حلاف في أقواله مَهِيْن في أفعاله))[٤] وتعالى الله، جلَّ جلاله، عن كلِّ ذلك علوًا كبيرًا.

جاء في فتح الباري ((قول إبراهيم في آخر حديث ابْن مسعود، كانوا يضربوننا على الشهادة. أي قول الرجل أشهد بالله ما كان إلا كذا على معنى الحلف فكُره ذلك كما كره الإكثار من الحلف))[٥]. وهذا يعني أنَّ الإكثار من الحلف والإلحاح في القسم أسلوب خطابٍ مهين، تعالى الله عنه، وقد بيَّن، جلَّ جلاله، إعراضه عن القسم بصيغة نفي القسم (لا أقسم).

ويتجلَّى هذا الغرض في أغلب مواضع نفي القسم في سور (الواقعة والحاقَّة والتكوير والانشقاق)

وممَّا له علاقة بهذا الغرض، أنْ لا يكون في الخطاب قسمٌ يحطّ من قُدرة المُقْسِم أو صفاته، وتنفرد الآيات الكريمة في سورة المعارج بتجلية ذلك وتأكيده. قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[٦] لقد لقد

أَقْسَمَ الله، سبحانه وتعالى، في كتابه العزيز على أمورٍ كثيرةٍ، كالقسم على توحيد ربوبيته[٧]، والقسم على صدق النبوَّة وحقيقة الرسالة[٨]، والقسم على أنَّ القرآن حقٌّ[٩]،

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/٢٩)

(٢) ينظر تفسير الثعالبي (٣٢٦/٤)

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٢٣/١٨)، تفسير النسفي (٢٦٨/٤)، تفسير البيضاوي (٣٠٧/٣)، تفسير أبي السعود (٢٠/٩)، روح المعاني (٢٧/٢٩)

(٤) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير(٦٦/١٦)

(٥) فتح الباري (١٩١/٥)

(٦) المعارج : ٤٠-٤١

(٧) ينظر الآيات: ١-٥ سورة الصافات .

(٨) ينظر الآيات: ١-٣ سوره يس

(٩) ينظر الآية: ٢٣ سورة الذاريات .

وغير ذلك من الأمور[1]. لكنَّنا لا نجد من بين ما أَقْسَمَ الله تعالى عليه أنَّه أَقْسَمَ على عموم قدرته وكمالها، فالقسم الصريح على القدرة الإلهية غير موجودٍ في القرآن الكريم، ولكنَّنا نجد كثيرًا من الآيات التي فيها دلائل على القدرة الإلهية وإشارات إليها، ودعانا الله إلى التفكُّر في مخلوقاته، جلَّ جلاله، ومنها خلق السموات والأرض، فنحن نشاهد بأعيننا ونلمس بحواسِّنا ما هو أكبر من خلق الناس عند الله وهو خلق السموات والأرض، قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]

هذا فضلا عن أنَّنا لا نجد في القرآن الكريم قسمًا على صفةٍ من صفات الله، جلَّ جلاله، كعلمه، جلَّ شأنه، وحكمته، وجبروته...إلى آخره، لأنَّ صفاته، تبارك وتعالى، أكبر وأعظم من أنْ تُؤَكَّد وتُثْبَت بالقسم. والقسم على إثباتها حطٌّ منها لا يليق بمقام المُقْسَمِ جلَّ شأنه، ولاسيَّما أنَّ الحقَّ، عزَّ وجلَّ، قد أقسم في كتابه العزيز، وظلَّ الضالُّون المُكَذِّبون مُنْكِرين لما أَقْسَمَ الله به، ولذا كانت الآية الكريمة ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ نفيًا من الله تبارك وتعالى وامْتِناعًا عن أنْ يُقْسِمِ للإنسان على قدرته العظيمة. فهذه القدرة عظيمةٌ جليَّةٌ لا حدود لها، دائمةٌ لا انْقِطَاع فيها ولا حاجة للقسم من أجل إثباتها.

وقد تجلَّى ذلك في قوله: (رَبُّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ) وكأنَّ الكلام: (أنا ربُّ كلِّ مكان مشرق وجِدوا فيه أو أشرقت عليه شمس، وربُّ كلِّ مكان مغرب وجِدوا فيه أو غربت عليه شمس، وربُّ كلِّ وقت شروق، وربُّ كلِّ وقت غروب) إنَّه ربُّ كلِّ مكانٍ وكلِّ زمانٍ. فنحن نعلم أنَّ هناك في كلِّ لحظةٍ شروقًا وغروبًا على سطح هذه الكرة الأرضيَّة التي يستعمرها الإنسان وفي (المَشَارِق والمَغَارِب) أيضًا إشارة إلى الشمس مصدر الضياء، والسماء جهة الضياء، وفسحته، وربُّ هذه المشارق والمغارب الواضحة المتوالية على الناس، المستمرَّة في حياتهم وأينما ذهبوا لن يُقْسِم ليُثْبِت لهم قدرته في ما هو أسهل وأيسر وهو (أنْ يُبَدِّل الله أَمْثَالَهُم) ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[4]

---

(١) ينظر أساليب القسم في اللغة العربية (٤٤٣ – ٤٦٤)

(٢) غافر : ٥٧

(٣) الأحقاف : ٣٣

(٤) النازعات : ٢٧

وعندما يشير، جلَّ جلاله، إلى مقامه الجليل بصيغة الجمع ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ففي ذلك تفخيم لا يليق، أقل منه، بذات الله وصفاته تبارك وتعالى، وهو ما يناسب جوّ الآيات ودلالاتها بعد نفي القسم على أمر أكبر من أن يُقْسَم به من جليل لا حدود لقدرته ولا سبق لفعله العظيم. وعلى ذلك نقيس في سائر صفات الله تبارك وتعالى أن لا حاجة لقسمٍ لافتٍ أو مُؤَكِّدٍ من الله تبارك وتعالى لإثباتها، فذلك حطٌّ منها، إذ هي صفات متناهية لا حدود لعظمتها ولا انقطاع فيها.

إنَّ نفي القسم في هذه الآيات الكريمة يتضمَّن معظم أغراض نفي القسم وتتشابك هذه الأغراض في هذه الآيات الكريمة تشابكًا معجزًا، ومن أوضح هذه الأغراض في هذه الآيات بعد هذا الغرض الذي تكلَّمنا عليه هنا، غرض (الإعراض عن المكذبين وإهمال شأنهم) في التوقُّف عن القسم لهم بعد تكذيبهم وكفرهم، وسأستشهد بهذه الآيات نفسها، وما قبلها وما بعدها في سورة المعارج، لإيضاح الغرض في موضعه، وبما له صلة ودلالة.

الغرض الثالث
عَدَمُ الحَطِّ مِنْ شَأْنِ مَا نُفِيَ القَسَمُ مِنْ أَجْلِه

هذا الغرض ذو صلةٍ وثيقةٍ بالغرض الثاني، وأغلب أغراض نفـي القسـم متشـابكة، ويُفضي بعضها إلى بعض، والغرض، بدقَّة هنا، أنْ لا يُقْسِم الله، تبارك وتعالى، ليلفت إلى أنَّ الأمر الذي نفي القسم لأجله حقٌّ ويُثبت أنَّه من الله، تبارك وتعالى، لأنَّ هذا الأمر أجلُّ وأكرم وأعظم من أنْ يُكَرَّر القسم عليه كثيرًا ليُصدِّق السامع ويقتنع فيقبل البضاعة، والبضاعة هنا هي القرآن الكريم، وأيّ شيءٍ أعظم من القرآن، وأي سلعةٍ أعزُّ وأكرم من الذكر الحكيم لتُشْترى وتُقْتنى.

لذا كان القسم الصريح في القرآن الكريم على (أنَّ القرآن حقٌّ) قليلا، وقد ورد في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾(1)، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ*إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ*وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾(2)، وقوله: ﴿حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(3)، وقوله: ﴿حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾(4)

وإذا تأمَّلنا آيات نفي القسم التي يتجلَّى فيها الغرض الذي نتكلَّم عليه وهي ثلاث: قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(5)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ*وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ*تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(6)، وقول تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ*وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ*وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ*مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(7) نلحظ أنَّ الأمر المباشر الذي نُفي القسم لأجله في هذه الآيات هو علوّ منزلة القرآن ومكانته الكريمة ورفعة شأنه. أمَّا آيات القسم الصريح، فقد كانت على أنَّ القرآن حقٌّ من الله تعالى، وأنَّه قولٌ فصلٌ، وأنَّه للتذكرة المبينة، وهذه الأمور كلّها ليست مباشرة لتأكيد مكانة القرآن الكريم، ورفعة شأنه، فلم ترد صفة الكريم للقرآن إلا في سورة الواقعة، ولم يرد أنَّ القرآن قول رسول كريم إلا في

---

(١) الذاريات : ٢٣

(٢) الطارق : ١١-١٤

(٣) الزخرف : ١-٣

(٤) الدخان : ١ - ٣

(٥) الواقعة : ٧٥-٨٠

(٦) الحاقة : ٣٨-٤٣

(٧) التكوير : ١٥ - ٢١

سورتي الحاقَّة والتكوير. وقد كانت الآية الكريمة ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على جهة الوصف لرفع الشأن في سورتي الواقعة والحاقَّة.

ولتدرك الأذهان علوَّ شأن القرآن الكريم، وعظم قيمته، ونفاسة سلعته، لابدَّ أنْ نُنْعِش الذاكرة ببعض ما ورد عن هذا الأمر، في سائر القرآن من غير اقْتِرانٍ بقسمٍ أو بنفي قسم. قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]، وقال: ﴿الرَّحْمَانُ*عَلَّمَ الْقُرْآنَ*خَلَقَ الْإِنسَانَ*عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[2] ،ففي قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ تظهر ((النعمة الكبرى التي تتجلَّى فيها رحمة الرحمان بالإنسان، القرآن، الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود ومنهج السماء للأرض... ومن ثَمَّ قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان، فَبِهِ يتحقَّق في هذا الكائن معنى الإنسان))[3].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[4] اللَّهِ﴾[4] ((أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبَّر ما فيه لخشع وتصدَّع من خوف الله، عزَّ وجلَّ، فكيف يليق بكم يا أيُّها البشر أنْ لا تلين قلوبكم وتخشع))[5]. وفي الآية لمحات الوزن الهائل لهذه البضاعة القيِّمة النفيسة ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[6]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[7] ((الضمير للقرآن فخَّمه بإضماره من غير ذكر. شهادة له بالنباهة المغنية عن التصريح كما عظَّمه بأنْ أسند نزوله إليه وعظَّم الوقت الذي أُنزل فيه بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ*لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[8]))[9]. فقد كانت ليلة نزوله لحظات سعادة الوجود بأسره، استأذنت الملائكة كلُّها

---

(١) هود : ١

(٢) الرحمن : ١ – ٤

(٣) في ظلال القرآن (٢٧ / ١١١)

(٤) الحشر : ٢١

(٥) تفسير ابن كثير (٣٤٤/٤)

(٦) البينة : ٣

(٧) القدر : ١

(٨) القدر : ٢-٣

(٩) تفسير البيضاوي (٥١٣/٥)

لتشارك وتحضر هذا الحدث الفريد في تلك الليلة العظيمة المباركة[١] التي ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٢]

وقد وردت آياتٌ في القرآن الكريم تُشِير إلى عِظَم المنَّة والكرم الكبيرين من الله، جلَّ جلاله، بإنزال القرآن، منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣] وقوله جلَّ شأنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾[٤]

فالله، جلَّ جلاله، يقول في الآيتين الكريمتين: (تبارك الذي نزَّل الفرقان ـ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) ((حامدًا لنفسه الكريمة على ما نزَّله على رسوله الكريم من القرآن العظيم))[٥].

غير أنَّ الآيات في سورة عبس لا تُشِير إلى عظم النعمة والمنَّة فحسب، بل تتَّجه بمعانيها وإيقاعها وتَسَلْسُلها في اتِّجاه آيات نفي القسم في المواضع الثلاثة المُشَار إليها[٦] حتَّى إنَّنا لنجد كثيرًا من أغراض نفي القسم وليس (غرضًا واحدًا) مُتَجَلِّيَةً في آيات سورة عبس، بل أكثر من ذلك، إنَّنا نلمس شرحًا وإيضاحًا في هذه الآيات لآيات نفي القسم وتدليلا على أكثر من غرضٍ فيها.

وإذا تتبَّعنا ترتيب نزول السُوَرِ في القرآن الكريم نجد أنَّ سورة عبس نزلت قبل[٧] نزول أيَّةِ سورةٍ من القرآن فيها قسم أو نفي قسم (على القرآن الكريم) وتَضُمُّ هذه السورة آيات تُبَيِّن قيمة القرآن الكريم ومكانته. قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ*فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ*فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ*بِأَيْدِي سَفَرَةٍ*كِرَامٍ بَرَرَةٍ*قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[٨] فقد بيَّن الله تعالى في هذه الآيات ((حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتها واستغناءها عن كلِّ أحدٍ وعن كلِّ سندٍ، وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها كائنًا ما كان وصفه ووزنه في موازين الدنيا))[٩].

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٢٠٩/٣٠)

(٢) الدخان: ٤

(٣) الفرقان: ١

(٤) الكهف: ١

(٥) تفسير ابن كثير (٣ / ٣٠٩)

(٦) ينظر الواقعة: ٧٥-٨٠، الحاقة: ٣٨- ٤٣، التكوير: ١٥-٢١

(٧) ينظر البرهان في علوم القرآن (١٩٣/١-١٩٤)

(٨) عبس: ١١ – ١٧

(٩) في ظلال القرآن (٣٠ / ٤٣)

والنَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، يُكَرِّر عرض الدعوة على المشركين بأمرٍ من ربِّه ويتخيَّر الموعظة والحكمة التي هي أحسن، فيُصِرُّ المشركون على إعراضهم فيوقف الله، تبارك وتعالى، تكرار العرض والإلحاح لقبول البضاعة وشرائها ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[1] ولكنَّ النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، يستمرُّ في انْدِفاعه مخلصًا مُذَكِّرًا بالرسالة مُكرِّرًا عرض الدعوة على المشركين فترتفع نبرة العتاب الإلهي ((من الله العليِّ الأعلى لنبيِّه الكريم، صاحب الخلق العظيم في أسلوبٍ عنيفٍ شديدٍ، وللمرَّة الوحيدة في القرآن كلِّه يُقَال للرسول الحبيب القريب: (كلا) وهي كلمة ردعٍ وزجرٍ في الخطاب، ذلك أنَّه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين))[2] فلا يمكن أنْ تُهَانَ البضاعة أو تُبْذل فيكفي أنْ تُعْرض بوضوحٍ وأنْ تصل خواصُّها لبصيرة المتلقِّي لأنَّ ((هذه التذكرة، وهي آيات الله، هي في صحفٍ مكرَّمةٍ عند الله، وهي صحفٌ مطهَّرةٌ في مقامٍ عالٍ لا يرقى إليها فيه دنسٌ... قوله تعالى: (مرفوعة) أي عالية (القدر)، (مطهَّرة) من كلِّ نقصٍ أو عيبٍ. وقوله تعالى: (بأيدي سفرة) أي أنَّها محمولةٌ في اللوح المحفوظ إلى رُسُل الله بأيدي ملائكةٍ يسفرون بها بين الله سبحانه وتعالى وبين رسله، فهم سفراء الله إلى الرسل. و(البررة) جمع بار وهو التقيُّ النقيُّ المُبَرَّأ من الدنس والرجس))[3].

وهذا الوصف العظيم لعظمة القرآن تلا (كلا)، وفي (كلا) نفي وزجر. نفيٌ واضحٌ لا لبس ولا ادِّعاء فيه، لفظ نفيٍ وجوُّ نفيٍ وإيقاع نفي ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾... إلى آخر الآيات، لذا، هناك نفيٌ ثُمَّ ذِكْرٌ لكرامة البضاعة المفرَّط فيها وطهارتها ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ*بِأَيْدِي سَفَرَةٍ*كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[4]، ثُمَّ تقريعٌ وتوبيخٌ للإنسان على تكبُّره وتفريطه في سلعة الله وكفره بها ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ*مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[5]، ثُمَّ وعيدٌ وتذكيرٌ بالعذاب ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ... فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ*يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ...﴾[6]، ثُمَّ وصفٌ للنهاية باتِّجاهين السعادة أو الشقاء ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ

---

(١) الأعلى : ٩
(٢) في ظلال القرآن (٣٠ / ٤٢)
(٣) التفسير القرآني للقرآن (٨ / ١٤٥٢)
(٤) عبس : ١٣-١٦
(٥) عبس : ١٧-١٩
(٦) عبس : ٢٣ ، ٣٣-٣٧

مُسْفِرَةٌ﴾[1]، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾[2]. إنَّه تسلسلٌ مُدهشٌ: نفيٌ وزجرٌ وشيءٌ من غضبٍ، ثُمَّ تفخيمٌ للبضاعة، ثُمَّ تقريعٌ وتوبيخٌ، فوعيدٌ وتذكيرٌ، فوصفٌ حاسمٌ للنهاية.

وعلى هذا، فالقرآن الكريم سلعةٌ عزيزةٌ كريمةٌ غاليةٌ لا تُقدَّر بثمن، ولا يمكن أنْ تُهان بكثرة عرضها، أو تُبْذل وضيعةً بالإلحاح ليقتنع بها من تُعْرض أمامه فيشتريها. وجودة هذه السلعة وارتفاع شأنها وعظم قيمتها أمورٌ بيِّنةٌ واضحةٌ لم يتطلَّب الوصول إليها جهدًا كبيرًا أو تمعُّنًا شديدًا من المتلقِّين، لأنَّهم أصحاب صنعة وحرفة يُتْقِنون البلاغة والفصاحة والشعر، ولذلك لا حاجة للتأكيد بقسمٍ أو بغيره أمام أهل اخْتِصاص، إنَّ هذه البضاعة فريدة ثمينة يعجز عن الإتيان بها بشر وقد تحدَّاهم القرآن في أنْ يأتوا بمثل هذه السلعة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3]، وممَّا يدلِّل على وضوح عظمة آيات الله في القرآن الكريم وإعجازها في عقول المشركين، قول أبي عبد شمس للمشركين الذين أرادوا أنْ يُجْمِعُوا القول في محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، ليبثُّوه في وفود الأعراب التي ستقدم مكَّة: ((والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ أصله لعذقٌ، وإنَّ فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِفَ أنَّه باطلٌ))[4]، وقول الوليد بن المغيره بعد أنْ سَمِع القرآن: ((والله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منِّي ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجنِّ منِّي، والله ما يُشْبِه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنَّه لمُثْمِر أعلاه، مُغْدِق أسفله، وإنَّه ليعلو ولا يُعْلى، وإنَّه ليَحْطم ما تحته))[5].

وسأعرض فيما يأتي آيات نفي القسم التي تجلَّى فيها الغرض بكلِّ وضوحٍ، ففي سورة الواقعة يقول، جلَّ جلاله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6] إذا رجعنا إلى الآيات التي تسبق آيه نفي القسم، نلحظ أنَّها تأكيد قدرة الله البارئ المُطْلقة، فهو الذي خلق الإنسان وكلَّ ما في الكون. ثُمَّ تأتي الأسئلة التي يقف الإنسان أمامها مُسْتَحْضِرًا أصله المَهِيْن وعجزه المُبين في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ*أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ... أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ*أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ*نَحْنُ جَعَلْنَاهَا

---

(١) عبس : ٣٨

(٢) عبس : ٤٠

(٣) الإسراء : ٨٨

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١٧٤/١ – ١٧٥)، وينظر السيرة النبوية لابن كثير (٤٩٩/١–٥٠٠)

(٥) السيرة النبوية لابن كثير (٤٩٨/١ –٤٩٩)، وينظر سبل الهدى والرشاد (٣٥٤/٢)

(٦) الآية : ٧٥– ٨٠

تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ*فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1] وفي الآيات تذكير للإنسان ببداية تكوينه من ماءٍ مَهِيْن وإنَّ نهاية الإنسان لإلى الله، تبارك وتعالى. ثُمَّ تُنَبِّه الآيات الكريمة على الأمور التي نعدُّها في حياتنا أشياء طبيعيَّة قد لا تُثِير انْتِباهنا كالزرع والماء والنار، فيدعونا، جلَّ ذكره، إلى التفكُّر والتدبُّر بمُوْجِدِها، وأنَّ الإنسان عاجزٌ تُجاهها لا دور له إلا في اسْتِثْمَارها وتسخيرها.

ثُمَّ يأتي نفي القسم بمواقع النجوم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ويحتمل موضع نفي القسم هنا عدَّة أغراض من أغراض استعمال الصيغه إلا أنَّني سأجلِّي هنا غرض نفي القسم في عدم الحطِّ من شأن ما نُفِيَ القسم من أجله.

فعدم قسم الله، جلَّ شأنه، ولو بمواقع النجوم، والقسم بها (لو أَقْسَمَ وكانوا يعلمون، قَسَمٌ عظيمٌ)، لأنَّ الأمر الوارد ذكره في الآيات الكريمة لا يحتاج إلى قسمٍ لإثبات علوِّ شأنه وعظم مكانته وإيضاحه على نحو ما ذكرنا آنفًا، والأمر هو ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنَّه القرآن الكريم المصون في كتاب مكنون ((أي محفوظٌ عند الله سبحانه، وإنَّه لمقامه العظيم لا يدنو منه ولا يطوف بحماه إلا المطهَّرون من عباد الله... وفي وصف القرآن بالكرم إشارةٌ إلى ما ينال الذين يمدُّون أيديهم إليه من عطايا ومِنَن))[2]. ولا يرتقي إلى مستواه فيمسُّه إلا من ارْتَقى إلى مستوى الملائكة المطهَّرين، ويكفي القرآن رفعة أنَّه مُنَزَّل من ربِّ العالمين، الذي وردت في الآيات قبل نفي القسم، الأدلَّة والبراهين على وجوده وضعف الإنسان أمام قدرته العظيمة.

وبعد هذه الآيات يأتي التقريع والتوبيخ، لأنَّهم زهدوا في السلعة الغالية الكريمة، وفرَّطوا فيها بكلِّ سهولة ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾[3] وجعلوا ثمن تفريطهم وتكذيبهم عرض رزق زائل ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[4]. ويأتي الوعيد والتذكير والتلويح بالموت والنهاية ثم العذاب ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ*وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ*وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[5] ثم وصف مستقرِّ النهاية باتِّجاهين، وفي أحدهما رتبتان: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ*فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ*وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ*فَسَلَامٌ لَكَ

---

(١) الآية : ٥٨-٧٤

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٧ / ٧٣٦)

(٣) الآية : ٨١

(٤) الآية : ٨٢

(٥) الآية : ٨٣-٨٥

مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[1] ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ*فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ*وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[2]

إنَّه سياقٌ قرآنيٌّ عجيبٌ مُعْجِزٌ في المعاني والإيقاع، يُشْبِه ما كان في سورة (عبس)، ويتَّجه في نفي القسم بالتسلسل نفسه إلى الغرض نفسه: نفيٌ وزجرٌ وغضبٌ، ثمَّ تفخيمٌ للبضاعة، ثمَّ تقريعٌ وتوبيخٌ، فوعيدٌ وتذكيرٌ، فوصفٌ حاسمٌ للنهاية.

وفي موضع نفي القسم في سورة الحاقَّة اخْتِلافٌ يَسِيْرٌ في التسلسل بوجود التقديم والتأخير، فنجد النفي والغضب في نفي القسم، وتفخيم البضاعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[3] وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، ثم تقريع وتوبيخ للمكذِّبين في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ*وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[5]، تَذَكَّرُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾[6]، فوعيد وتذكير ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[7]، أمَّا الوصف الحاسم للنهاية، فقد أتى قبل نفي القسم، ولعلَّ سبب ذلك أنَّ وصف النهاية في هذه السورة أتى مُسْهَبًا مفصلا بل مصورًا مهيبًا[8].

وفي موقع نفي القسم في سورة التكوير نجد أيضًا النفي في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[9]، وتفخيم البضاعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ*مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[10]، وأسلوب التفخيم والتعظيم هنا أتى بتعظيم من حمل السلعة فأنزل الوحي على النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو الروح جبريل[11]، كبير الملائكة، المطاع المكين عند ذي العرش، والتقريع والتوبيخ للمكذِّبين أتى في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ*وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ*وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ*وَمَا هُوَ

---

(١) الآية : ٨٨-٩١

(٢) الآية : ٩٢-٩٤

(٣) الآية : ٤٠

(٤) الآية : ٤٣

(٥) الآية : ٤١-٤٢

(٦) الآية : ٤٩

(٧) الآية : ٥٠

(٨) ينظر الآيات : ١٩-٣٧

(٩) الآية : ١٥ -١٦

(١٠) الآيات : ١٩-٢١

(١١) ينظر تفسير الطبري (٧٩/٣٠)

بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[1]، ثم وعيد وتذكير ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[2]، وأتى وصف النهاية في بداية بداية السورة وبشكلٍ مغايرٍ مميَّزٍ، إذْ وصف البداية المَرُوعة للنهاية الحتميَّة، وذكر مشاهدها المتتالية المخيفة في يوم الفزع الأكبر[3]

(١) الآيات : ٢٢-٢٥

(٢) الآية : ٢٦

(٣)ينظر الآيات : ١-١٤

الغرض الرابع
الإِعْرَاضُ عَنِ المُكَذِّبِيْنَ وَإِهْمَالُ شَأْنِهِمْ

الإعراض عن المكذّبين والمُنْكرين بعد التبليغ الكامل، نهجٌ ربانيٌّ قرآنيّ، ولا أدلّ من نفي القسم على هذا النهج للإعراض عن هؤلاء وصنفهم (الصنف الذي بُلِّغ وذُكِّر فكَذَّب وتَولَّى) وقد ورد في القرآن الكريم أمر الإعراض عنه، وتَرْك شأن أصحابه وإهمالهم بصُوَرٍ متنوعةٍ في المصطلحات والمعاني، وجاءت صيغة نفي القسم (لا أُقْسِمُ) ضمن سياقها في الآيات من أبلغ الصيغ وأجملها، جمال إجمالٍ، وجمال بلاغةٍ، وتجلّى ذلك في مواضع نفي القسم في سورة (الواقعة والحاقَّة والمعارج والقيامة والتكوير والانشقاق) ومؤدَّى هذه الصيغة في هذا الغرض أنَّ الله تبارك وتعالى لا يُقْسِمُ ولن يُقْسِمَ بعد أنْ أَقْسَمَ لمن كذَّب وأصرَّ في تكذيبه وعناده، فلا نفع من تكرار القسم للفت انْتِباهه، ولا طائل من أسلوب الإلحاح والتوكيد أمام مكذِّبٍ مُدْبرٍ. فما فائدة أنْ تُؤَكِّد الخبر والحقيقة أمام مكذِّبٍ أصمٍّ، كذَّب ثم أعطى ظهره. فكيف يسمع الخطاب أو يلمح الإشارة لو تابعت معه الخطاب واجْتَهدت في تأكيده ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[1]

ومن الصيغ والمعاني الأخرى التي أوردها القرآن في غير صيغة نفي القسم التي تُؤَكِّد هذا المعنى وتُجَلِّيه نهجًا دعويًا، لا تستمرُّ فيه التذكرة، ولا تُكَرَّر مع من أَنْكَر، كثيرٌ من الآيات الكريمة التي أمر الله تعالى فيها نبيَّه، صلَّى الله عليه وسلَّم، بأنْ يُعْرِض عن الجاهلين والمشركين[2] بعد تكذيبهم وصدودهم، نحو قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ*قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ*فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ﴾[4] ((والفتح هو الفصل فيما بين الفريقين من خلاف، وتحقيق الوعيد الذي كان يخدعهم أنَّه لا يجيئهم من قريب... ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ وفي طيَّاته تهديدٌ خَفِيٌّ بعاقبة الانْتِظار بعد أنْ ينفض الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، يده من أمرهم ويدعهم لمصيرهم.))[5]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ

---

(١) النمل : ٨٠

(٢) ينظر تفسير الطبري (٩ /١٥٦)

(٣) الحجر : ٩٤

(٤) السجدة : ٢٨-٣٠

(٥) في ظلال القرآن (٢١ / ١١١)

الدُّنْيَا*ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ﴾[1] ((يقول جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، فدع من أدبر يا محمَّد عن ذكر الله ولم يؤمن به فيوحِّده، وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول ولم يطلب ما عند الله في الدار الآخرة ولكنَّه طلب زينة الحياة الدنيا والْتمَس البقاء فيها.))[2]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ﴾ ((يقول ذلك نهاية علمهم أنْ آثروا الدنيا على الآخرة))[3].

أمَّا في سورة الأعراف فقد وردت الإشارة إلى ترك الغافلين على عماهم في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4] ((إنَّهم لا يؤمنون، لأنَّهم غافلون عن النظر، ومن يغفل عن النظر في آيات الله يُضِلّه الله، و﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما في تركهم في عماهم من ظلم، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم، وهم الذين عطَّلوا قلوبهم وجوارحهم، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق... فإذا عَمِهَ عن هذا كلِّه تُرك في عماه، وإذا طغى بعد هذا كلِّه تُرِك في طغيانه ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾))[5].

وقال تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6]، ((والعَمَهُ هو العَمَى وما يتبعه من تخبُّط وضلال، والذين لا يرجون لقاء الله بعد كلِّ ما في الكون من آيات وبعد الوحي والقرآن، وبعد التحذير والإنذار، لاجرم يُتْرَكون في طغيانهم يعمهون، ويلقون في النهاية ذلك المصير))[7].

ومن الآيات التي تُؤَكِّد هذا الغرض وتُجَلِّيه قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى*فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى*وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى*وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى*فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى*كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[8] يعاتب الله، جلَّ جلاله، في هذه الآيات الكريمة نبيَّه الكريم محمَّدا، صلَّى الله عليه

---

(١) النجم : ٢٩-٣٠

(٢) تفسير الطبري (٦٣/٢٧)، وينظر تفسير الواحدي (١٠٤١/٢)، فتح القدير (١١١/٥)، روح المعاني (٢٧/ ٦٠)

(٣) تفسير الواحدي (١٠٤١/٢)

(٤) الآية: ١٨٦

(٥) في ظلال القرآن (٦٤/٩-٦٥)

(٦) يونس : ١١ ، وينظر الأنعام : ١١٠

(٧) في ظلال القرآن (٦١/١١)

(٨) عبس : ٥- ١١

وسلَّم، لتصدِّيه لمن أدبر عنه، وشغله عمَّن جاءه مقبلا طائعًا مختارًا، أي ((أمَّا من اسْتَغنى عنك وزهد فيما في يديك من علم وهدى، ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي تتعرَّض له، وتمسك بـه، وتشدّه إليك، وإنَّك لتعلم أنَّه ما عليك إلا البلاغ، وأنَّه ليس من همِّك أنْ تحمل الناس حملا على الإيمان، فإنَّه لا عليك من لوم، إذا لم يؤمن... هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخـرى، فإنَّك وقفت موقفًا مُخَالفًا لموقفك الأوَّل، فبينما أنت تُقْبِل على من أعرض عنك وزهد فيما معك إذا أنت تُعْرِض عمَّن أقبل عليك ورغب فيما بين يديك من نور الله))[1].

ومن أغراض صيغة نفي القسم (لا أُقْسِمُ) الإعراض عن المشركين وإهمال شأنهم كما ذكرت، وفي سورة المعارج اجْتَمَعت صيغة نفي القسم مع التصريح بالأمر بترك المكـذِّبين الضالِّين في خوضهم ولعبهم حتَّى يُلاقوا يومهم الموعود، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ*فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[2]

ويتأكَّد هذا الغرض إذا عدنا إلى الآيات الكريمة التي تسبق قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ لنجد فيها وصفًا لتدنِّي مستوى المشركين المكـذِّبين، وانْحِطاط حالهم. ففي قوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ*عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾[3] تعجب من حال المشركين، وهم مادُّون أعناقهم ينطلقون جماعات في كلِّ اتِّجاه كما تنطلق الماشية في المرعى، فمعنى (((مُهْطِعِيْن) مُسْرِعين نحوك مادِّي أعناقهم إليك مُقْبِلين بأبصارهم عليك (عِزِيْن) فرقًا شتَّى جمع عِزَة.))[4] ((وفـي التعبيـر تهكُّمٌ خفـيٌّ بحركتهم المريبة وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التي تتمُّ بها وتعجُّبٌ منهم وتساؤل عن هذا الحال منهم ! وهم لا يسرعون الخطا اتِّجاه الرسول ليسمعوا ويهتدوا، ولكنْ فقط ليَسْتَطْلِعُوا في دهشةٍ ويتفرَّقوا كي يتحلَّقوا حلقات يتناجون في الكيد والردِّ على ما يسمعون))[5].

فمنهم منكرون ضالُّون، ولذلك يستنكر الله تعالى عليهم بعـد إنكـارهم وكفـرهم أنْ يطمعوا بدخول الجنَّة في قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾[6] ويجيء ويجيء الردُّ القاسي من الله، جلَّ جلاله، بالردع والزجر لغرورهم وطمعهم، ثُمَّ تحقير لهـم

(١) التفسير القرآني للقرآن (٨/١٤٥٠)

(٢) المعارج : ٤٠-٤٢

(٣) المعارج : ٣٦-٣٧

(٤) الكشاف (٤/ ١٦٠)

(٥) في ظلال القرآن (١١٢/٢٩ – ١١٣)

(٦) المعارج : ٣٨

بتذكيرهم مِمَّ خُلِقُوا ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾[1] أي ((وهم يعلمون مِمَّ خُلِقُوا من ذلك الماء المَهِيْن الذي يعرفون، والتعبير القرآني المُبْدِع يلمسهم هذه اللمسة الخفيفة العميقة في الوقت ذاته، فيمسح بها كبرياءهم مسحًا وينكّس بها خيلاءهم تنكسًا دون لفظةٍ واحدةٍ نابية أو تعبيرٍ واحدٍ جارح. بينما هذه الأشياء العابرة تصوِّر الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير))[2].

فهل يستحقُّ هؤلاء بعد هذا الزجر والتحقير أنْ يُقْسِم الله لهم لإثبات قدرته في الوقت الذي يصف كَذِبهم وصدَّهم وإنكارهم ؟ لقد كان الجواب نفيًا زاجرًا غاضبًا بصيغة نفي القسم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ولو كان المعنى، كما قيل في عددٍ من التفاسير[3]، قسمًا فإنَّنا سنفهم من القسم إعطاء قيمة للمُقْسَمِ لهم والاهْتِمام بأمرهم، لأنَّ القسم يُعْطِي اعْتِبَارًا للمُقْسَمِ لهم، ولكن الآيات السابقة لا تدلُّ على ذلك، وسياقها على عكس هذا الأمر كما أوضحت.

وممَّا يُؤَكِّد عدم الاهْتِمام بأمر الكفَّار، لأنَّهم أصرُّوا على الإنكار والاسْتِكْبار، قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[4] والآية الكريمة توجيهٌ توجيهٌ من الله تعالى، بتركهم في لهوهم ولعبهم وإنكارهم حتَّى يلاقوا جزاءهم. فإنْ كان في الآية معنى القسم لما أعطى الله، عزَّ وجلَّ، الأمر بتركهم فيما هم مُنْغَمِسُون فيه، فهم قد وصلوا إلى حدٍّ من الكفر والإنكار والصدِّ والإعراض لا ينفع معه إلا أنْ يُهْمَلوا بعد أنْ يُبَلَّغوا بالوعيد بحساب يوم القيامة فيلاقوا جزاءهم الذي يستحقُّون. ويصف حالهم، جلَّ جلاله، في يوم الحساب وهم ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[5]

أمَّا في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ*أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ*وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[6] فإنَّ الله، جلَّ جلاله، لن يُقْسِمَ بمواقع النجوم وإنْ وإنْ كان القسم بها عظيمًا، لأنَّ المشركين قد كذَّبوا وكفروا وكثُر صدّهم وغيّهم وإنكارهم، فأَعْرَض الله عنهم بنفي القسم في وجوههم (أمامهم).

---

(١) المعارج : ٣٩

(٢) في ظلال القرآن (١١٣/٢٩)

(٣) ينظر تفسير البغوي (٣٩٦/٤)، تفسير القرطبي (٢٩٥/١٨)، تفسير أبي السعود (٣٥/٩)

(٤) المعارج : ٤٢

(٥) المعارج : ٤٤

(٦) الواقعة : ٧٥ – ٨٢

وتُؤَكِّد الآيات التالية لنفي القسم في سورة الواقعة هذا الغرض فيها، قال تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ (((أَفَبِهَذَا الحَدِيْثِ) يعني القرآن (أَنْتُمْ مُدْهِنُوْن) أي متهاونون به كمن يُدْهِن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلَّب فيه تهاونًا به))[1]. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ((فإذا التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدَّخرونه لآخرتكم؟ وما أسوأه من رزق))[2]. وقيل المعنى في الآية على حذف المضاف ((يعني وتجعلون شُكْرَ رزقِكُم التكذيب، أي وضعتم التكذيب موضع الشكر))[3].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[4] نفي القسم من الله، جلَّ جلَّ جلاله، إعراضًا عن المكذِّبين، وإهمالا لشأنهم وتصغيرًا لهم فهم قد أنكروا وكذَّبوا بمحمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وبما أُنزل عليه (القرآن الكريم) وقالوا عنه إنَّه قول شاعر، ومرَّة قالوا إنَّه قول كاهن، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ*وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ*تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5]، والله، سبحانه وتعالى، يؤكِّد كون القرآن تَذْكِرَةً لِلْمُتَّقِين[6] ((أمَّا الذين لا يتَّقون فقلوبهم مطموسة غافلة لا تتفتَّح ولا تتذكَّر، ولا تفيد من هذا الكتاب شيئًا.))[7] فهم مكذِّبون، والله يعلم بهم ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾[8] ((ولكنَّ هذا لا يُؤَثِّر في حقيقة هذا الأمر، ولا يُغيِّر من هذه الحقيقة، فأمركم أهون من أنْ يؤثِّر في حقائق الأمور))[9].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[10] نفيٌ للقسم من الله، جلَّ جلاله، بيوم القيامة، لاسْتِمرار المشركين الضالِّين بالتكذيب بالبعث والحساب، دلَّ على ذلك الآيات الكريمة بعد نفي القسم: فقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[11] يُشِير إلى المكذِّبين بالبعث ((والإنسان هنا الكافر المكذِّب بالبعث... وقوله (أيحسب) اسْتِفهام تقرير

---

(1) الكشاف (٤/٥٩)

(2) في ظلال القرآن (٢٧ / ١٤٥)

(3) الكشاف (٤ / ٥٩)

(4) الحاقة : ٣٨-٣٩

(5) الحاقة : ٤٠ – ٤٣

(6) ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الحاقة: ٤٨

(7) في ظلال القرآن (٢٩ / ٩٤)

(8) الحاقة : ٤٩

(9) في ظلال القرآن (٢٩ / ٩٤)

(10) القيامة : ١

(11) القيامة : ٣

وتوبيخ حيث يُنكر قدرة الله تعالى على إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة))[1].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ*يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[2] ((أي يسأل سؤال مستنعت مستبعد لقيام الساعة، في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾... ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ومعناه أنَّ الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسْتِرسال في الشهوات والاسْتِكثار من اللذات لا يكاد يقرُّ بالحشر والنشر وبعث الأموات لئلا تنتقض عليه اللذَّات الجسمانيَّة، فيكون أبدًا منكرًا لذلك قائلا على سبيل الهزء والسخرية أيَّان يوم القيامة))[3]. فهو مكذِّب مكابر.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[4] نفي للقسم من الله، جلَّ جلاله، جلاله، لأجل إثبات أنَّ القرآن قول رسول كريم ونفي قولهم عن الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، إنَّه مجنون وإنَّ شيطانًا يتنزَّل عليه بما يقول. والآيات الكريمة بعد نفي القسم تفضح تكذيب المشركين وتعدُّد طرق إنكارهم وصدِّهم عن الحقِّ والتولِّي عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ*وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ*وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ*وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ*فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[5] ((لقد قالوا عن النَّبي الكريم الذي يعرفونه حقَّ المعرفة ويعرفون رجاحة عقله وصدقه وأمانته وتثبته قالوا عنه إنَّه مجنون وإنَّ شيطانًا يتنزَّل عليه بما يقول. قال بعضهم هذا، كيدًا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار. وقاله بعضهم عجبًا ودهشةً من هذا القول الذي لا يقوله البشر فيما يألفون ويعهدون))[6]. ثم يسألهم، جلَّ جلاله، مستنكرًا ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ((أين تذهبون في حكمكم وقولكم؟ أو أين تذهبون منصرمين عن الحقِّ وهو يواجهكم أينما ذهبتم))[7].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾[8] يُظْهِر لنا بجلاء أنَّ نفي القسم من الله، جلَّ جلاله، للمشركين لإصرارهم على كفرهم وتمسُّكهم بإنكار الحقِّ وتكذيبه، فبعد أنْ أعطى، جلَّ جلاله، الكثير من الأدلَّة والبراهين التي تُثْبت وجوده وقدرته وكماله وكلَّ صفاته، جلَّ جلاله، بما يُؤَكِّد لكلِّ صاحب عقل أنَّه، عزَّ وجلَّ، هو الإله الوحيد الذي يجب أنْ يُعْبد في الأرض.

---

(١) البحر المحيط (٣٨٤/٨ –٣٨٥)

(٢) القيامة : ٥–٦

(٣) تفسير الرازي (٢١٨/٣٠–٢١٩)

(٤) التكوير : ١٥

(٥) التكوير : ٢٢–٢٦

(٦) في ظلال القرآن (٣٠ / ٦٨)

(٧) في ظلال القرآن (٦٨/٣٠)

(٨) الانشقاق : ١٦

نجد الكافرين يصرُّون على كذبهم وتعنُّتهم، فيقول سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾[1]

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تعجُّبٌ من شدَّة إصرارهم وتكذيبهم للحقِّ وانْغِمَاسهم في الباطل والكفر والشرك، ولكنَّ الله جلَّ جلاله أدرى بحالهم وبما يُفَكِّرون وما تنطوي عليه أنفسهم فقال، جلَّ جلاله: ﴿بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ*وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾[2] ((بل الذين كفروا يُكَذِّبون إطلاقًا، فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل، والله أعلم بما يُكِنُّون في صدورهم، ويضمُّون عليه جوانحهم، من شرٍّ وسوءٍ ودوافع لهذا التكذيب))[3]. ولذلك يُبَشِّرهم الله تعالى بما ينتظرهم من مآلٍ قاسٍ أليم، فقال، جلَّ جلاله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4]، وفي ذلك حسم وجزم بمصيرهم البائس وهم في الدنيا، بعد تركٍ وإعراضٍ عنهم وعن التكرار في تذكيرهم ودعوتهم.

---

(١) الانشقاق : ٢٠-٢١

(٢) الانشقاق : ٢٢-٢٣

(٣) في ظلال القرآن (١٠٦/٣٠)

(٤) الانشقاق : ٢٤

الغرض الخامس
الدَّلالَةُ عَلَى شِدَّةِ ظُهُوْرِ المُقْسَمِ بِهِ وعِظَمِ بَيَانِهِ وتَسْفِيْهِ مَنْ غَفَلَ عَنْه

لقد أخرجت هذا الغرض على أساس أنَّ في صيغة نفي القسم تلويحًا بالقسم مع عدولٍ عنه لشدَّة ظهور المُقْسَم به ظهورًا لا يمكن أنْ يخفى أو أنْ تخفى دلالته. أي أنَّ الأمر الذي نُفِيَ القسم به في آيات نفي القسم واضحٌ جليٌّ لا يحتاج إلى قسمٍ للفت الانْتِبَاه إليه، فـ((هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع في الحسِّ من القسم المباشر وهذا الوقع هو المقصود من العبارة وهو يتمُّ أحسن تمامٍ بهذا الأسلوب الخاص))[١]، أسلوب نفي القسم.

وقد وجدت هذا الغرض في خمسة مواضع من مواضع نفي القسم، ولكي نلحظ فيها هذا الغرض لا بدَّ من أنْ نرجِّح معنى ظهور المُقْسَمِ به ووضوحه وعظمة خلقه وجلائه أمام الأعين.

ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾[٢] نفي القسم من الله، جلَّ جلاله، بما يُبْصر الناس ويرونه، وهو كثيرٌ جليٌّ دالٌّ على قدرة الله وعلى وحدانيته ووجوده بما لا يدع مجالا أمام الإنسان العاقل إلا أنْ يؤمن بوجود خالقٍ مدبِّرٍ جليلٍ عظيمٍ وراء كلِّ ما تراه عينه من مشاهد العظمة في هذه الحياة، وقد ذكر الله جلَّ جلاله كثيرًا من الأمور التي نراه، تبارك وتعالى، من خلالها وتدلُّنا على وجوده ودعانا إلى التفكُّر بها والتدبُّر فيها. قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ*خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ*وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٣]... ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ*يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ*وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ*وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ*وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٤].

---

(١) في ظلال القرآن (٢٠٥/٢٩)

(٢) الحاقة : ٣٨

(٣) النحل : ٣-٥

(٤) النحل : ١٠-١٥

فبماذا يُقْسِمِ الله، جلَّ جلاله، من هذا الكثير الواضح المُبْصَر من الإنسان؟ أبالشمس أم بالقمر أم بالنجوم. بالسماء أم بالأرض؟...إلى آخره ممَّا لا يمكن إحصاؤه ممَّا تراه العين المجرَّدة، فضلا عمَّا وصل إليه العلم الحديث فأصبح الإنسان يرى من المخلوقات المجهريَّة التي تُكبَّر آلاف المرات حتَّى يستطيع أنْ يُبْصِرها فكان دليلا أعمق وأكبر على قدرة الله المُعْجِزة.

وأمام هذا الإنجاز العظيم من خَلْق الله المُبْصَر من الإنسان يرى الإنسان ويُبْصِر عجزه أمام قدرة الله وأمام أنْ يخلق شيئًا، وإنْ كان تافهًا حقيرًا في نظر الإنسان وقد خلقه الله، وتحدَّاهم جلَّ شأنه أنْ يخلقوا ذبابة، ويعلم، جلَّ جلاله، عجزهم وضعفهم عمَّا هو دون ذلك وفوقه. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1]

وقد ورد نفي القسم بمواقع النجوم وطلوعها وجريانها وغروبها في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[4] والمقصود بالنجوم الكواكب التي في السماء ((ويرجِّح هذا القول أيضا أنَّ النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[5]، وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾[6]))[7]

ففي سورة الواقعة، إذا نظرنا من وجهة هذا الغرض نجد أنَّ الله، جلَّ شأنه، بعد أنْ ذكَّرنا بمظاهر قدرته، نفى القسم بمواقع النجوم لشدَّة ظهورها، ولاسيَّما في بيئة العرب الأولى، فالسماء باديةٌ في البادية، واضحةٌ في الليل، لا يكاد يعكِّر صفوها معكِّر، والبدويُّ كثير التأمُّل في السماء والنجوم، فالله، جلَّ جلاله، نفى القسم بمواقع النجوم لأنَّها عظيمةٌ في بيانها عن وجود خالق عظيم لهذا الكون مدبِّر أمره واضع قوانينه، ولكنَّ الكافرين المنكرين غافلون عن عظمة هذا الأمر مع شدَّة وضوحه، قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ*وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي

---

(١) الحج : ٧٣

(٢) الواقعة : ٧٥

(٣) المعارج : ٤٠

(٤) التكوير : ١٥

(٥) الطور : ٤٩

(٦) الأعراف : ٥٤، وينظر الرحمن: ٦، الطارق: ٣، النحل: ١٢، النجم: ١، ...وغيرها من المواضع.

(٧) التبيان في أقسام القرآن (١٣٧)

ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2]. ففي هذه الآيات الكريمة دليلٌ على أنَّ النجوم ومواقعها وتحديدها للمواقع أمرٌ في مرأى الإنسان وعلمه، بل سُخِّرت ليُدْركها ويستخدمها فيهتدي بها منذ القدم، ومع أنَّ المعلومات عن الفلك تتطوَّر من عصرٍ إلى عصر، ولكنَّ الله جلَّ شأنه يُخاطب بالقرآن الكريم الناس في كل الأمكنة وعلى مدى الأزمنة، فما رآه الإنسان في العصور القديمة مبسَّطا وفيه عظمة مواقع النجوم، رآه وسيراه أجلى وأدقّ مع مضي الزمان وتطور العلم، وستبقى الآيات نفسها تخاطبه.

ومن وجهة هذا الغرض، يمكننا أنْ نرى في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[3] نفيًا من الله، جلَّ جلاله، للقسم برب (المشارق والمغارب) لشدَّة وضوح المشارق والمغارب، وتكرار هذا الحدث يوميًا على أرجاء المعمورة كلِّها، ففي كلِّ لحظة يوجد مشرق ومغرب في نقطة ما على هذا الكوكب. ألا يدلُّ ذلك على وجود ربٍّ لهذه المشارق والمغارب مع ما يرى فيها من دقَّةٍ في الموعد وثباتٍ في الظهور والغياب؟ ألا يلفت ذلك الأمر الذي يرونه أمامهم يوميًا مشهدًا عظيمًا من مشاهد القدرة الإلهية انْتِبَاههم إلى وجود الله؟

ولكن مع تكرار هذا المشهد العظيم وشدَّة وضوحه ودلالته على وجود ربٍّ خالقٍ عظيمٍ يتكرَّر إنكار المشركين وكفرهم، فالله، جلَّ جلاله، لن يُقْسِم لهم مع إنكارهم المتكرِّر، لأنَّهم يرون بوضوح هذا المشهد اليوميّ المُعْجِز الذي لا يدلّ إلا على وجود إلهٍ مدبِّرٍ خالقٍ. وكأنَّ نفي القسم بربِّ المشارق والمغارب، أي ربّ هذا المشهد الكونيّ العظيم المتكرِّر، لتكرار إنكارهم وصدِّهم عن الإيمان بالله مع شدَّة وضوح بيان هذه الآية المُعْجِزة التي لا تحتاج إلى القسم بها للفت الانْتِبَاه إليها.

ومن وجهة هذا الغرض، يمكننا أنْ نرى في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[4] أنَّ الله، جلَّ جلاله، قد نفى القسم بالخنَّس الجوار الكنس ((والخنَّس هي الكواكب إذا طلع عليها النهار خنست أي غابت واخْتَفَت معالمها عن الأنظار، والجوار الكنَّس هي هذه الكواكب في حال ظهورها بالليل ثم تغيُّبها في الأفق الغربي بفعل حركة الأرض ودورانها اليومي من الغرب إلى الشرق))[5]. وظهور هذه الكواكب في الليل وكنوسها

(١) الأنعام : ٩٦ – ٩٧

(٢) النحل : ١٦

(٣) المعارج : ٤٠

(٤) التكوير : ١٥

(٥) التفسير القرآني للقرآن : (١٤٧٢/٨)

واختفاؤها في النهار أمر جليّ واضح، ظاهر للعيان، متكرِّر مع طلوع الشمس وغيابها وظهور القمر واخْتِفَائه، فالله، جلَّ شأنه، لا يُقْسِم بهذا الأمر لجلائه ووضوحه وكثرته من تكراره يوميًا أمام أنظار الناس أجمعين، فهي آيةٌ واضحةٌ صريحةٌ دالَّةٌ معبِّرةٌ مُعْجِزَةٌ، فما يكون من المشركين إلا التكذيب والإنكار مع عظمة هذه الآية ووضوحها وجلائها جلاءً يكاد ينطق بوجود إلهٍ مدبِّرٍ خالقٍ مالكٍ لكلِّ شيء.

ومن وجهة هذا الغرض أيضًا نلحظ الأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾[1] إذ ينفي الله، عزَّ وجلَّ، القسم بالشفق ((وهو الصفرة المشوبة بحمرة، تعلو وجه النهار عند الغروب وهو إيذانٌ بدخول الليل، ولهذا جاء الليل معطوفًا على الشفق... ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ إشارة إلى ما يحمل الليل من نجومٍ وكواكبٍ كما أنَّه يحمل كلَّ هذه الكائنات التي كانت تتحرَّك بالنهار فيضمُّها إلى جناحه ويحملها على صدره... ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي إذا اكْتَمَل وصار بدرًا... وفي الجمع بين الشفق والليل والقمر مراعاة للمناسبة الزمنيَّة الجامعة بينهما، فالشفق أوَّل الليل في الأفق الغربيّ، والقمر أوَّله في الأفق الشرقيّ، حيث يكون اتّسَاقه وكماله وهو بدر في الليلة الخامسة عشرة، فالمُقْسَمُ به الواقع عليه النفي، هو هذا الظرف الزمنيّ، وهو ليلة انْتِصَاف الشهر القمريِّ، حيث تغرب الشمس ويطلع القمر أو حيث يولِّي سلطان الشمس ويقوم سلطان القمر))[2]، وقد نفي القسم بهذه الآيات لشدَّة وضوحها وعجز المُنْكِرين عن الإتيان بمثل هذه الآيات أو حتَّى تبديل قانونها، على نحو قول إبراهيم، عليه السلام، للذي حاجَّه في ربِّه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

والأمر المستنكر، مع وجود كلِّ هذه الظواهر الكونيَّة الخارقة المُعْجِزة والمشاهدة المتكرِّرة يوميًا، إصرار الإنسان على عناده وكفره وإنكاره. فينفي جلَّ جلاله القسم بهذه الأمور لشدَّة وضوحها وبيانها.

---

(١) الانشقاق :١٦-١٨

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٥٠٧/٨)

(٣) البقرة : ٢٥٨

الغرض السادس
الغَضَب

يرتبط هذا الغرض بأغلب أغراض نفي القسم ارتباطًا اضْطرَّني، عند الكلام في تفصيل أغراض نفي القسم الأخرى فيما سبق، إلى ذكر الغضب مرارًا، وكيف أنَّه يتجلَّى معها وبها وفيها، بل يكاد يكون الغرض الوحيد الذي نلمسه في كلِّ مواضع نفي القسم في القرآن الكريم.

والغضب في القرآن الكريم، مع ألفاظه وأساليب التعبير عنه وعن درجات حدَّته، موضوع بحثٍ مهمٍ، يستأهل أنْ يكون وحده رسالةً، ولكنَّني سأُلْقِي عليه الضوء هنا في أسلوب نفي القسم وصيغته، وسأجلِّي درجته وسأذكر ما له علاقة بالتعبير عنه في القسم وغيره في القرآن الكريم.

ففي كثيرٍ من الغضب الصريح نجد درجات متفاوتة من التعبير عن الغضب، فنلمس في بعض المواضع غضبًا غير شديد في سياق التذكير والإيقاظ، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ*إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ*فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ*خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ*يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ*إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ*يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ*فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾[1]، فهذه الآيات تمثِّل ((طرقات متوالية على الحسِّ. طرقات عنيفة قويَّة عالية، وصيحات نُوَّمٍ غارقين في النوم. تتوالى على حسِّهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاعٍ واحدٍ ونذيرٍ واحدٍ (اصْحُوا، تيقَّظوا، انْظُروا، تلفَّتوا، تفكَّروا، تدبَّروا) إنَّ هنالك إلاهًا، وإنَّ هنالك تدبيرًا، وإنَّ هنالك تقديرًا، وإنَّ هنالك تبعةً، وإنَّ هنالك حسابًا وجزاءً، وإنَّ هنالك عذابًا شديدًا ونعيمًا كبيرًا. وهذه السورة نموذجٌ واضحٌ لهذه الخصائص، ففي إيقاعاتها حدَّة يُشَارك فيها نوع المشاهد، ونوع الإيقاع الموسيقي، وجرس الألفاظ وإيماء المعاني))[2].

أمَّا القسم في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ*إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ*يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ*قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾[3] ففيه درجة غضبٍ أشدُّ وأقوى، ((﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ قولهم في الرسول ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن شعر وسحر وأساطير الأولين... ﴿يُؤْفَكُ

---

(١) الطارق : ١-١٠

(٢) في ظلال القرآن (٣٠ / ١١٧- ١١٨)

(٣) الذاريات : ٧- ١٠

عَنْهُ﴾ الضمير للقرآن أو للرسول أي يصرف عنه من صُرِف، الصرف الذي لا صَرْفَ أشدَّ منه وأعظم))[1]، ويظهر الغضب ودرجته في الدعاء على الكذَّابين ((﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[2] وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثُمَّ جرى مجرى لعن وقبح، والخرَّاصون هم الكذَّابون المُقَدِّرون ما لا يصحُّ وهم أصحاب القول المختلف))[3].

وفي قوله تعالى، في السورة نفسها: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[4]. وقد ذكر الزمخشري في هذه الآية الكريمة رواية ((عن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابيٌّ على قعودٍ له فقال: ممَّن الرجل؟ قلت من بني أصمع، قال من أين أقبلت؟ قلت: من موضعٍ يُتْلَى فيه كلام الرحمن، فقال: اتْلُ عليَّ فتلوت (والذاريات)... فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفتُّ فإذا أنا بالأعرابيِّ قد نحل واصْفَرَّ، فسلَّم عليَّ واسْتَقْرَأ السورة، فلمَّا بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وَعَدَنَا ربُّنا حقًّا، ثم قال: وهل غير هذا فقرأت ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتَّى حلف، لم يصدِّقوه بقوله حتَّى ألجؤوه إلى اليمين، قالها ثلاثًا وخرجت معها نفسه))[5].

هذا في القسم، وفي نفي القسم غضبٌ أشدّ، فإعلان الجليل، تبارك وتعالى، توقُّفه عن القسم بعد أنْ أَقْسَمَ، أمرٌ قد بلغ الذروة بلا شكّ في بيان غضبه، تبارك وتعالى، للمكذِّبين. لقد توقَّف الحوار واللَّفت وسكت خطاب العقول بعد أنْ تمَّ وفاض، ولم يبقَ إلا خطاب الوعيد والتهديد، إنَّه لأمرٌ يُشْبِه توقُّف المفاوضات والمداولات لعدمِ الوصول إلى نتيجةٍ بين دولٍ متعارضةٍ حول قضية الخلاف. فتوقف لغة الحوار لتبدأ لغة الوعيد والحرب، ولله المثل الأعلى. ومثال ذلك في كلامنا، قولك لمن كذَّبك في أمرٍ، وطلب منك الحلف: لن أَحْلِفَ بالله ولن أَحْلِفَ بالقرآن، إنَّ كلامي لحقٌّ وإنَّ تكذيبك لي لأمرٌ مشين، وستلقى جزاء ذلك، وفي ذلك ردٌّ غاضبٌ على المكذِّب.

---

(١) الكشاف : (١٤/٤)

(٢) عبس : ١٧

(٣) الكشاف : (١٥/٤)

(٤) الذاريات : ٢٣

(٥) الكشاف : (١٧/٤)

وأَدِلَّةُ الغَضَبِ في صِيْغَةِ نَفْي القَسَمِ (لا أُقْسِمُ) وآياتها تتجلَّى في أُمُور:

أوَّلا: الإيقاع الغاضب: و((الإيقاع هو النظام الذي تتوالى بموجبه المقاطع المنبورة، بعضها خلف بعض))[1]، وهو في الغضب هنا طَرْقٌ صوتيٌّ سماعيٌّ محسوس لا يخفى على صاحب فطرة وسماع، وفي المثال الذي أوردته عن الأعرابيِّ، حيث استشعر غضب الرحمن بسماعه وإدراكه الفطريين حين طرقت الآيات الكريمة أذنيه، صورة عن تلمُّس الإيقاع الغاضب، وهذا الإيقاع في آيات نفي القسم يتفاوت في شدَّته، إذ يبدأ بإيقاع النفي في كلِّ المواضع، ثُمَّ بإيقاع الذمِّ والتقريع الغاضبين على نحو متسلسل، إلى نبرة الوعيد وجرس الإنذار الأخير.

وأشدُّ إيقاعٍ غاضبٍ وجدته، وسأورده مثلا على إيقاع الغضب في مواضع نفي القسم، إيقاع آيات سورة البلد، فبعد نفي القسم ورَفْع الحصانة عن البلد والإشارة إلى اسْتِبَاحة الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، في البلد، أتى قسمٌ غاضبٌ شديدٌ، والمُقْسَم به يَعِمُّ ويشمل ويخيف (بكلِّ والدٍ وولدٍ) فصار في الإيقاع والطَرْق غضبٌ على غضبٍ، ثم أُتْبِع بجرس التقريع والتوبيخ الشديدين لصنف الإنسان الكافر المحارب، وأقفل بنبرة التهديد والوعيد له.

وقد استخدم السياق القرآنيّ المُعْجِز صوت الدال وأقفل به فواصل آيات السورة الكريمة في موضع نفي القسم وما بعده، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[2]، والدال صوتٌ مجهورٌ شديدٌ منفتحٌ[3]، يُسمع عند النطق به صوتٌ انفجاريّ لانْفِصَال اللسان عن أصول الثنايا[4]، ولا يخفى ما في الشدَّة والجهر والانْفِجَار من أجواء غضبٍ ظاهرٍ، فإذا انْضَمَّ إليه بهذه الصفات (صوت الباء) في لفظة (البلد) زاد الإيقاع تمكُّنًا من أداء الغرض.

أمَّا صوت اللام المتوسِّط بين صوتيِّ الباء والدال في هذه اللفظة الذي لم يفارقهما إلا بصفة التوسُّط بين الشدَّة والرخاوة، فقد أدَّى مهمَّته في هذا الإيقاع بعدم انْطِلاق الصوت به، وعدم انْحِبَاسه بين الصوتين المنطلقين، فكان رابطًا بينهما يضمن اسْتِمرار انطلاقهما شديدين مجهورين مُنْفَتحين، ينحبس الصوت عند النطق بهما، وينحبس جري النفس لتمام

---

(١) الوجيز في فقه اللغة (٢٦٨)

(٢) البلد : ١-٤

(٣) ينظر الكتاب (٤/٤٣٤ – ٤٣٦)، دراسات في فقه اللغة (٢٨١-٢٨٢)

(٤) ينظر علم اللغة (١٥٥)، الأصوات اللغوية (٤٨)

قوَّة الاعتماد على مخرجيهما، وبين هذين الانحباسين يأتي جريان للنَّفَس بصوت اللام المتوسِّط بينهما ليؤدِّي الغرض المطلوب.

ثانيا: **التَّقْرِيْع والتَّوْبِيْخ:** وفيهما بعد نفي القسم دلالة واضحةعلى الغضب، بل تُقَاس شدَّة غضب الله، تبارك وتعالى، في الآيات بشدَّة التوبيخ والتقريع. فبعد نفي القسم في سورة الواقعة ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ...﴾[1] قال تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ*وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[2] ((أفأنتم شاكُّون في هذا الحديث الذي يُقَال لكم من النشأة الآخرة، مكذِّبون بالقرآن وما يقصُّه عليكم من شأن الآخرة وما يقرِّره لكم من أمور العقيدة؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فإذا التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدَّخرونه لآخرتكم؟ وما أسوأه من رزق))[3] لقد ((وبَّخهم، سبحانه، على وضعهم المداهنة في غير موضعها وأنَّهم يداهنون بما حقّه أنْ يُصْدَع به ويفرق به ويعضّ عليه بالنواجذ وتُثْنَى عليه الخناجر وتُعْقَد عليه القلوب ويُحَارب ويُسَالم لأجله... والمداهنة إنَّما تكون في باطلٍ قويٍّ لا يمكن إزالته أو في حقٍّ ضعيفٍ لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنْ يترك بعض الحقِّ ويلتزم بعض الباطل فأمَّا الحقّ الذي قام به كلّ حقٍّ فكيف يُدْهَن به؟))[4].

وقبل نفي القسم في سورة المعارج يأتي الاستِفهام الإنكاريُّ بقوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾[5]، أي ((ألعلَّهم يحسبون أنفسهم شيئًا عظيمًا عند الله، فهم يكفرون ويؤذون الرسول ويسمعون القرآن ويتناجون بالكيد ثم يدخلون الجنَّة))[6].

وبعد نفي القسم في سورة الانْشِقاق بقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾[7] يقول تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾[8] فالآيتان الكريمتان ((إنكارٌعلى مَنْ لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المُسْتَلْزِمة

---

(1) الواقعة : ٧٥

(2) الواقعة : ٨١- ٨٢

(3) في ظلال القرآن (١٤٥/٢٧)

(4) التبيان في أقسام القرآن (١٤٧)

(5) المعارج : ٣٨

(6) في ظلال القرآن (١١٣/٢٩)، وينظر التفسير القرآني للقرآن(١١٩٨/٨)

(7) الانشقاق : ١٦-١٨

(8) الانشقاق : ٢٠-٢١

لمدلولها أتمَّ اسْتِلْزام وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المُشْـتَمِل علـى ذلـك بأفصح عبارة وأبينها وأوجزها))[1].

ثالثا: التَّسْفِيْه والتَّحْقِيْر:

من ذلك، قوله تعالى في سورة المعارج، قبل آية نفي القسم ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَـاهُمْ مِمَّـا يَعْلَمُونَ﴾[2] (((كلا) في ردعٍ وتحقيرٍ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهم يعلمون مِمَّ خُلِقُوا من من ذلك الماء المَهِيْن الذي يعلمون))[3].

ومن ذلك، قوله تعالى بعد نفي القسم في سورة الواقعة ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ*وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ*وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِـنْكُمْ وَلَكِـنْ لَـا تُبْصِـرُونَ*فَلَوْلَـا إِنْ كُنْـتُمْ غَيْـرَ مَدِينِينَ*تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]. أي إذا ((وصلت الروح إلى هذا الموضـع بحيـث فارقت ولم تُفَارق، فهي برزخٌ بين الموت والحياة كما أنَّها إذا فارقت صارت في برزخٍ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الربِّ تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكـنَّهم لا يُبْصِرون بهم، فلولا تردُّونها إلى مكانها في البدن أيُّها الحاضـرون إنْ كـان الأمـر كمـا تزعمون أنَّكم غير مجزيين ولا مدينين ولا مستوعبين ليوم الحساب))[5].

وقد تضمَّنت الآيتان الكريمتان ((تقريرًا وتوبيخًا واستدلالا على أصول الإيمـان مـن وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته ونفوذ مشيئته، وربوبيته وتصرُّفه في أرواح عبـاده، حيث لا يقدرون على التصرُّف فيها بشيء وإنَّ أرواحهم بيده يذهب بها إذا شـاء ويردُّهـا إليهم إذا شاء))[6].

رابعا: التَّهْدِيْد والوَعِيْد: وقَدْ تَجَلَّى وَاضِحًا فِي:

١ـ قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّـذِي يُوعَـدُونَ*يَـوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ*خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِـكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[7] ((وهذا تهديدٌ شديدٌ يتضمَّن ترك هؤلاء الذين قامـت علـيهم حُجَّتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي ولا صدَّقوا رسالاتي في خوضهم بالباطـل، ولعـبهم،

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٧١-٧٢)

(٢) المعارج : ٣٩

(٣) في ظلال القرآن (١١٣/٢٩)

(٤) الواقعة : ٨٣ – ٨٧

(٥) التبيان في أقسام القرآن (١٤٨- ١٤٩)

(٦) التبيان في أقسام القرآن (١٤٩)

(٧) المعارج: ٤٢ – ٤٤

فالخوض في الباطل ضدَّ التكلُّم بالحقِّ، واللعب ضدَّ السعي الذي يعود نفعه على ساعيه))[1] ((وفي هذا الخطاب من تهوين شأنهم ومن التهديد لهم ما يثير الخوف والترقُّب، وفي مشهدهم وهيئتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يُثِير الفزع والتخوُّف))[2].

٢ــ قوله تعالى: ﴿بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ*وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ*فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] ((تهديدٌ لهؤلاء المكذِّبين بآيات الله المنكرين للبعث، فالله سبحانه، أعلم بما يجمعون يجمعون من محصول ضلالهم وكفرهم... ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هكذا يتحوَّل النَّبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، مع هؤلاء المشركين المكذِّبين من منذرٍ إلى مبشِّر، ولكنَّه مبشِّرٌ بالعذاب الأليم لهم... وفي التعبير بالبشرى عن العذاب الأليم بدلا من الإنذار به إشارةٌ إلى أنَّه لا شيء لهؤلاء الضالِّين المكذِّبين يُبَشَّرُون به في هذا اليوم وأنَّهم إذا بُشِّرُوا بشيءٍ فليس إلا النار، العذاب الأليم. وفي هذا تيئيسٌ لهؤلاء الضالِّين من أيِّ خيرٍ))[4].

ومن الوعيد الشديد وبيان المآل والمستقرِّ والعاقبة:

٣ــ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ*فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ*وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ*فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ*وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ*فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ*وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[5].

٤ــ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ*فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا*وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا*وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ*فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا*وَيَصْلَى سَعِيرًا*إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا*إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾[6].

وبعد؛ فالغضب على نحو ما ذكرت آنفًا، غرضٌ يَسِيْرُ مع كلِّ الأغراض، بل تدلُّ عليه معظم الأغراض:

- فرفع التعظيم بعد إسباغه يدلُّ على الغضب.
- وعدم الحطِّ من جلالة المُقْسِمِ ومن شأن ما أَقْسَمَ من أجله يدلُّ على الغضب.
- والإعراض عن المكذِّبين ما كان إلا لغضبٍ عليهم.
- وتسفيه من غفل عن شدَّة ظهور المُقْسَمِ به دليلٌ على الغضب.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٢٥)

(٢) في ظلال القرآن (١١٤/٢٩)

(٣) الانشقاق : (٢٢– ٢٤)

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٥١٠/٨)

(٥) الواقعة : ٨٨ – ٩٤

(٦) الانشقاق : ٧– ١٤

الغرض السابع
ضَرُوْرَة كَوْن المُقْسَم بِهِ ظَاهِرًا أَوْ مُدْرَكًا

وفيه دلالة على أنَّ ما نُفِيَ القسم به مُغَيَّب، أي أنَّ الله تبارك وتعالى لا يُقْسِمُ ليلفت الأنظار والأذهان إلا بشيءٍ واضحٍ ظاهرٍ غير مُسْتَتِرٍ عن المُتَلَقِّي أو بشيءٍ مُدْرَكٍ محسوم أمر وجوده وصفته عند المُخَاطَب.

والله تبارك وتعالى يؤكِّد لنا ذلك بنفي القسم بما لا يُبْصَر أو لا يُلْمَس أو لا يُدْرَك في عددٍ من مواضع نفي القسم، ومن المواضع التي فيها إشارات واضحة إلى ذلك:

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[3].

وهذا الغرض أو هذه الدلالة في صيغة نفي القسم مبنيٌّ على أساس فهم بناء القسم وطريقة تكوينه ليؤدِّي مُهِمَّته وغرضه، أي غرض القسم، وقد أوضحت في الفصل الأوَّل عدَّة أمورٍ وقضايا عن القسم يقتضي السياق هنا التذكير بها أو الاسْتِنْتَاج من مُجْمَلِها.

فمن الضرورات في بناء القسم أنْ يختار المُقْسِمِ مُقْسَمًا به ظاهرًا أو مُدْرَكًا عند المُخَاطَب بالقسم ليُثْبِتَ أو يُؤَكِّد أمرًا مغيَّبًا خَفِيَ عن المُخَاطَب فلَمْ يُدْرِكْه، والأمر المنطقيُّ الذي لا بدَّ منه أنْ يُقْسِمِ المُقْسِمُ بمُقْسَمٍ به جليٍّ شديد الظهور أمام عين المُخَاطَب بالقسم أو حواسِّه، أو أمرٍ مُدْرَكٍ يصدِّقُه المُخَاطَب ويُؤمن به للتدليل على صحَّة ما غاب عن حواسِّ المُخَاطَب أو ما كان يَنْفيه ويُنْكِره عند القَسَم.

وهذه الضرورة منطقيَّةٌ دلاليَّةٌ وبلاغيَّةٌ: إنَّها إسنادٌ للمُتَأرجح على الثابت في ذهن المُخَاطَب فيستند المُقْسِمُ على ما هو ثابتٌ راسخٌ عند المُخَاطَب ليُثْبِت ما كان مُؤَرْجَحًا مُخَلْخَلا في ذهنه وقت القسم، ويُشَابِه ذلك ما يكون في تشبيه المعقول بالمحسوس (((كالمنيَّة والسبع) حيث شبِّهت به، فإنَّ المنيَّة وهي الموت عقليَّةٌ، إذ هي عدم الحياة عمَّن اتَّصف بها... ومشبَّهٌ به محسوسٌ وهو السبع وهذا حسيٌّ.. لأنَّ تشبيه المنيَّة بالسبع من

(١) الواقعة :٧٥-٧٦

(٢) الحاقة: ٣٨- ٣٩

(٣) القيامة: ١

جهة الافْتِرَاس))[1]. والعقليُّ هو ما يُدْرَك بمجرَّد العقل، والحسيُّ هو مــا تُــدْرَك جزئيَّاتــه بإحدى الحواسِّ الخمس[2].

وقد ((كَثُرَ في القرآن الكريم إيضاح الأمور المعنويَّة بالصور المحسوسة المرئيَّة، مــن ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُــمْ بِشَــيْءٍ إِلَّــا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[3] يشبِّه الله عبَّاد الوثن حينما يدعون آلهتهم ولا يَرْجِع هذا الدعاء عليهم بفائدةٍ، بمن يَبْسط كفَّيه للماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه ما دامت كفَّاه مبسوطتين، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾[4] يُصَوِّر القرآن حال الكفَّار الــذين يــدعون أوثانهم فلا تفهم ولا تُجِيْب بحال الناعق الذي يصــوِّت للأغنــام فــلا تفهــم فيــه إلا دويَّ الصوت))[5]

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُــونَ﴾[6] شــاهدٌ ناطقٌ على تقريب المعقول، وهو صدق هذا الحديث، القرآن الكريم، مقارنًا بحقيقةٍ ملموسةٍ واضحةٍ ((كونهم ينطقون، حقيقة بين أيديهم، لا يجادلون فيها ولا يمــارون، ولا يرتــابون فيها، ولا يخرصون، وكذلك هذا الحديث كلُّه، والله أصدق القائلين))[7].

ومن كلِّ هذه الآيات الكريمة وما يُمَاثلها في القرآن الكريم، وهو كثيرٌ، نجد إيضــاح الأمور المعنويَّة بصورٍ محسوسةٍ مرئيَّةٍ وقريبةٍ من حواسِّ المُخَاطَب ومداركه، بل لصيقة به وببيئته. كذلك لو شبَّه القرآن أمرًا بشيءٍ غير محسوسٍ، ولكنَّه بلا شكّ يكــون مــدركًا أو مصدَّقًا في ذهن المُخَاطَب، وعلى هذا، أَقْسَم الله، تبارك وتعالى، بأجلى ما في خلقــه أمــام حواسِّ الإنسان ومداركه، وقد وضَّحت هذا الأمر بالتفصيل في مبحثٍ خاصٍّ ضــمن الكــلام على القسم في الفصل الأوَّل، ولكنَّني سأذكِّر هنا بالنتيجة والاسْتِنْتَاج من خــلال اسْتِشْــهاد مفصل أزيده في هذا الموضع ممَّا ورد في سورة الشمس.

---

(١) شروح التلخيص (٣١١/٣)، وينظر مختصر المعاني (١٨٨ – ١٨٩)، الطراز (٣٣٩/٣-٣٤٠)، جواهر البلاغة (٢٥٠)

(٢) ينظر شروح التلخيص (٣١١/٣)

(٣) الرعد : ١٤

(٤) البقرة : ١٧١

(٥) البيان في ضوء أساليب القرآن (٤٣)، ينظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (١٧٣/٢)

(٦) الذاريات: ٢٣

(٧) في ظلال القرآن (٢٠/٢٧)

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[1] لقد أَقْسَمَ الجليل بالشمس وعطف بضُحَاهَا ليُشِيْرَ إلى المُقْسَم به وهو في أجلى وضوح وأشدّ حدّةٍ. ففي وقت الضحى تعلو الشمس لتكون أمــام الأعــين تمامًا لا تُخْفِيها تضاريس من الأرض أو أشجارٌ في الأفق، وعلوُّ الشمس في ذلك الوقــت لا يُلْجِئ المرء حتّى إلى رفع الرأس لرؤيتها بل تُبَاشِر هي الأعين المقابلة مباشرةً تُلْجِئُ المرء إلى حجبها بيده أو بمظلّة مركبته.

وفي وقت الضحى تبدأ الشمس أيضًا بإبراز دفئها وحرِّها. لتكون في ذلك الوقــت آيــةً تقتحم كلَّ المدارك والحواسِّ وتُرْغِمُ كلَّ حيٍّ على الالْتِفَات لعظمتها وعظمة خلقها دالَّة علــى خالقها العظيم.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾[2] ولا يتلو القمر الشمس في شروقه أي لا يُشْرِقُ بعــد غروبهــا مباشرةً إلا عندما يكون بدرًا كاملا[3] فيكون القسم بالقمر، إذا تلا الشمس، قسمًا بالقمر وهو وهو بدرٌ في تمام شكله وظهوره.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾[4] ((عند انْتِفَاخ النهار وانْبِسَاطه، لأنَّ الشمس تتجلَّى فــي ذلــك الوقت تمام الانجلاء.))[5] فالنهار وقت منتصفه يلفت إلى أشدِّ الأوقات حــرارةً ممَّــا يُجَلِّــي حقيقة الشمس من أنَّها كتلةٌ ملتهبةٌ ويُبْرِز أعظم قدرة حرارةٍ لها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[6] يقسم الجليل بالليل في أحلك أوقاته أي عندما تغطِّي حلكته كلَّ أثرٍ لضياء الشمس ((والتغشيَة هي مقابل التجليَة، والليل غشاءٌ يضمُّ كلَّ شيءٍ ويُخْفِيْه))[7].
ويُخْفِيْه))[7].

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾[8] أَقْسَم، جلَّ جلالــه، بالســماء وبنائهــا والأرض وطَحْوِهَا[9] أي بسطها وتمهيدها للحياة، والله، جــلَّ جلالــه، مُمْسِــكٌ بالســموات والأرض بقدرته المُعْجِزَة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْــأَرْضَ أَنْ تَزُولَــا وَلَــئِنْ زَالَتَــا إِنْ

---

(١) الشمس :١

(٢) الشمس :٢

(٣) ينظر الكشاف (٢٥٨/٤)

(٤) الشمس :٣

(٥) الكشاف (٢٥٨/٤)

(٦) الشمس : ٤

(٧) في ظلال القرآن (٣٠ / ١٧٣)

(٨) الشمس : ٥-٦

(٩) ينظر في ظلال القرآن (١٧٣/٣٠)

أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1]. إنَّه قسمٌ بكلِّ ما في بناء السماء وبكلِّ ما على سطحها أمام الأعين والحواسِّ.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[2] يُقْسِم الله، تبارك وتعالى، بالنفس كلِّها وبكلِّ ما فيها، فيُشِيْر إلى شِقَّيْها معًا: فجورها وتقواها.

إنَّ نهج القسم في اخْتِيَار المُقْسَمِ به غاية في الظهور والوضوح نهجٌ قرآنيٌّ بليغٌ وأكثر ما يبين ويسطع في هذه السورة الكريمة.

ولا منطق ولا بلاغة البتَّة في اسْتِخْدَام مُقْسَمٍ به غير ظاهرٍ أو غير مدركٍ عند المُخَاطَب بِقَسَمٍ على أمرٍ هو حكمٌ مغيَّبٌ أو غير مدركٍ عنده، ويريد المُقْسِمُ من قسمه تثبيت هذا الأمر وتأكيده في ذهن المُخَاطَب.

وأوَّل هذه المواضع التي أعرض فيها هذا الغرض موضع سورة الواقعة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[3] لقد وجَّهت (مواقع النجوم) باتِّجاه صفة الظهور والوضوح الشديدين أمام أنظار الناس، ولاسيَّما عرب الجزيرة، وفي مداركهم، فاسْتَنْتَجْت الغرض الخامس لصيغة نفي القسم وهو غرض إشارة المُقْسِمِ إلى شدَّة ظهور المُقْسَمِ به وعِظَمِ بيانه بنفي القسم به. وقد فصَّلت في ذلك ودلَّلت عليه في موضعه.

أمَّا إذا وجَّهت (مواقع النجوم) في تفاصيلها وأسرارها باتِّجاه كونها فوق علم الإنسان ومداركه، وأنَّها ستبقى كذلك مهما ارْتَقَى بعلمه وبحثه لأنَّها إعجازٌ علميٌّ لن يصل الإنسان إلى مرحلة كونه قادرًا ومُهَيْمِنًا عليه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4] فسيكون هناك غرضٌ غرضٌ آخرٌ مختلفٌ وهو نفيٌ للقسم بِمُقْسَمٍ به مُغَيَّبٍ أو فوق الإدراك.

وممَّا يعزِّز هذه الوجهة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي أنَّ اللَّفت بالقسم (بمواقع النجوم) لفتٌ عظيمٌ، وتوجيهٌ لما لَمْ يصل علمكم إليه لتُدْرِكُوه وتفقهوا دلالاته، ولذلك لن أُقْسِمِ لكم بمواقع النجوم.

والله، جلَّ شأنه، ((لم يقل بذات النجوم، وذلك ليبيِّن حقيقةً علميَّةً مهمَّةً، وهي أنَّ الكواكب ليست منثورةً في السماء اعْتِبَاطًا، كما يظنُّ الجاهل بنظرته الخاطفة إلى ظاهرها، بل هي خاضعةٌ لنظامٍ دقيقٍ ومحكمٍ بحيث تأخذ كلُّ نجمةٍ موقعها فيه، بما يجعل النظام

---

(١) فاطر :٤١

(٢) الشمس : ٧-٨

(٣) الواقعة : ٧٥- ٧٦

(٤) الإسراء : ٨٥

مُتَكامِلا ويجعلها تُؤدِّي دورها المطلوب والمناسب في الوجود))[١] (((إنَّه) أي القسم بها (لو تعلمون عظيم) أي لو كنتم من أهل العلم لعلمتم عظمته))[٢].

فالقسم (بمواقع النجوم) عظيمٌ عند من يُدْرِك عظمة هذا القسم، ويطَّلع علـــى حقـــائق عظمة مواقع النجوم، ومع أنَّ عظمة هذا القسم تتَّضح وتعظُم مع تقدُّم العلم وتطوُّره إلا أنَّ ما علمناه عن الفلك قليل محدود، وهو ما اسْتَطاعت المراصد الصغيرة المحدودة الوصـــول إليه، وقد يكون مقدار عظمة مواقع النجوم أكبر من طوق فهم البشر وإدراكهم.

ولذا لا يُقْسِم الله، جلَّ جلاله، (بمواقع النجوم) لأنَّ المُقْسَمَ له لا يُدْرِكُ ولا يعلم عظمـــة هذا القسم، يقول المُدرِّسيُّ في هذا الشأن: ((والقسم بشيءٍ يُحَقِّق غرضـــه حينمـــا تكـــون عظمته معروفةً عند الطرف المقابل))[٣].

ويبقى في هذا الموضع أنْ نلفت النظر إلى أنَّ الله، جلَّ شأنه، قـــد أَقْسَـــم (بـــالنجم) أي (بذات النجم) في غير هذا الموضع في سورة النجم: قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[٤] فيُقْسِمُ الجليل بالنجم (إذا هوى)، أي: مُشْتَرِطًا به أنْ يَهْوِي، وكأنَّ خطاب القسم يقول فـــي ســـورة النجم واسْتِنَادًا إلى دلالة النفي هنا في سورة الواقعة: أُقْسِمُ بالنجم إذا غادر موقعه العظـــيم والبعيد عن أنظاركم ومدارككم فهَوَى أمامها نازلا من عليائه مقتربًا فيُلْحَظ ويُـــدْرَك. ويـــدلُّ القسم على ما بعده ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[٥]،أي: ما تفوَّه به منزَّل من العليِّ الأعلى كنزول هذا النجم من عليائه في موقعه البعيد العظيم.

وفي تنزيل القرآن معنى أنَّه كان مرفوعًا فوق عِلْمِ الإنسان وإدراكه وتَنَاوُله، ثم مـــنَّ الرحمن فعلَّم القرآن ويسَّره للذِّكر، كما لم يُقْسِم، جلَّ شأنه، بمواقع النجوم لأنَّها مواقع بعيدةٌ جدًا وعظيمةٌ تَعْصَى على وصول الإنسان ونفاذه، ولكنَّه، جلَّ جلاله، أَقْسَمَ بأحدها أي (النجم إذا هوى) فاقْتَرَبَ ودَنَا، وأصبح في مُتَنَاوَل رصد الإنسان وربَّما لمسه، لو كان النجم بمعنى النيزك وارْتَطَم بالأرض.

وممَّا يعزِّز وجود هذا الغرض، نفي القسم في موضع سورة الحاقَّة ﴿فَلَا أُقْسِـــمُ بِمَـــا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[٦]، قوله تعالى: ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ فالجليل لا يُقْسِـــمُ (بمـــا لا يُبْصِرُوْن)،أي: لا يُقْسِمُ بما هو غير ظاهرٍ ولا يُبْصَر أو غير مُدْرَكٍ ولا تَلْمَحُه البصيرة، وفي

---

(١) من هدى القرآن (٤٥٢/١٤)

(٢) تفسير شبر (٥٣٦)

(٣) من هدى القرآن (٤٥٤/١٤)

(٤) النجم : ١

(٥) النجم : ٢

(٦) الحاقة : ٣٨- ٣٩

ذلك جانب رحمةٍ وتيسير هدايةٍ ألا يلفت الجليل إلى ما لا يُبْصَرُ ويُدْرَكُ من آيات خلقه، وإنَّما يلفت إلى ما يُبْصَر ويُدْرَكُ. ((والذي لا نُبْصِرُه هو ما لا يقع تحت الحسِّ والإدراك))[1]، وفي الآية الكريمة إشارةٌ ((تفتح القلب وتنبِّه الوعي إلى أنَّ هناك وراء مدِّ البصر ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسرارٌ أخرى لا يُبْصِرها ولا يُدْرِكها. وتوسِّع بذلك آفاق التصوُّر الإنسانيِّ للكون والحقيقة، فلا يعيش سجين ما تراه عيناه ولا أسير ما يُدْرِكه وعيه المحدود))[2].

وإنَّني لأرى اجْتِمَاع الغرضين في آيات هذا الموضع، غرض نفي القسم بمُقْسَمٍ به شديد الظهور، في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ وغرض نفي القسم بمُقْسَمٍ به مُغَيَّبٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

وفي موضع سورة القيامة في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، لا يُقْسِمُ الله، تبارك وتعالى، بيوم القيامة، لأنَّه مُغَيَّبٌ مخفيٌّ بل هو الغيب نفسه قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾[4] ((أي قائمةٌ لا محالة وكائنة لا بدَّ منها... وقوله ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول لا أُطْلِعُ عليها أحدًا غيري، وقال السدِّيُّ ليس أحدٌ في أهل السموات والأرض إلا قد أَخْفَى الله عنه علم الساعة... ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقرَّبين ومن الأنبياء والمرسلين... وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[5] وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[6] أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض))[7]
والأرض))[7]

وقد أكَّد تعالى كون إتيان الساعة بغتةً بقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[8]، وقوله: ﴿...حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾[1]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ
يَنظُرُونَ

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١١٤٩/٨)

(٢) في ظلال القرآن (٨٦/٢٩)

(٣) الأعراف : ١٨٧

(٤) طه : ١٥

(٥) النمل :٦٥

(٦) الأعراف : ١٨٧

(٧) تفسير ابن كثير (١٤٥/٣)، ينظر الدر المنثور (٥٦٣/٥)

(٨) الأنبياء :٤٠

إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

بل إنَّ كثيرًا من القسم في القرآن الكريم أتى ليَلْفِتَ فيُثْبِتَ أو يُؤَكِّدَ أنَّ القيامة حقٌّ وأنَّ مشاهدها حقٌّ من البعث والنشور والحشر فالحساب والجزاء في جنَّةٍ أو جحيمٍ، فقد أَقْسَم، جلَّ جلاله، على المعاد والجزاء كما في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[٣].وقوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[٤] وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٥].

ومن قسمه، جلَّ جلاله، على الجزاء والوعيد قوله: ﴿وَالطُّورِ*وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ*فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ*وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ*وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ*وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ*إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ*مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾[٦]. وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا*فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا*وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا*فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا*فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا*عُذْرًا أَوْ نُذْرًا*إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[٧].

لا يمكن أنْ تكون القيامة أو بعض فصولها ومشاهدها في موقع المُقْسَمِ لأجله (أي هي غاية القسم) ثُمَّ تكون نفسها في موقع المُقْسَمِ به أمام المكذِّبين بها. إنَّه أمرٌ ضعيفٌ ويزيد في ضعفه أنْ يُقْسِمَ جلَّ شأنه للمكذِّبين بما لا يُؤْمِنُون ولا يُصَدِّقُون، وقد وردت آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تحكي إنكارهم البعث ووقوع القيامة فلم يستطيعوا تصوُّر قُدْرة الخالق العظيم على إعادة جَمْعِ العظام وبَعْثِ الإنسان حيًا لقياسهم الأمر على قدراتهم التافهة.

ومن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[٩]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[١٠]، وغيرها كثير.

---

(١) الحج :٥٥

(٢) الزخرف: ٦٦، وينظر محمد: ١٨

(٣) سبأ : ٣

(٤) يونس :٥٣

(٥) التغابن : ٧

(٦) الطور :١-٨

(٧) المرسلات :١-٧

(٨) الإسراء :٤٩، وينظر الآية: ٩٨

(٩) الأنعام :٢٩

(١٠) النحل :٣٨

وإنَّنِي لأرى في ذلك تناقضًا غير مقبولٍ، حتَّى لو افْتَرَضَ المُفسِّرون ذلك في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، أي أنْ يُشِيْرُوا إلى القيامة مُقْسَمًا لأجله في موضعٍ ومُقْسَمًا به في موضعٍ آخرٍ، فكيف الحال إذا كان ذلك في موضعٍ واحدٍ من سورةٍ واحدةٍ، أي أنْ يُقَال في سورة القيامة:إنَّ (لا) زائدةٌ وإنَّ الله تعالى أَقْسَمَ بيوم القيامة لإثبات كونه حقًا وإنَّ البعث حقٌّ وتأكيد ذلك، وجواب القسم عندهم مقدَّر يُفْهم من الآيات، أي (لَتُبْعَثُنَّ)[1]. قال البغدادي: ((فإنْ قُلْت المُقْسَمُ به هو يوم القيامة، والمُقْسَمُ عليه هو يوم القيامة، فيصير حاصله أنَّه أَقْسَمَ بيوم القيامة على وقوع القيامة وفيه إشكال))[2].

ويكون معنى الآيات الكريمة في سورة القيامة بما له صلة بهذا الغرض أنَّ الله تبارك وتعالى لا يُقْسِمُ بمُغَيَّبٍ ليُثْبِتَ مُغَيَّبًا فهو أرحم وأعدل، وهو يلفت، حين يلفت، لآياتٍ ظاهرةٍ، ويُشِيْرُ في كتابه العزيز إلى ما هو أمام بصر الإنسان وبصيرته من آيات خلقه ليهتدي الإنسان بِيُسْرٍ ووضوحٍ، ومثل ذلك في كلام الله، تبارك وتعالى، كثيرٌ في غير القسم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ*وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ*وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ*وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[3] فقد لفت، جلَّ جلاله، أنظار الناس في البداية إلى ما هو قريبٌ منهم من حولهم وأمام أنظارهم.

ولا يُقْسِمُ الجليل بنفسٍ ذميمة الصفات لوَّامةٍ تبحث عن معاذير (أيّ معاذير) لتُكَذِّبَ بيوم القيامة، وقد يكون من معاذيرها أنَّ الأمر كان صعبًا عليها ليُفْهَمَ، فقد أُرْشِدَتْ بمُغَيَّبٍ إلى مُغَيَّبٍ، أو قد تقول إنَّها قد دُلِّلَ لها وأُشِيْرَ بما لا تُدْرِكُ ولا تُبْصِرُ والله، جلَّ شأنه، لا يريد أنْ يكون للناس عليه حُجَّةٌ، قال تعالى: ﴿لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[4].

أمَّا القسم الصريح الوحيد الذي ورد بيوم القيامة، ففي سورة البروج، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ*وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ*وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[5]. فقد أتى القسم في هذه الآيات الآيات الكريمة مخاطبًا المؤمنين الذين يُصَدِّقُون بالآخرة وبيوم القيامة وبما وعد الرحمن فيه، فكان المُقْسَمُ به مدركًا مُصَدَّقًا من المؤمنين، وقد بُدِئ بمرئيٍّ مُدْرَكٍ (السماء ذات البروج).

---

(١) ينظر تفسير الواحدي (٢/١١٥٣)، تفسير القرطبي (١٩/٩٣)

(٢) الخازن (٤/٣٧٠)

(٣) الغاشية : ١٧-٢٠

(٤) النساء : ١٦٥

(٥) الآية : ١-٣

وكان القسمُ في الآيات مؤَكِّدًا مُطَمْئنًا مُثَبِّتًا للمؤمنين الذين يتعرضون لـلأذى الشـديد مـن قريش. وركَّز القسم بـ(اليوم) على صفة (الموعود) وعَرَضَ للمؤمنين المُسْتَضْعَفِين بعدها (الوعود) المرتبطة بذلك اليوم فأكَّدَها وفَصَّل فيها: فذكر للمؤمنين أمر الجبَّار وقراره الحاسم في أصحاب الأخدود وأمثالهم ليخفِّف ما في صدورهم من غضب ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾[1].

وذَكَرَ وعده بعذابٍ شديدٍ ومُضَاعَفٍ للذين فَتَنُوا وآذوا المـؤمنين ﴿إِنَّ الَّـذِينَ فَتَنُـوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[2]. وذَكَـرَ وعـده للمؤمنين بالجنَّة والفوز الكبير ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾[3].

ثُمَّ أشار إلى وعده، جلَّ جلاله، بأنْ يُحِيْطَ بالمتجبِّرين الطغاة وأنْ يبطش بهم كما بطش بفرعون وثمود في الدنيا قبل الآخرة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ... وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾[4].

كلُّها وعودٌ يثق المؤمنون بها ويؤمنون بميقاتها في اليوم الآخـر، وقـد أكَّـدها لهـم الرحمن في هذه السورة حتَّى يكاد القسم يكون بالوعود نفسها التي ذكرها الرحمن لعبـاده المؤمنين إنْ صَبَرُوا.

(١) البروج : ٤

(٢) البروج : ١٠

(٣) البروج : ١١

(٤) البروج : ١٢- ٢٠

الغرض الثامن
ذَمُّ ما نُفِيَ القَسَمُ بِهِ وتَحْقِيْرِهِ

وهو أنْ لا يُقْسِمِ الله تبارك وتعالى بشيءٍ، وذلك لذمِّ هذا الشيء أو لذمِّ صفته وللتدليل على وضاعته وتدنِّيه عن مستوى قَسَمِ الجليل به.

فلابدَّ للشيء، ليقسم الله به، أنْ يكون ذا شأنٍ ورفعةٍ، فالمُقْسَمُ به من الله تبارك وتعالى يجب أنْ يكون مُقَدَّرًا عظيمًا، وقد أَقْسَمَ الله، جلَّ جلاله، بمخلوقاته ليلفت ويدلَّ على عظمتها، نحو قسمه جلَّ شأنه بالشمس والقمر والسماء والفجر والضحي والليل والنهار والعصر... إلى آخر الأمور العظيمة الجليلة من مخلوقات الله، جلَّ جلاله، التي أَقْسَمَ بها. وفي الوقت نفسه نفى، جلَّ جلاله، القسم بالأمر الوضيع أو الشيء ذي الصفة الذميمة.

ويتجلَّى هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1] مع ترجيح صفة (اللوَّامة) للنفس على أنَّها صفةٌ ذميمةٌ. و(لوَّامة) على وزن فعَّالة مؤنَّث فعَّال من أبنية المبالغة ((فالشيء إذا كُرِّرَ فعله بُنِيَ على فعَّال))[2].

ولم ترد لفظة اللوَّامة في القرآن الكريم بهذه الصيغة إلا صفةً للنفس في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ ولكنَّنا نجد في القرآن الكريم مفرداتٍ من مشتقَّات اللَّوم واردةً، وبصيغٍ شتَّى، وأهمُّ ما يُلْحَظُ في هذه المفردات المشتقَّة من اللَّوم ضمن الآيات الكريمة أنَّها كلَّها وردت في سياق الذمِّ، ولم يَرِد لمعنى اللوم في أيِّ موضعٍ في القرآن الكريم وَصْفٌ محمودٌ يُحَضُّ على التَّخَلُّق به. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

---

(١) القيامة :٢

(٢) معاني الأبنية في العربية (١٠٧)،ينظر الصرف الواضح (١٥٨)، المهذب في علم التصريف(٢٦٢)

(٣) يوسف :٣٢

كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[2]، وقوله تعالى ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[3].

وإذا تأمّلنا صفة (اللوّامة) في النفس البشرية وتساءلنا: هل هي من الصفات الحسنة أو السيِّئة؟ نجد أنَّها من الصفات السيِّئة، لأنَّ اللَّوم أمرٌ مُستَكْرَهٌ عند الناس، ويجب علينا أنْ نفصل بين اللوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنَّ اللائم لغيره أو لنفسه يقوم باللوم بعد أنْ يقع المحظور أو بعد أنْ يقوم الإنسان بعمل الشرِّ، أو بعد أنْ يفوته ما فاته من عمل الخير. أي أنَّ اللوم يحصل بعد الخسارة، وكأنَّه حالة تحسرٍ على ما ضاع وفُقِدَ، ونحن لا نجد في اللوم فسحةً للنفس الخاطئة أو العاصية حتَّى تستريح، بقدر ما نجد فيه من القنوط واليأس، والله تعالى يحذِّر من ذلك وينْهى عنه ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4].

وقد يقع الإنسان في الخطأ أو المعصية أو أيِّ أمرٍ آخر سيِّئ ولا يُحَاسِبُ نفسه أو يوبِّخها حتَّى لا يعيد الكرَّة بل ينزع في كثيرٍ من الأحيان إلى لوم الظروف التي مرَّ بها أو أحاطت به، ويلوم مَنْ حَوْلَه و يلوم الشيطان ويلوم كلَّ شيءٍ وأيَّ شيءٍ ولكنَّه ينسى أنْ يلوم نفسه، وإنْ لامها فبعد فوات الأوان وكون ما كان، مع أنَّ اللَّوم في تلك اللحظة لا يجب وإنَّما يجب اللجوء إلى الله وطلب المغفرة والعمل على إصلاح الأمر، ولم يوجِّه الله، تبارك وتعالى، العاصين والمسرفين على أنفسهم ليلوموا أنفسهم وإنَّما وجَّههم للاسْتِغْفَار والإصلاح، قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾[5]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[6]، ولو كان معنى اللوم محمودًا بمعنى الندم والتوبة، لأمر الله به بلفظٍ صريحٍ مباشرٍ، وعلى العكس من ذلك ذكر الله، جلَّ جلاله، في كتابه العزيز حقيقة أنَّ الإنسان أكثر ما يتوجَّه باللوم إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[7]. فقول إبليس في الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ((أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليلٌ ولا حُجَّةٌ

---

(١) الإسراء :٢٩

(٢) الإسراء : ٣٩

(٣) الصافات : ١٤٢، ينظر الذاريات : ٥١ ، ٥٤ ، المؤمنون : ٦ ، المائدة : ٥٤

(٤) الزمر: ٥٣

(٥) هود: ٣

(٦) آل عمران: ٨٩

(٧) ابراهيم: ٢٢

فيما وعدتكم به إلا أنْ دعوتكم فاسْتَجَبْتُم لي بمجرِّد ذلك. هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلَّة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم فصِرْتُم إلى ما أنتم فيه (فلا تلوموني) اليوم (ولوموا أنفسكم) فإنَّ الذنب لكم لكونكم خالفتم الحُجَجَ واتَّبَعْتُمُوْنِي بمجرَّد ما دعوتكم إلى الباطل))[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾[2] ((أي يلوم هذا هذا في القسم ومنع المسكين ويقول بل أنت أشرت علينا بهذا))[3]. ((فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استَصْوَبَهُ، ومنهم من سكت راضيًا، ومنهم من أنكره ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾[4] متجاوزين حدود الله تعالى))[5]. فالهدف من التلاوم هو إبراء ساحة كلٍّ منهم ومحاولة إلصاق التهمة بالآخر بحقٍّ أو بغير حقٍّ.

ويشكِّل اللوم ضغطًا نفسيًّا كبيرًا على الإنسان الملوم، وقد يدفعه خوفه من لوم اللائمين إلى الابْتِعَاد عن الطاعات، قال تعالى في وصف هذه الحالة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[6] ((أي لا يردُّهم عمَّا فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يردُّهم عن ذلك رادٌّ ولا يصدُّهم عنه صادٌّ ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عذل عاذلٍ))[7].

أمَّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فواجبٌ محمودٌ أمر الله، جلَّ جلاله، عباده به فقال جلَّ شأنه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[8]. وقد وَصَفَ الله، جلَّ جلاله، المؤمنين بأوصافٍ متعدِّدةٍ كان منها، أنَّهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر، ولم يكن من بينها، أنَّهم يتلاومون أو لوَّامون أو لائمون حين قال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[9].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٣٠/٢)، وينظر تفسير البيضاوي (٣٤٥/٣)

(٢) القلم: ٣٠

(٣) تفسير القرطبي (٢٤٥/١٨)

(٤) القلم: ٣١

(٥) تفسير البيضاوي (٣٧٣/٥)

(٦) المائدة: ٥٤

(٧) تفسير ابن كثير (٧١/٢)

(٨) آل عمران: ١٠٤ ، ١١٠

(٩) التوبة: ١١٢

وممَّا يؤكِّد ذمّ معنى اللوم في سورة القيامة وروده بصيغة المبالغـة ((وهـذا البنـاء يقتضي المزاولة والتجديد، لأنَّ صاحب الصفة مداومٌ على صفته ملازمٌ لها فعندما تقول (هو كذَّابٌ) كان المعنى كأنَّما هو شخصٌ حرفته الكذب وهو مداومٌ على هذه الصفة، كثير المعاناة لها مستمرٌّ على ذلك لا يَنْقَطِع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1] أي أنَّه مستمرٌّ على ذلك يزاوله ويعانيه ويجدِّده))[2]. فالنفس اللوَّامة هي التي أصبح اللوم طابعها وطبيعة فيهـا فهي تلوم على كلِّ شيءٍ، وأكثر لومها متوجِّهٌ للناس، قال ابْن منظور: ((ورجلٌ لَوْمَة: يَلُومُه النَّاس ولُوَمَة: يَلُوْمُ النَّاس.. ورجلٌ لُوَمَة: لَوَّام))[3]. وقال الزبيدي: ((... ورجلٌ لوَّامة كثير اللَّوم))[4]. وقال الطريحي عن النفس اللوَّامة: ((قِيْلَ النَّفس الأمَّارة التي رذائلها ثابتة))[5].

أمَّا ما قِيْل من أنَّ النفس البرَّة أيضًا تلوم نفسها لِمَ لَمْ تزد على طاعتها فإنَّ هذا القول مردودٌ لـ((أنَّ من يستحق الثواب لا يجوز أنْ يلوم نفسه على ترك الزيادة، لأنَّه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره أنْ يلومها عليه... ولأنَّ المُكَلَّف يعلم أنَّه لا مقدار مـن الطاعة إلا ويمكن الإتيان بما هو أزيد منه فلو كان ذلك موجبًا للَّوم لامْتَنَعَ الانفكاك عنه، وما كان كذلك لا يكون مطلوب الحصول، ولا يُلام على ترك تحصيله))[6]. قال الرازي أيضا فـي صيغة المبالغة (فعَّالة) التي وردت بها صفة النفس (اللوَّامة): ((اعْلَم أنَّ قوله (لوَّامة)، يُبْنَى على التكرار والإعادة))[7]. ولا يمكن بذلك أنْ تكون (اللوَّامة) صفة مدحٍ لأنَّ اللـوم الكثيـر المتكرِّر الذي دلَّت عليه الآية الكريمة ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[8] يعني الوقـوع الكثيـر والمتكرِّر في الأخطاء، وإلا على ماذا يلوم الإنسان نفسه إذا لم يُخْطِئ، ودوام اللوم وتكراره من النفس لذاتها يدلُّ على دوام فعل المعاصي والاسْتِمْرار في الأخطاء، وأوَّل شروط التوبة أنْ يُقْلِعَ الإنسان عن المعصية والخطأ.

---

(١) ابراهيم: ٣٤

(٢) معاني الأبنية في العربية (١٠٩ – ١١٠)

(٣) لسان العرب (٥٥٧/١٢)

(٤) تاج العروس (٦٧/٩)

(٥) مجمع البحرين (١٥٥/٤)

(٦) تفسير الرازي (٢١٥/٣٠-٢١٦)

(٧) تفسير الرازي (٢١٦/٣٠)

(٨) القيامة: ٢

فصفة اللوم على هذا، ذميمةٌ للنفس البشرية، وهي جزء من فجور النفس وليس من تقواها ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] وامْتِنَاع الجليل عن القسم بها وهي على هذه الصفة ذمٌ لها كبيرٌ واحْتِقَارٌ لها عظيمٌ.

وقد أكَّد السياق القرآنيُّ العظيم في الآيات الكريمة التي تلت نفي القسم بـ(النفس اللوَّامة) هذا المعنى، وبإشاراتٍ واضحةٍ تذمُّ صفة النفس هذه وتُفَصِّلُ فيها، بل ها هي الآيات الكريمة وبعد آيتين من نفي القسم تُصَرِّحُ بأنَّ هذه الصفة هي في جانب الفجور ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[2].

والآيات، بعد ذكر النفس اللوَّامة مباشرةً، فيها تقريعٌ وإنكارٌ على الإنسان وهو في صفته هذه ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ*بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[3]. هذا هو حال الإنسان قبل الواقعة، إنَّه يُنْكِر البعث ويكذِّب بفجورٍ ما هو قريب أمامه و﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[4]، ويصف لنا القرآن العظيم موقف الإنسان بعد الواقعة، أي بعد الخسارة والوقوع ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ*كَلَّا لَا وَزَرَ*إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[5] وكلُّ شيءٍ شيءٍ يومئذٍ مكشوفٌ معروفٌ لا ينفع فيه إلقاء اللوم على أحدٍ ﴿يُنَبَّؤُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[6]. والإنسان مع أعضائه كلِّها على نفسه شاهدٌ ﴿بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ*وَلَوْ بَصِيرَةٌ*وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[7].

ولقد أوصلنا السياق القرآني، مرَّةً أخرى، إلى الصفة الذميمة التي تضخَّمَت وهيمنت على نفس هذا الإنسان ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[8] إنَّه يُلْقِي الأعذار وهي ليست إلا لومًا كثيرًا لتسويغ التفريط الكبير والذنوب الكثيرة، فسبب الكفر عند اللوَّامة هو إضلال الكبراء واتِّباع الأسياد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ*وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾[9].

---

(١) الشمس: ٨

(٢) القيامة: ٥

(٣) القيامة: ٣-٤

(٤) القيامة: ٦

(٥) القيامة: ١٠-١٢

(٦) القيامة: ١٣

(٧) القيامة: ١٤-١٥

(٨) القيامة: ١٥

(٩) الأحزاب: ٦٦- ٦٧

وتتمادى النفس الخبيثة اللوَّامة لأقصى حدٍ لتلومَ خالقها، جلَّ شأنه، مُجْتَرِئَةً وقحــةً، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَـا آبَاؤُنَـا وَلَـا حَرَّمْنَـا مِــنْ شَيْءٍ﴾[1].

وفيما دون الكفر والشرك تتفنَّن النفس اللوَّامة لتسويغ المعاصي والأعذار التي منها: الظروف الصعبة، قرين السوء، الزمان الصعب، وغير ذلك كثيرٌ كثير مــن اللــوم وإلقــاء المعاذير.

لقد وجدت في الآية الكريمة ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ دلالةً واضحةً على ذمِّ النفس اللوَّامة بنفي القسم بها في بداية السورة وقد أتت بعدها الآيات بالإنكار والزجــر الشــديدين علــى الناس من أصحاب هذه الصفة الذميمة ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّــونَ الْعَاجِلَــةَ*وَتَــذَرُونَ الْــآخِرَةَ﴾[2]، والانْتِقَال في الخطاب من صيغة الغائب إلى المُخَاطَبِ فيه لفتٌ مهيبٌ مخيفٌ إلــى أنَّ هــذه الصفة التي قد تُفْسِدُ الإنسان صفة فاجرة تكمن في دواخل جميع الناس والخطاب لكلٍّ منَّــا لنحذر هذه الصفة ولنحذر هيمنتها على نفوسنا.

وقبل خاتمة السورة هناك وصفٌ مرعبٌ لخاتمة من غفل عن البعث وفرَّط فيه وأنكره، مُعْتَمِدًا، مُتَّكِئًا على التعذُّر واللَّوم ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ*تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَــاقِرَةٌ*كَلَّــا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِي*وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ*وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ*وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ*إِلَــى رَبِّــكَ يَوْمَئِــذٍ الْمَسَاقُ﴾[3].

---

(1) الأنعام: ١٤٨

(2) القيامة: ٢٠-٢١

(3) القيامة:٢٤- ٣٠

النتائج

ها أنا ذي، بحمد الله وحُسْنِ توفيقه، أصل إلى ما أفرح قلبي وشرح صدري، إذ أنهيت عملا نذرته لله تعالى، وكان سببًا في تقديم أفضل ما يمكنني تقديمه، لأنَّه لله، ببذل ما وسعني من جهدٍ ماديٍّ ومعنويٍّ.

ولقد وفَّقني الله تعالى في هذه الدراسة لجملةٍ من النتائج التي أحسب أنَّني، في أكثرها لم أكن مسبوقةً إليها، وقد لا أكون مغاليةً إذا قلت: إنَّ الأطروحة في جلِّها نتائج، يمكن إجمالها بما يأتي:

١) انْفِراد القرآن الكريم باسْتِعمال صيغة (لا أُقْسِمُ)، فبعد البحث في نصوصٍ من نثر الجاهلية وشعرها، تبيَّن أنَّ العرب لم تستعمل صيغة (لا أُقْسِمُ) قبل نزول القرآن الكريم، على الرغم من اسْتِعمال القرآن معظم أساليب القسم الصريح والمُضْمَر التي كان العرب يستعملونها. ولانْفِرَاد القرآن الكريم هذا غاية وأغراض.

٢) إنَّ المُقْسَمَ به من الله، جلَّ جلاله، في القسم الصريح في القرآن الكريم كان مدركًا من المخاطب وظاهرًا له، تأثيرًا في المخاطب، ولفتًا له، وتقريبًا للأمور إلى ذهنه ومداركه، وفي مقابل ذلك نجد نفي القسم من الله، جلَّ جلاله، يكون بما هو مُغَيَّب أو غير مدركٍ من المخاطب.

٣) اخْتِلاف طرائق المفسِّرين في عرض أقوالهم في تفسير آيات نفي القسم في القرآن الكريم اخْتِلافًا كان ذا أثرٍ سلبيٍّ في القارئ والمتلقِّي، وقد صنَّفت طرائقهم بعد دراستها وعَرَضْتُها في أربعة أنواع.

٤) إنَّ الآراء التي ذُكِرَت في صيغة نفي القسم في القرآن الكريم (لا أُقْسِمُ) كانت متباينةً في قوَّتها وضعفها، وفي بعض الأحيان متضاربةً، والاعْتِمَاد على أحد الآراء قد ينسف غيره، ولذلك كانت الحاجة كبيرةً وماسَّةً للمناقشة والاسْتِدلال، وهذا ما فعلته، فقد قسَّمت الآراء المذكورة في صيغة (لا أُقْسِمُ) على النحو الآتي:

أ] (لا أُقْسِمُ) بمعنى (أُقْسِمُ)، و(لا) زائدة للتوكيد أو صلة في الكلام، وجودها كعدمه.

ب] (لا) في (لا أُقْسِمُ) ردٌّ لكلامٍ يُخَالف المُقْسَم عليه، و(أُقْسِمُ) كلامٌ مُسْتَأْنف.

ت] معنى (لا) النهي عن التكذيب رجوعًا إلى ما تقدَّم.

ث] (لا أُقْسِمُ) أصلها (لأُقْسِمُ) .

ج] آراء متفرِّقة، هي: (لا أُقْسِمُ) بمعنى (ألا) للتنبيه، (لا أُقْسِمُ) كلمة قسم، (لا أُقْسِمُ) معناها الاسْتِفْهام الإنكاريُّ، (لا) في (لا أُقْسِمُ) بمعنى الاسْتِثْناء.

ح] (لا) في صيغة (لا أُقْسِمُ) نفي للقسم.

٥) درست الأطروحة ثمانية مواضعٍ في القرآن الكريم وردت فيها صيغة (لا أُقْسِمُ) وهي: (الواقعة: ٧٥، الحاقَّة: ٣٨-٣٩، المعارج: ٤٠، القيامة: ١-٢، التكوير: ١٥، الانْشِقَاق: ١٦، البلد: ١)، وقد أسَّسْت نتائجها من مسألةٍ رئيسةٍ واحدةٍ تخصُّ كلَّ المواضع، وهي رفض زيادة (لا) في (لا أُقْسِمُ) وتأكيد عملها في النفي الكامل المباشر لفعل القسم.

٦) تبلورت نتائج الدراسة في ثمانية أغراضٍ لنفي القسم أخرجتها ووصفتها، ثُمَّ سمَّيتها، وهذا أمرٌ لم يكن قبل هذه الدراسة، وأمل الباحثة ورجاؤها أنْ تَدْخُلَ هذه الأغراض وما فُصِّلَ فيها في موسوعة اللغة العربيَّة وكتبها خدمةً للغة القرآن العظيم، ابْتِغَاء الأجر من الجليل، وهذه الأغراض هي:

أ) رفع التعظيم عن المُشَارِ إليه بـ(لا أُقْسِمُ).

ب) عدم الحظِّ من مقام المُقْسِمِ.

ت) عدم الحظِّ من شأن ما نُفِيَ القسم من أجله.

ث) الإعراض عن المكذِّبين وإهمال شأنهم.

ج) الدلالة على شدَّة ظهور المُقْسَمِ به وعِظَمِ بيانه وتسفيه من غفل عنه.

ح) الغضب.

خ) ضرورة كون المُقْسَمُ به ظاهرًا أو مُدْركًا.

د) ذمُّ ما نُفِيَ القسم به وتحقيره.

٧) وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الموضع الواحد من مواضع نفي القسم في القرآن الكريم قد يدلُّ على أكثر من غرض، وقد ينفرد موضعٌ من مواضع نفي القسم بالدلالة على غرضٍ واحدٍ.

فمن المواضع التي انْفَرَدت بالدلالة على أحد الأغراض، موضع سورة البلد ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، إذ انْفَرَد بالدلالة على الغرض الأوَّل: رفع التعظيم عن المُشَارِ إليه بـ(لا أُقْسِمُ)، موضع سورة المعارج ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾، انْفَرَدَ بشكلٍ رئيسٍ، للدلالة على الغرض الثاني: عدم الحظِّ من مقام المُقْسِمِ. وموضع سورة القيامة﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، انْفَرَدَ بالدلالة على الغرض الثامن: ذمُّ ما نُفِيَ القسم به وتحقيره.

أمَّا المواضع التي شاركت في الدلالة على أكثر من غرض:

١- موضع سورة الواقعة ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، شارك في الدلالة على الغرض الثالث: عدم الحظِّ من شأن ما نُفِيَ القسم من أجله، والغرض الخامس: الدلالة على شدَّة ظهور المُقْسَمِ به وعِظَمِ بيانه وتسفيه من غفل عنه، والغرض السادس: الغضب، والغرض السابع: ضرورة أنْ يكون المُقْسَمُ به ظاهرًا أو مُدْرَكًا.

٢- موضع سورة الحاقَّة ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ شارك في الدلالة على الغرض الثالث: عدم الحظِّ من شأن ما نُفِيَ القسم من أجله، والغرض الرابع: الإعراض عن المكذِّبين وإهمال شأنهم، والغرض الخامس: الدلالة على شدَّة ظهور المُقْسَمِ به وعِظَمِ بيانه وتسفيه من غفل عنه، والغرض السابع: ضرورة كون المُقْسَمُ به ظاهرًا أو مدركًا.

٣- موضع سورة المعارج ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ شارك في الدلالة على الغرض الرابع: الإعراض عن المكذِّبين وإهمال شأنهم، والغرض الخامس: الدلالة على شدَّة ظهور المُقْسَمِ به وعِظَمِ بيانه وتسفيه من غفل عنه، والغرض السادس: الغضب.

٤- موضع سورة القيامة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، شارك في الدلالة على الغرض الرابع: الإعراض عن المكذِّبين وإهمال شأنهم، والغرض السابع: ضرورة أن يكون المُقْسَمُ به ظاهرًا أو مُدْرَكًا.

٥- موضع سورة التكوير ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ شارك في الدلالة على الغرض الثالث عدم الحظِّ من شأن ما نُفِيَ القسم من أجله، والغرض الرابع: الإعراض عن المكذِّبين وإهمال شأنهم، والغرض الخامس: الدلالة على شدَّة ظهور المُقْسَمِ به وعِظَمِ بيانه وتسفيه من غفل عنه.

٦- موضع سورة الانْشِقَاق ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ شارك في الدلالة على الغرض الرابع: الإعراض عن المكذِّبين وإهمال شأنهم، والغرض الخامس: الدلالة على شدَّة ظهور المُقْسَمِ به وعِظَمِ بيانه وتسفيه من غفل عنه، والغرض السادس: الغضب.

٨) من نتائج هذه الدراسة اقْتِرَاح مصطلحاتٍ جديدةٍ تختصُّ بوصف صيغة (لا أُقْسِمُ) وما يتعلَّق بها وهي:

أ . صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، للدلالة على (لا أُقْسِمُ).

ب . ما نُفِيَ القسم به، للدلالة على ما أتى بعد (لا أُقْسِمُ) وذلك ما يُقَابِل المُقْسَم به في موضوع (القسم)

ت – جواب نفي القسم، للدلالة على ما نُفِيَ القسم من أجله وهو ما يُقَابِل جواب القســم في جملة القسم.

ث – تسمية اللام الواقعة في جواب القسم في جملة القسم، باللام الواقعة في جواب نفي القسم.

إنَّها ثمانية نتائج، أهمُّ ما فيها إطلاق ثمانية أغراضٍ في دراسة صيغةٍ وردت في ثمانية مواضع في القرآن الكريم.

إنَّها ثُلاثيَّة ثُمانيَّة، أسال الله الجليل أنْ يجعلها في صحيفة حسناتي، ويوفقني فيها، ولما فيها، وأنْ يقبلها منِّي فيجزيني يوم يحمل عرشه فوقهم يومئذٍ ثمانية.

والحمد لله في البدء والختام وصلى الله على سيدنا محمد خير الأنام.

المصادر والمرجع

القرآن الكريم

- إتحاف فضلاء البشر في قراءات القراء الأربعة عشر، للشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء ت ١١١٧هـ، وضع حواشيه أنس مهرة، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- الإتقان في علوم القرآن، لأبي الفضل، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ت٩١١هـ، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.
- إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن، لمحمد بن محمد الغزي ت١٠٦١هـ، تحقيق خليل محمد العربي، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- أحكام القرآن، لأبي بكر، أحمد بن علي الرازي الجصاص ت٣٧٠هـ، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٥١م.
- أدب الكاتب، لأبي محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الدينوري ت٢٧٦هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٦٣م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، محمد بن محمد العمادي ت٩٥١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(بلا . ت).
- إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي في القراءات العشر، لأبي العزِّ، محمد بن الحسين بن بندار الواسطي القلانسي ت٥٢١هـ، تحقيق عمر حمدان الكبيسي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م.
- الأزهيَّة في علم الحروف، لعليّ بن محمَّد النحوي الهروي ت٤١٥هـ، تحقيق عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩١– ١٩٧١م.
- أساس البلاغة، للإمام جار الله، أبي القاسم، محمود بن عمر الزمخشري ت٥٣٨هـ، دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٥هـ– ١٩٦٥م.

- الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- أساليب التوكيد في القرآن الكريم، لعبد الرحمن المطردي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
- أساليب القسم في اللغة العربية، كاظم فتحي الراوي، مطبعة الجامعة، بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.
- أساليب النفي في العربية، دراسة وصفية تاريخية، د. مصطفى أحمد النمّاس، كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ١٣٩٩هـ - ١٩٦٨م.
- أساليب النفي في القرآن، أحمد ماهر محمود فهمي البقري، مطبعة دار نشر الثقافة، اسكندرية، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.
- أسباب نزول الآيات، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت٤٦٨هـ، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٨هـ.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ، تحقيق هـ ـ ريتر، استانبول، ١٩٥٤م.
- أسرار ترتيب القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، (بلا . ت)
- أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ.
- أسرار العربية، لأبي البركات، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنباري ت٥٧٧هـ، دراسة وتحقيق محمد حسين شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
- أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم، تأليف علي أبو القاسم عون، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٩٢م.
- الأشباه والنظائر في النحو، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، الطبعة الخامسة ١٩٧٥م.
- الأصول في النحو، لأبي بكر بن سهل بن السراج النحوي البغدادي ت٣١٦هـ، تحقيق د.عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، والتتمة عن تلميذه عطية محمد سالم، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي، ت١٩٣٧م، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ت٣٧٠هـ، مطبعة دار الحكمة، حلبوني، دمشق، (بلا . ت).
- إعراب الجمل وأشباه الجمل، د. فخر الدين قباوة، دار الأوزاعي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن اسماعيل النحاس ت٣٣٨هـ، تحقيق د. زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد، (بلا . ت).
- إعراب القرآن، محمد جعفر الشيخ إبراهيم الكرباسي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقق ودراسة إبرهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- الإقناع في القراءات السبع، لأبي جعفر، أحمد بن علي بن خلف الأنصاري ابن الباذش ت٥٤٠هـ، حققه وقدم له د. عبد المجيد قطامش، مطبعة دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- الأمالي الشجرية، إملاء الشريف السيد ضياء الدين أبي السعادات، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسيني المعروف بابن الشجري ت٥٤٢هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (بلا . ت)
- الأمالي النحوية، أمالي القرآن الكريم، لابن الحاجب ت٦٤٦هـ، تحقيق هادي حسن حمودي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- الأمثل من تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- إمعان في أقسام القرآن، للفراهي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات، عبد الرحمن بن محمد بن سعيد الأنباري، دار الفكر، دمشق، (بلا . ت).

- أوزان الفعل ومعانيها، تأليف د.هاشم طه شلاش، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧١م.
- أوضح المسالك إلى ألفيه ابن مالك، لأبي محمد، عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري، ت٧٦١هـ، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٧٩م.
- الإيضاح العضدي، لأبي علي الفارسي ت٣٧٧هـ، حققه وقدم له د. حسن شاذلي فرهود، مطبعة دار التأليف، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ- ١٩٩٦م.
- الإيضاح في شرح المفصل، للشيخ أبي عمرو، عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب النحوي ت٦٤٦هـ، تحقيق وتقديم د. موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٢م – ١٤٠٢هـ.
- أيمان العرب في الجاهلية، لأبي اسحاق، إبراهيم بن عبد الله النجيرمي الكاتب، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة، المطبعة السلفية ١٣٨٢هـ.
- بحوث في تاريخ القرآن، لأبي الفضل،مير محمدي الزرندي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- بدائع الفوائد، لشمس الدين، محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ت٧٥١هـ، الطباعة الخيرية، (بلا . ت).
- البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ ت٥٨٤هـ، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي، د. حامد عبد المجيد، القاهرة، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.
- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ت٧٩٤هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.
- البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي القاهرة، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحب الدين أبي الفيض، السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي ت١٢٠٥هـ، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، (بلا.ت).
- تاريخ القرآن الكريم، محمد طاهر الكردي الخطاط، الناشر محمد مصطفى محمد يغمور، مكة، مطبعة الفتح، جدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
- التأويل النحوي في القرآن الكريم، د. عبد الفتاح أحمد الحموز، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء، عبد الله بن الحسين العكبري ت٦١٦هـ، تحقيق على محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دار إحياء الكتب العربية، (بلا . ت).
- التبيان في أقسام القرآن، لشمس الدين، محمد بن أبي بكر المعروف ابن قيم الجوزية،، صححه وعلق عليه الشيخ طه يوسف شاهين، دار الكاتب العربي، (بلا.ت)
- التبيان من تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، تحقيق د. فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث بطنطا ـ مصر، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- التبيان في تفسير القرآن (تفسير التبيان)، لأبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي ت٤٦٠هـ. تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك ت٦٧٢، تحقيق محمد كامل بركات، مطبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م.
- التعريفات، لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف ت٨١٦هـ، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، (بلا . ت).
- تفسير أبي السعود، ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم.
- تفسير البغوي، ينظر معالم التنزيل.
- تفسير ابن كثير، ينظر تفسير القرآن العظيم.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٦م.
- تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاوي ت٧٩١هـ، تحقيق عبد القادر عرفان العشا حسونة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
- تفسير الثعالبي، ينظر الجواهر الحسان في تفسير القرآن.
- تفسير جزء عم، محمد عبده، مطابع الشعب، القاهرة،الطبعة الخامسة، (بلا . ت).
- تفسير الجلالين، لمحد بن أحمد المعروف بالجلال المحلي وجلال الدين السيوطي، القاهرة، دار الحديث، الطبعة الأولى، (بلا . ت).
- تفسير الرازي، ينظر التفسير الكبير.
- تفسير روح البيان، اسماعيل حقي البروسوي ت١١٣٧هـ، دار الفكر للطباعة والنشر، (بلا . ت).

- تفسير الصنعاني، ينظر تفسير القرآن.
- تفسير الطبري، ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
- تفسير غريب القرآن، لأبي محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت٢٧٦هـ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- تفسير فرات الكوفي، لأبي القاسم، فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي ت٣٥٢هـ، تحقيق محمد الكاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- تفسير القاسمي، المسمى (محاسن التأويل)، لمحمد جمال الدين القاسمي ت١٣٣٢هـ، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- تفسير القرآن، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني ت٢١١هـ، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- تفسير القرآن الحكيم الشهير بـ(تفسير المنار)، للسيد محمد رشيد رضا، الطبعة الثالثة أصدرتها دار المنار بمصر، ١٣٦٧هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي ت٧٧٤هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
- تفسير القرآن الكريم، المسمى بـ(السراج المنير)، للشيخ الخطيب الشربيني، دار المعرفة، بيروت، (بلا . ت).
- تفسير القرآن الكريم (تفسير شبر)، السيد عبد الله شبر ت١٢٤٢هـ، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، (بلا . ت).
- تفسير القرطبي، ينظر الجامع لأحكام القرآن.
- تفسير القمي، لأبي الحسن، بن علي بن إبراهيم القمي ت٣٢٩هـ، تصحيح السيد طيب الجزائري، مؤسسة دار الكتاب مطبعة النجف، قم، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- التفسير الكبير، للإمام الفخر الرزاي ت٦٠٦هـ، التزام عبد الرحمن محمد عبيدان، الجامع الأزهر بمصر، الطبعة الأولى، (بلا . ت)
- التفسير الكبير المسمى بـ(البحر المحيط)، لأثير الدين، أبي عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني الشهير بأبي حيان ت٧٤٥هـ، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، (بلا . ت).

- التفسير لكتاب الله المنير، محمد الكرمي، المطبعة العلمية، قم، ١٤٠٢هـ.
- تفسير الماوردي، ينظر النكت والعيون.
- تفسير مجاهد، لأبي الحجاج، مجاهد بن جبر المخزومي التابعي ت١٠٤هـ، تحقيق عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي، المنشورات العلمية، بيروت، (بلا . ت).
- تفسير المراغي، الأستاذ أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
- تفسير النسفي، لأبي البركات، عبد الله بن أحمد بن محمد النسفي ت٧٠١هـ، (بلا.ت).
- تفسير النهر الماد من البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تقديم وضبط بوران وهديان الصناوي، دار الفكر، (بلا . ت).
- تفسير الواحدي، ينظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.
- التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- تقريب القرآن إلى الأذهان، السيد محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- تنزيل القرآن، لابن شهاب الزهري ت١٢٤هـ، تحقيق د. صلاح المنجد، دار الكتاب الحديث، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- تنوير الأذهان في تفسير روح البيان، الشيخ اسماعيل حقي البروسوي، اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، بغداد، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- التيسيرفي القراءات السبع، لأبي عمرو، عثمان بن سعيد الداني ت٤٤٤هـ، عني بتصحيحه اوتوبرتزل استانبول، مطبعة الدولة لجمعية المستشرقين الألمانية، ١٩٣٠م، وأعيد طبعه بمكتبة المثنى ببغداد.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت١٣٧٦، حققه وضبطه ونسقه وصححه محمد زهري النجار، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ت٣١٠هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الجامع الصحيح المختصر، لأبي عبد الله، محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي ت٢٥٦هـ، تحقيق د. مصطفى ديب البنا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي ت٦٧١هـ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ.
- الجديد في تفسير القرآن، الشيخ محمد السبزواري النجفي ت١٤١٠هـ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
- الجمل في النحو، لأبي القاسم، عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ت٣٣٧هـ، حققه وقدم له د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الأمل، إربد، الطبعة الرابعة ١٩٨٨م.
- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية بيروت، (بلا . ت)
- الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي ت٧٤٩هـ، تحقيق فخر الدين قباوة، الأستاذ محمد نديم فاضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الجواز النحوي ودلالة الإعراب على المعنى، مراجع عبد القادر بالقاسم الطلحي، كلية الآداب والتربية، جامعة قاريونس، (بلا . ت).
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، للسيد أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، (بلا . ت).
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ت٨٧٦هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (بلا . ت).
- جواهر القرآن، لأبي محمد بن محمد الغزالي ت٥٠٥هـ، تحقيق د. محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك الخضري ت١٢٨٧هـ، تصحيح يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي علـى تفسـير البيضـاوي)، للشهاب الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد ت١٠٦٩هـ، دار صادر بيروت، (بلا.ت).
- حاشية الصبان محمد بن علي ت١٢٠٦هـ، على شرح الأشموني علـى ألفيـة ابـن مالك، ومعه شرح الشواهد للعيني، لمحمد بن علي ت١٢٠٦هـ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، (بلا . ت).
- حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، وهي حاشـية للعلامـة الشـيخ أحمـد الصاوي المالكي ت١٢٤١هـ، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأخيرة راجـع تصـحيحها فضيلة الشيخ علي محمد الضباع، (بلا . ت).
- الحجة في القراءات السبع، لأبي عبد الله، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ.
- حجة القراءات، لأبي زرعة، عبد الرحمن بن زنجلة (القرن الرابع الهجري)، تحقيـق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، إعداد هادي عطية مطـر الهلالي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولـى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- حروف المعاني، لأبي القاسم، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ت٣٤٠هـ، حققـه وقدم له د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، لعلاء الدين علي بـن محمـد بـن ابراهيم البغدادي الشهير بالخازن ت٧٢٥هـ، ضبطه وصححه عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- الخصائص، لأبي الفتح، عثمان بن جني ت٣٩٢هـ، تحقيق محمد علي النجـار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠م.
- الدر المنثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت، (بلا . ت)
- ديوان امرئ القيس، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٦م.
- ديوان جميل، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٦م.

- ديوان ذي الرمة (غيلان بن عقبة)، شرح أحمد بن حاتم الباهلي، رواية أبي العباس ثعلب، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ديوان زهير صنعة ثعلب، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.
- ديوان السموأل، صنعة أبي عبد الله نفطويه، تحقيق الشيخ محمد حسن آل يس، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٥م.
- ديوان طرفة بن العبد، كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦١م.
- ديوان عنترة، شرحه أديب مصري، المطبعة الرحمانية، القاهرة، (بلا . ت).
- ديوان النابغة الذبياني، كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦١م.
- ديوان الهذليين، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- الرد على النحاة، لابن مضاء القرطبي ت٥٩٢هـ، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، (بلا . ت)
- الرسول، صلى الله عليه وسلم، سعيد حوى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، للإمام أحمد بن عبد النور المالقي ت٧٠٢هـ، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبعة زيد بن ثابت، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل، محمود الآلوسي ت١٢٧٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا . ت).
- زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي محمد الجوزي ت٥٩٧هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.
- السبعة في القراءات، لابن مجاهد ت٣٢٤، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، (بلا . ت).
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي ت٩٤٢هـ، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح، عثمان بن جني، تحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

- سنن ابن ماجة، لأبي عبد الله، محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٥هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، (بلا . ت).
- سنن الترمذي، لأبي عيسى، محمد بن عيسى الترمذي السلمي ت٢٧٩هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا . ت).
- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت٤٥٨هـ، دار الفكر، بيروت، (بلا . ت).
- سنن النسائي، لأحمد بن شعيب النسائي ت٣٠٣هـ، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ- ١٩٣٠م.
- السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ت٧٧٤هـ، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ - ١٩٧١م.
- سيرة النبي، صلى الله عليه وسلم، لأبي عبد الله، محمد بن إسحاق بن ميسار المطلبي ت١٥١هـ، هذبها أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ت٢١٨هـ، تحقيق محمد محيي عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- شرح الأشعار الستة الجاهلية، لأبي بكر، عاصم بن أيوب البطليوسي ت١٠٤٦هـ، تحقيق ناصيف سليمان عواد، وزارة الثقافة والإعلام دار الشؤون العامة، بغداد، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
- شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، لقاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري ت٧٦٩هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الرابعة عشرة ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م.
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى (منهج السالك إلى ألفية ابن مالك)، للأشموني، أبي الحسن علي بن محمد ت٩٢٩هـ، ومعه كتاب أوضح المسالك لتحقيق منهج السالك، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، (بلا . ت).
- شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري ت٩٠٥هـ، وبهامشه حاشية يس بن زين الدين، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (بلا. ت).

- شرح جمل الزجاجي، لابن عصفور الإشبيلي ت٦٦٩هـ، الشرح الكبير، تحقيق د. صاحب أبو جناح، الجمهورية العراقية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات مؤسسة الصادق، طهران، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- شرح شذور الذهب، لعبد الله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري ت٧٦١هـ، تحقيق عبد الغني الدقر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
- شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات الفيروزآبادي، الطبعة السادسة ١٣١٧هـ.
- شرح الكافية الشافية، لأبي عبد الله، جمال الدين بن مالك، تحقيق د. عبد المنعم هريدي، مطبعة دار المأمون للتراث، مكة المكرمة (بلا . ت).
- شرح كتاب سيبويه المسمى تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب، لأبي الحسن، علي بن محمد بن علي الحضرمي الإشبيلي المعروف بابن خروف ت٦٠٩هـ، دراسة وتحقيق خليفة محمد خليفة بديري، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
- شرح اللمع، لابن برهان العكبري، أبو القاسم عبد الواحد بن علي الأسدي ت٤٥٦هـ، حققه د. فائز فارس، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- شرح المعلقات السبع، لأبي عبد الله، الحسن بن أحمد بن الحسين الزوزني ت٤٨٦هـ، مكتبة النقاء، بغداد، (بلا . ت).
- شرح المفصل، لموفق الدين يعيش بن علي النحوي ت٦٤٣هـ، عالم الكتب، بيروت، (بلا.ت).
- شرح ملحة الإعراب، الناظم والشارح الإمام أبو محمد، القاسم بن علي الحريري البصري ت٥١٦هـ، حققه د. فائز فارس، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- شروح التلخيص، وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح من شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لنهار الدين السبكي، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، (بلا . ت).

- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٦٧م.
- شفاء العليل في إيضاح التسهيل، لأبي عبد الله، محمد بن عيسى السلسيلي ت٧٧٠هـ، دراسة وتحقيق د. الشريف عبد الله علي الحسيني البركاتي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي ت٨٢١هـ، تحقيق د.يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- الصرف الواضح، عبد الجبار علوان النايلة، وزارة التعليم والبحث العلمي، جامعة بغداد ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لاسماعيل بن حماد الجوهري ت بعد٣٩٨هـ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
- صحيح البخاري، لأبي عبد الله، محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي ت٢٥٦هـ، تحقيق د. مصطفى أديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- صحيح ابن حبان، لأبي حاتم، محمد بن حبان بن أحمد التميمي السبتي ت٣٥٤هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- صحيح مسلم، لأبي الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا . ت).
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.
- ضياء السالك إلى أوضح المسالك، وهو صفوة الكلام على توضيح ابن هشام، محمد عبد العزيز النجار، مطبعة السعادة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (بلا. ت).
- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ت١٧٥هـ، تحقيق د. مهدي الخزومي، د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري ت٧٢٨هـ، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، الإمام ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، (بلا . ت).
- فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ت١٣٠٧هـ، الناشر عبد المحيي علي محفوظ، مطبعة العاصمة، القاهرة، (بلا . ت).
- فتح القدير ـ الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ت١٢٥٠هـ، دار الفكر، بيروت، (بلا . ت).
- الفرائد الجديدة، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٢م.
- فضائل القرآن، أحمد بن شعيب النسائي ت٣٠٣هـ، تحقيق د. فاروق حمادة، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٢م.
- الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب، لنور الدين عبد الرحمن الجامي ت٨٩٨هـ، دراسة وتحقيق د. أسامة طه الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية، (بلا . ت).
- القاموس المحيط، لمجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت٨١٧، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- القرآن وإعجازه العلمي، محمد اسماعيل ابراهيم، مطبعة دار الثقافة، الناشر دار الفكر العربي، (بلا . ت).
- قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن، لمرعى بن يوسف بن أبي بكر الكرمي ت١٠٣٣هـ، تحقيق سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم، الكويت، ١٤٠٠هـ.
- كتاب سيبويه، لأبي بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر ت١٨٠هـ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني ت٧٤٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (بلا.ت).

- كتاب اللامات، لأبي القاسم، عبد الرحمن بن إسحق الزجـاجي ت٣٣٧هــ، تحقيـق د.مازن المبارك، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- كتب ورسائل وفتاوي ابن تيمية في التفسير، لأبي العباس، أحمد بـن عبـد الحلـيم الحراني ت٧٢٨هــ، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، دار النشر مكتبة ابـن تيمية، (بلا . ت).
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم، جـار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ت٥٣٨هــ، حقق الروايـة محمـد الصـادق قمحاوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- كشف المشكل في النحو، لعلي بن سليمان الحيدرة اليمني ت٥٩٩هــ، تحقيق د. هادي عطية مطر، مطبعة الإرشاد، بغداد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الطبعة الأولـى ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- اللباب في علل البناء والإعراب، لأبي البقاء العكبري، محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله ت٦١٦هــ، تحقيق غازي مختار طليمات، دار الفكـر، دمشـق، الطبعـة الأولى، ١٩٩٥م.
- لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي، دار إحياء العلـوم، بيـروت، (بلا.ت).
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ت٧١١هــ، دار صـادر، بيروت، الطبعة الأولى، (بلا . ت).
- اللمع في العربية، لأبي الفتح، عثمان بن جني، تحقيق حامد المؤمن، مطبعة العـاني بغداد، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- المبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر، أحمد بن الحسين بـن مهـران الأصـبهاني ت٣٨١هــ، تحقيق سبيع حمزة حاكمي، مطبوعات مجمع اللغـة العربيـة بدمشـق، (بلا.ت).
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير ت٦٣٧هــ، قدمه وحققه وعلق عليه د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، ملتزم الطبع والنشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة، مطبعة الرسالة، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
- مجمع البحرين، لفخر الدين الطريحي ت١٠٨٥هــ، تحقيق السيد أحمـد الحسـيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هــ.

- مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الدين أبو علي، الفضل بن الحسن الطبرسي ت٥٤٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت٨٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت٥٤١هـ، تحقيق د. عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح، عثمان بن جني، تحقيق علي النجدي ناصف، د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي ت في حدود٧٠٠هـ، دار الرسالة، الكويت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- مختصر المعاني، لسعد الدين التفتازاني ت٧٩٢، مطبعة قدس، دار الفكر، قم، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- المخصص، لأبي الحسن، علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده ت٤٥٨هـ، مطبعة المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، (بلا.ت).
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات، لأبي علي الفارسي ت٣٧٧هـ، دراسة وتحقيق صلاح الدين عبد الله السنكاوي، مطبعة العاني، بغداد، (بلا. ت).
- مشكل إعراب القرآن، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ت٤٣٧هـ، دراسة وتحقيق د.حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٥م.
- المطالع السعيدة في شرح الفريدة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق د. نبهان ياسين حسن، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م.
- معالم التنزيل، لأبي محمد، حسين بن مسعود الفراء البغوي ت٥١٦هـ، تحقيق خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ت٢٠٧هـ، الجزء الأول تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، الجزء الثاني تحقيق محمد علي النجار، الجزء الثالث تحقيق د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي، مراجعة الأستاذ علي النجدي ناصف، دار السرور، (بلا . ت).
- معاني القرآن، لأبي الحسن، الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري ت٢١٥هـ، حققه د. فائز فارس، دار البشير، دار الأمل، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس ت٣٣٨هـ، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي، تصحيح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، جامعة المدرسين، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- المعجم الكبير، لأبي القاسم، سليمان بن حمد بن أيوب الطبراني ت٢٦٠هـ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.
- مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ت١٤١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، د. محمد سمير نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار ومطابع الشعب، (بلا. ت).
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا، ت٣٩٥هـ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، إيران، (بلا . ت).

- المغني في النحو، لأبي الخير، تقي الدين منصور بن فلاح اليمني النحوي ت٦٨٠هـ، تحقيق د. عبد الرزاق عبد الرحمن أحمد السعدي، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه حسن حمد، أشرف عليه وراجعه د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- مفاهيم القرآن، الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق، قم، (بلا . ت).
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت٤٢٥هـ، الناشر دفتر نشر الكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- المفصل في صنعة الإعراب، لأبي القاسم، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي ت١٧٨هـ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، مطبعة المعارف بمصر، ١٣٦١هـ - ١٩٤٣م.
- المقتصد في شرح الإيضاح، لعبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ، تحقيق د. كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م.
- المقتضب، لأبي العباس، محمد بن يزيد المبرد ت٢٨٥هـ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- المقرب، لعلي بن مؤمن المعروف بابن عصفور ت٦٦٩هـ، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري، عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٦م.
- المكتفى في الوقف والابتدا، لأبي عمرو الداني ت٤٤٤هـ، دراسة وتحقيق جايد زيدان مخلف، مطبعة وزارة الثقافة والشؤون الدينية، العراق، ١٩٨٣م.
- من أساليب القرآن، د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- المنتقى، لابن الجارود، عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري ت٣٠٧هـ، تحقيق عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- من هدى القرآن، السيد محمد تقي المدرسي، دار الهدى، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، (بلا. ت).
- المهذب في علم التصريف، د. هاشم طه شلاش، د. صلاح مهدي الفرطوسي، د. عبد الجليل عبيد العاني، مطبعة التعليم العالي في الموصل، ١٩٨٩م.
- موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب، خالد بن عبدالله الأزهري ت٩٠٥هـ، تحقيق د. عبد الكريم مجاهد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
- الناسخ والمنسوخ، لأبي الخطاب، قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، ت١١٧هـ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- الناسخ والمنسوخ، لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري ت٤١٠هـ، تحقيق زهير الشاويش، محمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لأبي محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ت٤٥٦هـ، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير، محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري ت٨٣٣هـ، أشرف على تصحيحه ومراجعته الأستاذ علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، (بلا . ت).
- النكت والعيون، تفسير الماوردي، أبي الحسن بن حبيب الماوردي البصري ت٤٥٠هـ، حققه خضر محمد خضر، راجعه د. عبد الستار أبو غدة، مطابع مقهوي، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الأجزري ت٦٠٦هـ، خرج أحاديثه وعلق عليه أبو عبد الرحمة صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
- نحو القرآن، د. أحمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، (بلا . ت)
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (بلا . ت)

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن، علي بن أحمد الواحدي ت٤٦٨هـ، تحقيق عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، منشورات دار الشرق، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

الرسائل والأطاريح الجامعية:

- الدلالة الزمنية للجملة العربية في القرآن الكريم، نافع علوان بهلول الجبوري أطروحة دكتوراه لغة، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- القسم في القرآن الكريم، سعيد محمد عبد السلام ناجي الحداد، رسالة ماجستير، أصول الدين كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- القسم في القرآن الكريم، عواطف يوسف الزبيدي، رسالة ماجستير، لغويات، كلية البنات، جامعة الأزهر.

Oath Negating Form in Al-Quran Al-Karim. Analysis, semantic, and grammar Study

This subject includes oath negating form (no taken oath) [La Uksim] in Al-Quaran Al-Karim which are 8: in Al-Wake'a :75, Al-Hakka:38 -39 , Al-Ma'arej :40 . Al-Keyama :2-1, Al-Takweer :15 , Al-Enshikak:16 , Al-Balad :1 .

The importance of this study is to discover what found in books and is build on them what have from grammar rules also to know concepts , semantic , and believes which need for rebuilding and reviewing .

The study based on two main subjects :

1. **First / Show , analysis , discussion , and criticize .**
2. **Second / Semantic study**

The research divides into three chapters, then followed by results

<u>First chapter</u> *:* Establishment studies for thesis in three studies

First : Oath and it's properties in Al-Quaran Al-Karim

Second : Grammar Scientists talking in (La) Al-Negatory , while Third deals with stopping forms for (no taken oath) [La Uksim].

<u>Second chapter</u>*:* Scientists sayings and their opinions in oath negating form in two researches : Show in one of them explanation scientists ways and their sayings in explain oath negating in Al-Quran Al-Karim .

Other part deal with what is saying about form (no taken oath) [La Uksim] through gathering grammar and semantic opinions by discussing opinion of each one , then analysis it in oath negating form.

<u>Third chapter *:*</u> **Purposes of oath negating form in Al-Quran Al-Karim . I work hard in producing and naming them .**

God bless me in this study to show results like :

1. **Only Quran Al-Karim using form (no taken oath) [La Uksim].**
2. **Overbalancing negating opinion in form (no oath) [La Uksim] and proving that by denotation and proving .**
3. **Effloresce the study results in (8) purposes for oath negating , then I began with describing and naming them .**
4. **Suggestion new terms about form of (no oath) [La Uksim] .**



Oath Negating Form In Al-Quran Al-Karim. Analysis, Semantic, and grammar Study

A THESIS SUBMITTED BY

Sumayya Mohammad Enaya Haj Naif

TO THE COUNCIL COLLEGE OF EDUCATION
(IBN RUSHD)

In partial Fulfillment for the Requirement of Ph.D. Degree in
(ARABIC LANGUAGE / LANGUAGE)

SUPERVISED BY

Prof. Dr. Abd Al- Rahman Mutlak Al-Juboori

1425A.H **2004 A.D**